

أوغست مولييراس
Auguste MOULIERAS

المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشاف الريف

HC840ΣΘ ΣX 8Σ+L.Θ||8I
+ΣKΣI.0ΣK

ترجمة وتقديم

د. عز الدين الخطابي

2007

أوجست مولييراس
Auguste MOULIERAS

المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشاف الريف

HC84040 8X 85+L.0081
+8181.0041

ترجمة وتقديم

د. هز الدين الخطابي

2007

مكتب: المغرب المجهول، الجزء الأول، اكتشاف الريف.

المؤلف: أوغست موليراس Auguste MOULIERAS

المترجم: عز الدين الخطابي

رقم الإيداع القانوني: 0519 / 2007

منشورات: تاروق ن اء ريف

الطبعة: 2007

المطبعة: دار النجاح الجديدة

الإهداء

إلى زوجتي الريفية الأصيلة.

وإلى أبنائنا.

إلى كل مدافع عن قيم التمسك والاختلاف.

إلى روح القلوب الشرفاء.

وإلى الناشطين من أجل خير هذا الوطن من الأحرار.

هو الدين العظيم



LE

MAROC INCONNU

Conserver la Couverture

21 ans d'explorations dans cette contrée mystérieuse, de 1872 à 1893.

IMPORTANTES RÉVÉLATIONS de voyageurs musulmans sur le pays, les habitants, les mœurs, coutumes, usages ; industries commerciales, agricoles, manufacturières ; richesses minérales, forestières, pastorales ; population, forces militaires, administration, langues, races, etc.

7678

PAR

Auguste MOULIÉRAS

*Professeur à la Chaire de Langues et de Littérature arabes à Oran
Ancien Interprète titulaire de l'Armée française et du Gouvernement Général de l'Algérie
Ancien Professeur d'Arabe aux Lycées de Constantinople et d'Oran
Auteur de plusieurs Ouvrages relatifs aux Langues arabe et berbère*

« Le Maroc, pays africain incomparable,
« qui sera un jour, espérons-le, le plus beau
« fleuron de la couronne coloniale de la France »

(V. p. 32).

PREMIÈRE PARTIE

EXPLORATION DU RIF (Maroc Septentrional)

Avec Cartes inédites du Rif et de chaque Tribu (hors texte) — 1/250,000

Propriété de l'Auteur. — Tous droits réservés

En dépôt à Paris à la *Librairie Coloniale et Africaine*, JOSEPH ANDRÉ,
rue Bonaparte, 27

— DÉCEMBRE 1895 —

03
133

مقدمة المترجم

معارف الخطاب الإثنوغرافي

ولما ترجم هذا الكتاب المستع والمتميز، تبادرت إلى ذهني أسئلة عديدة، ستختصر وتوضح مع تروحي صحة المؤلف، في غابات ووديان وجبال وقيال الريف، لتتبلور بشكل واضح مع نهاية آخر سطر من هذا الكتاب. ويمكن صياغة هذه الأسئلة كما يلي:

- ما هي الأهمية التي يكتسبها الآن، عمل إثنوغرافي لأجز حول منطقة الريف في أول آخر القرن التاسع عشر؟
- ما هو الموقع الذي يحتله هذا العمل بين "الموضوعية العلمية" و"التبرير الإيديولوجي والسياسي" للاستعمار وتحديد الاستعمار الفرنسي؟
- أين تتجلى معارف الخطاب الإثنوغرافي لموليراس حول الريف وأهله؟ وما هي الدروس المستخلصة من هذا الخطاب؟

1- مدى أهمية هذا العمل الإثنوغرافي

يترجم مؤلف أوجست موليراس الصادر بوهان سنة 1895، والذي اختار له عنوانا رئيسيا هو "المغرب المجهول"، وعنوانا فرعيا هو "لكتشاف الريف"، ضمن الاهتمام الذي لولته أوروبا للمغرب. وهو الاهتمام الذي يمكن أن نموقعه عبر ثلاثة مستويات: سياسية واقتصادية وثقافية.

على المستوى السياسي: كان لهزيمة المغرب في معركة إلملي ضد فرنسا سنة 1844 وفي تطوان ضد إسبانيا سنة 1860، أثرهما في تسريع ونهضة اهتمام الباحثين الأوروبيين بالمجتمع المغربي الذي كان يكتسب في مخيلتهم طابعا غريبا. هكذا تحدثت البعثات والرحلات إلى المغرب وظهرت في هذا الإطار أسماء وزنة في مجال الإثنوغرافيا والجغرافيا والعلوم القانونية والسياسية، ساهمت عبر مراسلاتها وملاحظاتها الإدارية ومقالاتها وكتبها، في تقديم صورة عن بلدها، ليس الهدف منها فقط هو إتيان رغبات القارئ المعادي، بل أيضا وأساسا، تقديم معلومات حيوية لأصحاب القرار السياسي والعسكري في أوروبا، في مرحلة التوسع الاستعماري

- لهذه الأخيرة. ومن بين هذه الأسماء نفكر: دو مكزي De Mackenzie (إنجلترا، 1871 -
 1872)، لانز Lenz (ألمانيا، 1879 - 1880)، بنويتز benitez (إسبانيا، 1872 -
 1880)، شارل دو فوكو Ch. De Foucauld (فرنسا، 1883 - 1884).

على المستوى الاقتصادي: إن الاتفاقيات التجارية التي تمت بين المغرب وبعض
 البلدان الأوروبية في القرن التاسع عشر - كما هو الشأن مع إنجلترا سنة 1856 مثلا - سمحت
 بفتح الأسواق المغربية على التجارة الأوروبية ومهدت لظاهرة الحملية القصلية. وبذلك اشتمت
 العلاقة بين الأوروبيين وتحدثت بعثتهم ورحلات مكتشفهم، لترسخ تولدهم بهذا البلاد. هكذا
 سيتولد بهذا الأخير نوعان من الاستثمار:

- استثمار اقتصادي ذو خلفية سياسية، تقوم بالأساس، استغلال خيرات بلندا.
- استثمار على مستوى المصلحة، يقدم أحكاما وتصورات حول المجتمع المغربي،
 مطبوعة بالفرجة الغرائبية exotisme وبمركزيتها الغربية.¹

على المستوى الثقافي: كان لتطور حقل الاستشراق والعلوم الاجتماعية أثره في
 صياغة وبلورة صورة خاصة عن الآخر (الشرق)، ظلت خاضعة لمجموعة من المراكز،
 يمكن تلخيصها في ما يلي:

- تصورها الميتافيزيقي لتقنيات الآخر.
- ارتباطها فكري أو الجزئي بالسياسة الاستعمارية.
- تكييفها لشرعية.

وهذا ما أكد عليه المفكر الفلسطيني الراحل، إدوارد سعيد، حينما اعتبر بأن الشرق
 « يعطين بوصفه شيئا وجوده معروف دائما للغرب، ويوصفه أيضا شيئا بقي ثابتا في الزمان
 والمكان من أجل الغرب. لقد كتبت نجاحات الاستشراق بوصفية والتعبئة من الضلعة
 والتأثير، بحيث أن مراحل كاملة من تاريخ تشريق الثقافي والسياسي والاجتماعي، تعتبر الآن

¹ - M. Alaoui Belrhiti, *F ès lieu d'écriture*, Ed. Afrique Orient, casablanca, 1988, pp. 12 - 13.

مجرد استجابات للغرب. فالتغرب هو المشهد والحكم والمطوون، لكل وجه من أوجه سلوكه الشرقي².

ورغم القناعات الطارئة على مناهج الغربيين واستقائهم من مستويات العلوم الاجتماعية (الجغرافيا، بتولوجيا، تاريخ اقتصادي، إلخ...)، فإن هذا القنص المعرفي سيتم استكماله في إطار " المنظومة المرجعية الغربية " التي تتميز كسول كوني للحكم، ويقتلي سوط الأخر (أي نحن)، خلاصا لهذا النموذج الغربي الأمل الذي تشكل نزعة ذهنية عتقا لأم أي تصور موضوعي ثقافة الأخر³.

وفي هذا الإطار، ستشكل الأبحاث والدراسات حول المغرب، مجالاً لمراكمة منظومات حول عادات وتقاليد وسلوكات أظه، من أجل استثمارها السياسي والإيديولوجي فيما بعد. وسيم ابتداء من سنة 1904، تأسيس ما يعرف بالهيئة العلمية بالمغرب، يتخو من الإثنوغرافي الفرنسي ميشو - بيلاير Michaux - Bellaire ، وهو ما سيعتبر نقطة انطلاق مؤسسية للأبحاث حول المغرب مقدم سوليا من طرف سلطات الحماية، وتحديدًا من طرف ليوطي. وسيتج عن ذلك إصدار " الأرشيفات المغربية " و " مجلة العلم الإسلامي ". وابتداء من سنة 1920 سيطهر أول عدد من مجلة " هسبريس Hesperis " لثقافة أصيت، التي ستحل محل " الأرشيفات الأمازيغية " التي كانت تصدر عن المدرسة الفرنسية الأمازيغية التي أسست بالرباط سنة 1914.

وسما لا شك فيه، أن هذه " الحركة العلمية "، قد سمعت بمراكمة منظومات وفرة حول العادات والتقاليد المغربية، ليس بالحواضر فقط ولكن أيضا وخصوصا بالبوادي والقرى والمناطق الجبلية التي ستصنف في كثير من الأحيان في خانة " بلاد الصية "، التي لا تخضع لنظام المعزني. غير أن هذا القروكم المعرفي كان يخضع في مجمله لمقتضيات سياسية استعمارية، مما جعل خطابه مثقبا ومفارقا، فما هي أوجه هذا الالتباس وهذه المفارقة؟

² - إولاد سعيد الأمشوق، المعرفة السلطانية، ترجمة كامل أبو تيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت الطبعة 1، 1981، ص. 132.

³ - ج. أمين الططفي، " تكسيم روتسبون والأمشوق "، مجلة ثقافة الجديدة عدد 30، السنة السابعة، 1983، ص. 102.

2- مفارقات الخطاب الانتوغرافي:

يمكن تحديد هذه المفارقات عبر ثلاثة مستويات وهي:

- علاقة العلم بالسياسة
- نظرة الثقافة للمجتمع المغربي
- أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإنتولوجيا المغرب.

2-1: المستوى الأول:

إن أبرز ما يميز الخطاب الإنتوغرافي هو محاولته الجمع بين الصرامة العلمية التي تقتضيها منهجية العلوم الاجتماعية والمصلحة السياسية للوطن الأم (فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، ألمانيا، إلخ...)، وهذا التجاور، أو بالأحرى هذا التداخل بين العلم والسياسة، هو الذي يمكن للباحث خطاب الباحثين الاجتماعيين الغربيين وصعوبة التزامهم بـ "الموضوعية العلمية". وقد سبق للباحث المغربي فوزي مرورو أن أبان عن هذا الالتباس بخصوص أعمال ميشو بينير والهدف من تأسيس "البحث العلمية"، حيث تساءل قائلا: «إذا كان هدف "البحث العلمية" هو القيام بدراسة موضوعية حول المغرب، تروم معرفة الواقع من أجل السيطرة عليها، وإذا كانت هذه السيطرة تتضمن تبريرات مشروعة، فإن تسقط هذه المؤسسة بالنسبة في تناقض لا يمكن تجاوزه حتى ما يبدو، تناقض يتمثل في محاولة معرفة الواقع بغرض تشويهه، رغبة في استعصائه لأغراض خاصة»⁴.

2-2: المستوى الثاني: يعتبر لناجا لالتباس الخطاب الانتوغرافي وتأرجحه بين

"المطلب العلمي" و"المصلحة الخاصة"، حيث خضع تصور المجتمع المغربي للثقافة قلما على مجموعة من الثقلات مثل: بلاد المغزن / بلاد السية، العرق العربي / العرق الأمازيغي، الشرع / العرف، المجتمع الحضري / المجتمع القروي، الإسلام الرسمي / الإسلام الشعبي، سلطة الجماعة/ سلطة الدولة إلخ... وبند استعمار هذه الثقافات باعتبارها المكاسا لظن الواقع المغربي ولتدنيته وتنوع أشكاله الاجتماعية والثقافية، فقد تم التعامل معها بشكل تجزئي

⁴ - M.F. Hourero, *Sociologie politique coloniale au Maroc*, cas de Michaux Bellaire, Ed. Afrique Orient, Casablanca; 1988, pp 23- 24.

والخزافي، حيث تمت معالجة كل مكون من مكونات هذه التقلبات، بمعزل عن الآخر، ولم تعدد العلاقات الظاهرة أو الخفية بين أحكام الشرع وأحكام الحرف مثلا، أو بين تكبير الجماعة لشؤون القبيلة والتكبير المفسري لشؤون البلاد، أو بين إسلام الزوايا والمعتقدات التي ترجع إلى عهود سحرقة، والإسلام المذهبي المقتن. وهذا ما دفع فلاحت السوسيولوجي الراحل بول باسكون P.Pascon إلى القول: « بأن أفضل الأصول اهتمت بالجوانب الجزئية للمجتمع المغربي (...) لذلك فإن هذا الأخير لم يدرس في كليته سوى بطريقة سطحية جدا وغير متكاملة ».⁵

2-3: أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإثنولوجيا

مغربية:

ومع ذلك، فإن هذه الأبحاث والدراسات الإثنوغرافية والتاريخية والسوسيولوجية والقانونية والجغرافية، تشكل ثروة وثائقية هامة لا غنى عنها لمعرفة الواقع المغربي في إحدى فتراته الأكثر غموضا، ونقصد بذلك الفترة ما قبل الاستعمارية. وتتجلى هذه الأهمية على ثلاثة مستويات على الأقل:

- فهي قد مكنت من استخدام مناهج العلوم الاجتماعية لدراسة وفهم واقع المجتمع المغربي.

- كما أن الموضوعات الخاضعة للملاحظة والتحليل، كانت متنوعة بشكل كبير وأبانت عن تعدد الثقافات وخصوصيتها وتفاعلها مع البيئة المحيطة بها.

- ومن جهة ثالثة، ساهمت في التمهيد لقول سوسيولوجيا واثنولوجيا تهتمان بالواقع الاجتماعي بمغرب ما بعد الاستعمار، والتي حمل لواءها باحثون مثل أندري آدم A. Adam، صاحب العمل الضخم حول الدار البيضاء، وبول باسكون وعبد الكريم خطيبي وعبد الله حمودي، إلخ...

وهذا وجه آخر، لعلاقات الأبحاث الإثنوغرافية. فهي وإن كانت " إرادة المعرفة " لديها ثروم خدمة " الإدارة الاستعمارية "، إلا أنها ساهمت، بشكل غير مباشر، في وضع أرضية للنقاش حول طبيعة المجتمع المغربي وأتمات العلاقات بين مكوناته، سواء على المستوى الأدنى (بين السوسيولوجيين والأثنولوجيين)، أو على المستوى العمودي (بين هؤلاء وبين المؤرخين وعلماء الاقتصاد والسياسة).

⁵ - Paul Pascon, *Etudes rurales*, S.M.E.R., Rabat, 1980, p. 197

لذلك، لا يمكن تجاهل التأثير الذي مارسه هذه الجغرافيا على مسار الأبحاث الاجتماعية، أولاً بسبب غنى الأبحاث المستعملة من طرف باحثيها والمناهج والطرق التي ابتكروها لدراسة الوقائع (مؤوجرافيات، تحقيقات...) وثانياً، بفضل الدراسات التي منطلحتها على القطاعين (السياسيين والاقتصاديين) في المغرب ما بعد الاستقلال. وثالثاً، نظراً للتحديات التي منحتها أمام الباحثين المغاربة، لخصص مفاعيلها ولطروحاتها المتعلقة بالهياكل الاجتماعية والثقافية والسياسية لمغرب ما قبل الاستعمار.

ونفساً في هذا الإطار: بأي معنى تطبق هذه الأحكام على عمل موليراس حول قريف؟ أو بصيغة أخرى، أين تكمن مفارقات خطاب هذا الجغرافي والباحث اللغوي؟

3 - التباس ومفارقة الخطاب الجغرافي لموليراس:

إن أول ما يثير انتباه قارئ هذا الكتاب، هو اعتراف موليراس الصريح بأنه لم يذا لزم قريف أبداً، على عكس الرحلة الجغرافية الآخرين الذين زاروا المغرب (مكثري، دوفوكو مثلاً). وهذه أول مفارقة يمكن تلمسها: إذ كيف يمكن تقديم معلومات دقيقة عن عادات وتقاليده وسلوكيات شعب ماء دون الاحتكاك به ميدانياً؟ طبعاً، إن موليراس سيحاول إقناعنا بأهمية ما قام به، انطلاقاً من ثلاث حجج يعتبرها دافعة:

3 - 1: فهو قد اعتمد على مخبر كل نظيره، وهو القبائلي محمد بن الطوب (الملقب بالندويش) الذي سيتجول في ربوع القريف مدة تفوق العشرين سنة (ما بين 1872 و 1893)، حيث سينقل إلى موليراس كل ما علمه وعاشه من أحداث ووقائع. وطبعاً، فإن هذا القبائلي استطاع أن يوهب أعلى المنطقة بأنه ريفي مثله.

3 - 2: ولكي لا يتعرض عليه أحد، يكون ما أتى به هذا المخبر، قد يكون عبارة عن روايات لا أساس لها من الصحة، فإن موليراس كان يفتكم فرصة تولد القريبيين بوهزان - للعمل بالفلاحة - لتؤكد من صدق أقوال الندويش، عبر المقارنة بين مختلف الروايات التي يلقاها.

3 - 3: أما الحجة التي يعتبرها موليراس حاسمة، والتي هي بمثابة تحد لكل متشكك في الأخبار الواردة في مؤلفه، فقد عبر عنها بقوله: « لفتحوا هذا الكتاب، ولوقفوا أي ريفي لتكنه

به، متطعا كن أو جاهلا، وقرؤوا عليه الجزء المتعلق بقبيلته وبالمناطق التي يعرفها،
وسكون رد قطه بمثابة بقعة لي أو إلهات لما كتبه.⁶

وكذا قام موليرس نفسه بهذه التجربة، وكلفت النتيجة أن مغالطيه من الريفيين ذهبوا من
ذلة المظلمات المتوفرة لديه، بل إليهم سيمونه بمظلمات جديدة كان لها تأثير إيجابي على مسار
تكوين الكتاب.

ومع ذلك، فإن الجانب الذاتي في عملية سرد الوقائع والأحداث، قد طغى كثيرا، بل إن
مزاجية المخبر كانت هي المحددة في بعض الأحيان لأحكامه وتصويراته. مثلا، يكفي أن يسلمه
فرد من قبيلة ما لمتته، ليصبح أهلي تلك القبيلة جميعهم نموذجها للخداخ والنفاق وقطع الطريق
إلخ.. بالمقابل، فإن القبائل التي لكرمت ضيافة الدرويش، ستعتبر نموذجها للشهامة والسفاهة
والطهوبة. لنف إلى ذلك، أن هذا الجانب الذاتي قد غلب أيضا في نقل بعض المبادئ إلى درجة
تصبح معها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع. (نشير هنا إلى سرد وقائع كركنل بتسمان
والحديث عن فروسية بني بويحيى وعن الانتقال بين أفراد بني ورياغل في الأسواق إلخ...).

ونقصد بذلك أن هذه الوقائع، ولي كانت لغوية، إلا أن الصيغة التي رويت بها هي التي تجعلها
مسط مسطرة.

هذا الانتقال يتجلى أيضا في تصور العلم المتعلق بأهلي الريف وبمناطقهم. فمن جانب،
هناك اعتراف بأسئلة الريفيين وبشعائهم وخصوصا - وهذا أمر بالغ الأهمية - بأسئلة المرأة
الريفية وبشخصيتها القوية وجعلها متميز وسلطانها التي لا تتزعزع دلائل منزلها. ولأخيرا بالارتباط
الشخصية الريفية بالحرية وبالاستقلالية بشكل لا نظيره.

ومن جهة أخرى، هناك إقرار بجهل هؤلاء الأهلي وقسوتهم وانطوائهم على ذاتهم
وحزهم، ليس فقط من الأجانب، بل من بعضهم البعض، إلى درجة يصعب فيها على المرء في
حالات الأخذ بالتأثر أن يفكر بيته نهرا، لأن مصوره سيكون هو القتل.

وهذا الأمر، وضحا أمام التقليل المثير للجدل بين مفهوم الجماعة وواقع " القبيلة " الذي
يسهب موليرس، كغيره من الاثنوغرافيين الدارسين للمغرب، في وصفه. فقرة يتحدث عن

⁶ - نظر خاتمة الكتاب.

الجماعة كشكل من أشكال التمثيلية الديمقراطية ما دامت كل إقليم القليلة ممثلة فيها.⁷ وتترى أخرى، وتحدث عنها فقط كأولويات مؤسسة يفتقر، هدفها الأساسي هو الوقوف في وجه سلطة المخزن. ومن هنا، فإن التنظيم الجماعي لم يمنع القبائل من العيش بحرية في أقرب إلى القوضى و " القبية " وهو ما سيطرته مولييريس صرلحة في الصفحات الأخيرة من الكتاب، حينما سيطر بلن الرقيقين بدون سعاداء جدا بحياتهم التي يقصونها في جهل وقوضى كاملين، وأن يقف به الأمر عند هذا الحد، بل سيطر القطن لرغباته المكونة والتي تقصع عن الوجه الآخر لخطبه، حيث يقول: « إذا كان الفكر المكون سيطر على بلد الحريات هذا بأن يضع تحت سيطرة الأجنبي، فإن ما نقصناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا للتطيف يوما مع رعيله المسلمين، قد دلب على معظمتهم بشكل جيد، بل أفضل بكل تأكيد مما هو عليه حالهم في المنطق التي تحبسها الأمم الأوروبية الأخرى.»⁸

طبعا، سجد بين ثانيا الكتاب للموجات وأمانى من هذا القبيل، خصوصا عند وصف الطبيعة الرائعة لمنطقة الريف والتمصر على عدم استغلال خيراتها الفلوية والمنجمية من طرف الأمازي، ودعوة فرنسا إلى استخدام كل وسائلها للتمكّن من هذه الخيرات، وعدم ترك المجال أمام الإسبانيين ليهبطوا ما يشاؤون بالمنطقة، منكرًا بأن سذاجة الفرنسيين هي التي حرمتهم من السيطرة على الجزر الجعفرية، كنقطة انطلاق للتحكم في أراضي الريف.

من جانب آخر، سطر مولييريس بأن التعامل مع أي شعب يستلزم التعرف على عاداته وتقاليده وفهمها بشكل جيد. وأحسن وسيلة لتحقيق ذلك، هي تعلم اللغة. لذا، سيكون من الداعين إلى تعلم اللغتين الأمازيغية والعربية قبل الكتابة عن أي جزء من أجزاء المغرب الكبير أو العالم الإسلامي. وسوجه بذلك، نقدا لاذعا للمستشرقين والإثنوغرافيين والمؤرخين الأوروبيين الذين لم ينتهوا في غالبيتهم سوى أصال جوفاء، سيطرها الفسيفساء سريعا، وأن تولد لا الباحثين ولا أصحاب القرار السياسي والعسكري. وطبعا، سيجتر مولييريس بأن ما قام به هو النموذج الذي يجب أن يتخذ، فهو ملم بالعربية كالمستد لها ومخبره (فديوش) يتكلم الأمازيغية، وهو ما سيسمح للمعرفة بأن تكون في خدمة السلطة.

⁷ - نقلا مع الأستاذ محمد الوالي في ترجمة fraction (بالإسبانية fraccion / seccion) يقسم بلد أو قلة، حتى يتم تقادي القيس بين قلة وترافقت. انظر - نيد مونتيسوري حارت، التقوى العربي الوالي، ترجمة د. محمد الوالي منشورات المعهد الملكي للغة الأمازيغية مطبعة المعارف الجديدة الرباط، 2004، ص. 11

⁸ - انظر قسم التعلق بيني بثير.

ورغم هذه المفارقات والالتباسات التي ولقنا عليها، يظل هذا العمل في نظرنا، ذا أهمية كبيرة. لأنه سمح بالتعرف على نمط حياة الريفيين في مرحلة حرجية من تاريخ المغرب، أي أواخر القرن التاسع عشر. وثالثا، لأنه مكن من إبراز خصوصية العلاقة التي تربط أهالي الريف الأحرار بالآخر: سواء كان هذا الآخر هو المغزن، أو الغرب المستعمر (إسبانيا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا)، أو الجار نفسه (قبائل جبال).

ولا بأس من الإشارة إلى أن سرد الوقائع قد اتخذ لشكالا محددة، إذ تم فيه الانتقال من المستوى التقريبي الوصفي، إلى المستوى الملحمي الشعري، ومن جدية وصراحة التحليل، إلى الدعابة والسخرية. وهو ما انعكس على صياغة الجمل والفقرات، بحيث يتم في كثير من الأحيان الانتقال بنا بشكل مفاجئ، من موضوع إلى آخر ومن حدث إلى حدث مغاير له تماما (مثلا الانتقال من موضوع المرأة، إلى الأولياء، إلى الطفل بين القبائل دون أية رابطة بين هذه القصص). لكن ذلك، لم يزعج عن الكتاب طرافته وجذارته وأهميته.

ولا ينبغي في الأخير (إلا أن أتوجه بخالص الامتنان إلى زوجتي التي ساعدتني معرفتها النفسية بتميزها، على تحقيق معنى بعض الحوادث الواردة في الكتاب باللغة الأمازيغية. كما أن استحضار روايات المرحومة جدتها التي عاشت طفولتها بالريف (قلعة)، في هذه المرحلة بالذات التي تحدث عنها مولييرس، شكلت مادة مفيدة للتحصيل والمقارنة بين الأحداث. وهذه دعوة للباحثين في المجال الأنثروبولوجي خصوصا، كي يولوا أهمية كبرى لما يعرف بسرد وقائع الحياة Récits de vie ، كجزان هام من المطومات والأخبار يمكن أن يساهم في فكشف عن واقع وحقق طواها النسوان.

فاس، في 02/02/2006

د. عز الدين الخطابي

المغرب المجهول

استهلال

الأرض طاووس والغرب كعالتة *

مثل عربي

لماذا وكيف أنجزت هذا الكتاب؟

ما بين إقليم وهران والمحيط الأطلسي، يمتد بلد شاسع وجميل أكبر من فرنسا، سندهو هذا البلاد، المغرب، وهو الاسم المقطوع من إحدى مدنه الرئيسية (مراكش). ونحن نعلم بأن المغرب لا زال إلى حدود اليوم، أرضا مجهولة تقريبا. وعلى الرغم مما يذكره واضعو الخرائط والجغرافيون الجيدين الذين ينقل بعضهم عن البعض الآخر دون نقد ولا انشغال بالحقيقة، فإننا نستطيع التأكيد بأننا لا نعرف ولو جرما واحدا من الألف، من هذه الإمبراطورية القشرية. وعليها ألا نظل مدعشين من هذا الجهل العظيم، في قرن عرف العديد من الاكتشافات الجغرافية، ولنبعث بالأحرى عن الأسباب. ذلك أن هذا الجهل مرده سبب واحد ووحيد وهو عدم معرفة اللغة العربية.

ولاخترق المغرب واكتشاف أبعد زواياه وأركانها، يلزم على كل أوروبي راغب في المغامرة لدخل هذا البلاد، التسليح بخطين بشكلان في الحقيقة علما واحدا: يجب عليه معرفة العربية الكلاسيكية بشكل لا يلبس به ومعرفة العربية الدارجة بشكل جيد. وهذا الشرط الوحيد ليس هو الأسهل، وإليك بيان ذلك: فضلا عن الضرورة المطلقة للتكلم بالعربية، وهو ما يعتبر بالنسبة للأجنبي أمرا مستحيلا، يجب أيضا معرفة القرن الكريم برمته تقريبا، وحفظه عن ظهر قلب

* - ملحوظة المترجم: كتب هذا المقال بهذه الصيغة في النص الأصلي.

ولمراسته وفق قواعد ثابتة، مع الالتزام بالثبوت العربية الخالصة. ويجب على المرء أن يكون على درجة بالغة القنوية وأخبار الصلبة وأن يلقى بالمساجد عروضاً دينية حول الأوجية والأنبياء وصلاح الإسلام الذين لا يعدم إحصاء، ومعرفة عناصر من التشريع الإسلامي على الأهل وإقامة الناس في المساجد والمشاركة في الجنازات وقراءة بعض الآيات القرآنية بمعية القضاة الآخرين وأيضاً بعض الأمجاد القنوية التي لها قيمتها بالبلاد. ويمكن لهذه الأمور أن تشغل أكثر الأوروبيين موهبة، مدة خمسة عشرة سنة تقريباً، دون أن يضعف ولو دقيقة واحدة.

إن معرفة العربية وحدها توزي معرفة أكثر من عشرين لغة وإحكام المصحح على تلك. فدراسة الألب العربي تختار من الأمور الصعبة، إلى درجة أن تشيوخ المتفكرين في اللغة، يظفرون صراحة بمجزهم عن مسابقة لحد الكثير من الألفاظ الجديدة التي يقولها في كل صفحة، ويضاف غياب الحركات وعلامات الوقف وغياب الكتابة بحروف كبيرة majuscules إلى الغنى المعجمي لهذه اللغة، وهو الغنى الذي يتجاوز كل ما يمكن للمخيلة الأكثر عطاء أن تعلم به. فنحن نصاب بالذوار لسم رقم 12 مليون و 305 ألف و 412 كلمة التي يشتملها القاموس العربي. كما أن المترادفات لا تعد ولا تحصى تقريباً. وقد صنف الباحث المجتهد دو هامر De Hammer ، 5744 كلمة ذات علاقة بالجميل Chameau. ووجد المعلم اللغوي فيروز لهادي ثمانين مرادفاً لكلمة صل وألف مرادف لكلمة صيف. كما أن كلمة مصيبة تشتمل على أكثر من 400 مرادف. ويمكن لفقهاء في اللغة Philologue أن يولف كتاباً حول أسماء الأسد التي يبلغ عددها 500. وقد كانت مترادفات كلمة ثعبان التي بلغ عددها 200، موضوع بحث أحد المؤلفين بالإحصائيات. ولا يفتأ الأمر عند هذا الحد، إذ تصل صعوبة هذه الدراسة إلى نزولها عبر تضمن كل كلمة اسميات عديدة ومتقلصة. وكلّ عبقرية جهنمية وجدت متعتها في جعل هذه اللغة هارة عن لغز لهادي. ومعلوم أن محاولة تجميع كل لهجات شبه الجزيرة العربية، في قاموس واحد، قد تمهيت في حدوث القوضى.

ولا تتوفر العربية لدراسة على الغنى المسير للألب، لكنها تقدم مع ذلك وفرة من المترادفات، ربما لا توجد بنفس الدرجة في أية لهجة أخرى. ومنذ حوالي ربع قرن من دراستي لها، استطعت أن أدرك بأن كل كلمة من كلمات العربية الدارجة، تتضمن في المحل ثلاثة مترادفات. وإذا أضفنا إلى ذلك الجمع غير القياسي Pluriel irrégulier، الذي يشكل غياب شبه بينه وبين مفرده تقريباً، كلمات جديدة يتعين فهمها، فإننا سنحصل على مئات كلمات يجب معرفتها، بالنسبة لكل كلمة مقابلة في الفرنسية مثلاً. ونشير أيضاً إلى ضرورة تمييز الحجرة للتعود على النطق الفصح الذي لا تعرف منه لغتنا الأوروبية شيئاً. لذلك كله، يمكننا تصور المجهود الذي

يجب بذله فتتكم بالعربية مثل العربي. وليس غريبا أن نرى القتل من الأوروبيين قتل من يستطيعون التحدث بالكثير اللهجات إثارة للإحباط وكتبتها بشكل ملام.

ولأنني مقتنع بأن العمل الأدوب سينتهي بنا إلى بلوغ مستوى العرب المتعلمين على الأقل، وهذا أمر جميل في حد ذاته، فإني أسمح لنفسي بالإفصاح عن أمنية تتعلق بالدراسات العربية التي عرفت الإهمال بفرنسا وبالجزائر. فلتقدم الدولة من أجلها أكبر التسهيلات، لأنها ستكسب عن طريقها حب العرب والمسلمين في العالم أجمع، وستعرف على نمط تفكير المجتمع المصري وعلى رعايته، لأن مساعدة هذا المجتمع لنا، تعتبر بالغة الأهمية. وللتطبيق وصية رسول الإسلام إلى أتباعه والتي جاء فيها: « من علم لسان قوم لمن من مكرهم ». ففي المغرب، تعتبر المعرفة الجيدة بالعربية كلفة. وفي المناطق التي يسيطر عليها الأمازيغ، وهي مناطق عديدة يجب علينا أن نضيف إلى العربية لهجة أمازيغية مغربية أو جزائرية، ويمكننا أن نعلم بأن جرارة دامل كل جزء من المغرب، متكررين في زي طلاب مجتهدين، مستعدين مسبقا للنص والعزم، مع الاحتراز من أية توصية، كهنا كل مصدرها.

ولتم لها الفرنسيون الشباب المقلون على السفر إلى المغرب، عليهم أن يستحضروا دائما هذه الحقيقة التي تم تجاهلها لمدة طويلة: وهي أن كل المكتشفين الأوروبيين قد فعلوا وسيفعلون في العالم الإسلامي، بسبب جهلهم بلغة العربية. ونحن لا نريد هذا القتل من شأن أولئك الذين نعرفنا بواسطتهم على جزء واحد من ألف، من أرض المغرب؛ ولكننا نؤكد بأن لا واحد منهم، بما فيهم صاحب الاسم المستمر: علي باي باديا لبليش⁹، كل مستعدا للتحدث بطلاقة، بهذه اللغة المحبطة التي تهت الفأس أو الفرح في نص كل من يريد التعمق فيها. فلا واحد منهم لغزقي قبوادي، بعيدا عن الطرق المرسومة من طرف الحمار Hammar (وهي ثقالة المحروسة من طرف الجنود الصفارية).

ولأنهم كانوا محبين ومحتقرين ومثيرين للتهبت وغير مستوعبين للمعلومات التي كانوا يتوصلون بها والتي كانت خاطئة في الغالب وأيضا ملزمين باتباع المصالح المفروضة عليهم، فإن هؤلاء الشجعان، كانوا مع ذلك، يفلحون كل هذه المثبطات، وقد أدى بعضهم حياته نضالهم المجازفة المتطورة.

إن السفر إلى بلد نجهل لغته معناه السفر مثل الأسم - الأبكم. فما هي المعلومات والمعارف التي يمكن أن يجنيها مكتشف بجوب البلاد دون التمكن من التفاعل مع السكان؟ إنه إن

⁹ - كل مجرأ على أن يقدم نفسه كعزكي التبرير وطبقته. وكان قد تلقى تدريباً لغوياً إلى حد ما، للتخاطب بالمشقة إلى أرض العرب.

يستطيع أبداً أن يحصر ما وراء ولا ضبط القليل مما يقل له. فبلى جانب بعض الفئات التي
مستترة. منكر هذه معاهد غامضة وأحكام مشوهة، ولدينا عينات منها في الوثائق العلية.

فيما، في المغرب قد تغذى إلى حد الأثر الفترات القسولية للأوروبيين. وذلك للأسباب
التي عرفها من قبل. وعند طفولتي، في فصول معرفة الجار الذي يشاركها مثلات الكلام منرات
من الحدود، كان يورقني بشكل لا يتصور. وأثر مسطر رأسي يتسلسل، على بعد خطوات من
الحدود المغربية، فإني تربيت وترعرعت تحت تأثير فكرتي لم أكونه عن استعمارها إلى
يومنا هذا وهذا: معرفة جارنا الغريب وإبراجه داخل مجال تأثير الفرنسي.

وقطاعاً من هذا الهدف الفرنسي، شرعت منذ سنوات في دراسة العربية والأمازيغية.
وتشكل الأعمال التي نشرتها حول هاتين اللغتين مراحل لتعلم مكتمل تدريجياً. وأبني أرحب
في ضبط الأمور محترماً بأنه لا يوجد مكتشف أوروبي يمتلك، قبل دخوله إلى المغرب، مثابة
البحث الجاد والطويل القصر. فقد تبعت بنون كثرة، المهمة التي فرضتها على المعرفة الحقيقية
بالأمر وأنها الإمبراطورية الشريفة والتي سطرصها لاحقاً. على كل من يريد كشف الغز
المحيط بهذا البلد الغريب.

ولم أتردد لحظة في ربط علاقة صداقة مع العديد من المغاربة، عرباً و أمازيغ، متعلمين
وجاهلين. والذين لم يخطوا علي بما يعرفون عن بلادهم وما يفكرون فيه، معتقدين بأنني مسلم.
ومن أظني إلى أصل درجات السلم الاجتماعي المغربي، اكتسبت لستاء حقير، طلبوا علي في
كثير من الأحيان لتتخلي عن خدمة القنصلية والهجرة إلى جنة الإسلام هناك، حيث العربية
والحياة السهلة. فالتأثير الذي تمارسه المعرفة المعقدة إلى حد ما بالأدب وبثقافة العربية على
المسلمين، يكون له بعداً وقع شعري لا يقلوم. والمسلم الأكثر مكرراً (وكل المسلمين هم كذلك)
سيروج بكل شيء، مثل الطفل. للطلاب الأوروبي الذي يستحق هذا الاسم حقاً والذي يدرى كيف
يطرح عليه الأسئلة. ومع ذلك، فلما لم أبح بسري لأي أحد. فقد احتفظت به لنفسى حتى اليوم
الذي حصلت فيه على مهمتي، واعتبرت نفسي مستحداً بما فيه الكفاية لقبول بهذا السر. أنذاك
فتبعت إلى الخطأ الجسيم الذي ارتكبته، بعدم التماس حماية شخصية بالغة. وطلب مني عالم من
الموسى، وهو الشخص الوحيد الذي أعرفه جيداً وأبوح له بأسرائري، بالتخلي عن مهمتي، مبيحاً لي
كيف أن العديد من المحبين أنفسهم لا يحصلون على شيء، لأن هناك من حظي بقرينة جليله.
وبالمختصر فقد أجهضت إرادتي في القيام بطلب رسمي بمهمة أو برعاية ما. هكذا، فإني كمشغل
مضبور، يوجد بعيداً عن مدينة الأنوار (باريس) بمثلات الكيلومترات وغير مستعد بطبعي
للتخاطر في الممارسات المنفرة التي تقتضيها مهمة المذبح، لم أجراً على الإطراء برمرة لولئك

الذين يترهبون بخضوع، في قاعات الانتظار، إشارات من متنفذي هذا الزمن. فهل يتوجب عليّ لتخلي مع ذلك عن حلم حياتي؟ وهل سيضيع مجهود السنوات الفارطة إلى الأبد، ما دام قد أصبح بفضل ظروف غير متوقعة، بدون هدف ولا موضوع؟

إن نساء الغالين Gaulois اللداسي التي تجري في عروقي لا تتوافق أبدا مع المنصب الجبري للعز على الكسالى. مستحيل عليّ الذهاب إلى المغرب؟ فليكن. غير أن هناك مسلمين قاموا بزيارته. ففي كل يوم، هناك حركة ذهاب وإياب إلى وعن المغرب. وهنا برز أمني الحل شبه التام للمشكل المطروح باستمرار والذي ألخصه كما يلي: إن معرفة المغرب وجعله معروفا من طرف الآخرين، بشكل مماثل وربما أفضل مما لو قدمت بزيارته بنفسه، قد يتم بفضل تصريحات المفاربة والرحالة المسلمين الآخرين. وعلى الفور، شرعت في العمل وحيدا، دون معونة أي أحد ودون أي دعم كعصا كان نوعه، مستغلا كل وقتي بما في ذلك عطفتي وكل أوقات الفراغ التي تسمح بها خدمتي المردوجة والمضنية التي طالبت الإعفاء منها، بدون جدوى. هكذا، سينجز هذا العمل على مدى عدة سنوات، وهو العمل الذي فرصته على نفسي، من أجل بلادي ومن أجل العلم، والذي يشبه مجهود ثور الفلاح.

والآن، ولما أعلن المسار الذي قطعته والعمل الضخم الذي أصبح مجسدا على أوروقي، منتظرا الترتيبات النهائية، فإني أتناول عن الاستقبال الذي سيفحصه المعاصرون لي (ولما قصد هنا المتشككين والمتهكمين)، لعمل سيكشف عن الحياة الحميمة وعن عادات وأفكار شعب عظيم. وسيبرر لهم بولط أرض مجهولة لديهم.

طبعاً، فلما لم أكتب من أجل هؤلاء، بل من أجل ذوي النفوس الأبية، الذين لا زلوا يؤمنون بالوطن والأخوة الممكنة بين البشر والتسامح والطيبوبة بشكل عام، وأخيراً من أجل خالق المغرب وخالق كل البلدان والكواكب.

وفي اللحظات العرجة من عملي، وخلال لحظات اليأس والقنوط من الأنتية لفترة والمتصمة التي تميز عصرنا، هناك شخص واحد دعمني عبر إيمانه القوي بفائدة أعمالي، وهو صدائقي الثابتة وحسه السليم والتميز، إنها للمرأة التي تحمل اسمي، أم أطفالي المحبوبين والتي لحبي هنا وجودها قليل المكرس كلية لزوجها ولتعليم وتربية أبنائها ولبيتها. وإن أكف عن شكر من يحلم بمراترنا، وهو الذي جعلني ألقى في هذا العالم الفنيوي بالرغبة التي حلمت بها منذ الصغر، ربة البيت الحقيقية كما لهما وكما يجب أن تكون في كل ربوع فرنسا العزيزة علينا وكما ستبقى بالتأكيد، حينما تزول أهواء الأشياء السطحية.

كنتي سأمر بسرعة على التفاصيل المتعلقة ببداية مهنتي وتحقيقاتي الدقيقة مع أستاذتي
الصدراة، ولما دلتنا الطويلة وقطع النقطة البيضاء المتتالية لمكافئهم، ووقتهم الذي خصصوه لي
والمعلومات التي انجموا وقتي تواجد بين نظري هذا الكتاب، دون إشارة إلى اسم الرحلة، لأنني
إن لمون ثقة هؤلاء الناس البواسل الذين توسلوا إلي بعدم ذكر أسمائهم.

وكيفما كان الحال، فلن تصريحتهم تعتبر محدودة، بالمقارنة مع العلاقة التي ربطتني
برجل تعرفت عليه بفضل العملية الإلهية، رجل سمح لي بعد تردد يفهمه من يعرف النظام
المتعصبين، بكتابة اسمه بالأحرف البارزة، وهو ما أقوم به الآن، لأن محمد بن الطيب كان
منقدي، لم يدونه لم يكن باستطاعتي نشر ولو جزء واحد من المائة من هذه الوثائق، ولربما لم يكن
بإمكاني كتابة أي شيء عن المغرب؛ بل إن المعلومات المقدمة من طرف الرحالة المسلمين
الأخرين، ستكون ضئيلة وناقصة وعديمة الأهمية، تستحق الإحراق بدل النشر.

إن محمد بن الطيب هو نموذج الرحالة الفادر. ولم تكن أوقع العثور على هذا الرجل
المناسب من قبل، إلى أن أخبرت عنه ببعض النسخة في الأيام الأخيرة من سنة 1893. في
إحدى الأمسيات قال لي أحد الصغريين وهو جزائري مسلم أقام بالمغرب خمس سنوات وروى لي
كل ما يعرفه عن هذا البلاد، وكنت قد كتبت بمهمة اكتشاف الرجل الفادر الذي أبحث عنه: "لقد
وصل إلى وهران طاقب رث الثياب، على هيئة درويش مختل الحال شيئا ما ويدهي معرفة
صيفة بالمغرب". ولم يكن هذا الصغري يدري بأنه قد وضع يده على مكتشف رائع، سمح لنا
أخيرا بكشف اللثام الذي يغطي لقرون عدة، هذه الإمبراطورية المنيمة. وكان من اللازم استكمال
الحيلة لاستخراج هذا الطاقب الشديد الحذر، إلى مقر إقامتي، وبعد اقتناعه بأنني أديب مسلم، تلقاه
وسط النصاري، وهو ما أكتنه له طبعاً، عزم على زيارتي مساء أحد الأيام، بعد انتهائي من إلقاء
درسي، في إطار كرسي العربية الذي أشغله. وقد حماء ظلام الليل من أنظار أبناء ملته
المتعصبين الذين كان يغشى شرهم. وكان الرجل الذي تعرفت عليه في مساء من أمسيات شهر
يناير 1894، بلبس جلباب طويل من الصوف الأبيض بأكمام قصيرة وكان مغلي الرأس، ذا
لحية شقراء لامعة ووجه نحيل بعض الشيء بفعل المشي والحرمان، إلا أنه كان يشبه بشكل
مثير، صور المسيح المأخوذة لنيذا، بعينين زرقاوين لا يرفعهما إلا لماماً، وكألهما مثبتان على أفه
ولحيته، وبمشية مثقلة وعترنة وكان نحيفاً خيراً متين.

وبالفعل، لقد كان يبدو كدرويش مختل عقلياً إلى حد ما، لكنه مسلم. وسرني كيف أنه
تظاهر بهذا الشكل كي يثير شفقة من يراه، ويبرر دون إثارة انتباه أحد، أينما حل وارتحل، وهو
تعبير احتياطي معتز خصوصاً بالمغرب. وعند أولى الكلمات التي تفلطت بها، انتبه إلى جودا

ورفع عليه بلجائي. مطهرا لبلجائه. سماع حديثي عن الدين الإسلامي وقرسول وكبير
الشخصيات في الإسلام. وظل يسمعي وهو واقف سبينا عن دهشته، من فترة لأخرى، ورقعا
يديه نحو السماء منتعما: " الله أكبر الذي هدى رجلا مثل هذا إلى الطريق المستقيم (أي
الإسلام)".

وهكذا تولدت الألفة بيننا. لكن دهشة هذا الرجل ستعظم حينما سأقول له فجأة وبلاذ
زولوبة Zousou - لأتلي كنت أعلم من طريق المسلم الجزائري المذكور بأنه يفخر
بالأمازيغية: " Al asedh a rekkan ay ameddakoul ? (هل ستأتي غدا يا صديقي؟)
وسصبح بالعربية: " لا. إنه لست نصرانيا.. كنت مسلم، عربي أو أمازيغي، لكنك لست روميا
ولما تشهد بقذي لا إله إلا هو ". وسيضيف بقبالية لمة: " azekkan ad asagh " (سأتي
غدا). وسيكرر هذا القول وهو يضحك، مفتحا رأسه بالقلموة التي كان نصلها قد سقط على
كتفه، حينما رفع رأسه فجأة عند سماعه لحديثي بالأمازيغية مباشرة بعد حديثي بالعربية.

وفي الغد، جاء الدرويش في الموعد تماما. عندئذ بدأت سلسلة من الأسئلة والأجوبة
وتحقيق طويل ونقي، سينتج عنه هذا الكتاب. ومن خلال للجلسات الطويلة، التي كانت في العادة
تدوم ثمان ساعات في اليوم، تعرفت تدريجيا على هذا المسلم الجوال الذي اكتسب عادة السفر
وحيدا. فعرفني من القائمه سافر بجمعية طلبة آخرين، لزيارة مختلف الزوايا بتونس وبالقلم
تسطنطينية. وبرجوعه إلى بجاية مسقط رأسه، تابع دراسته الشرعية، دون أن يظن لأي أحد من
مشاريعه المستقبلية. وملا تلك المرحلة، بدأ يفكر في رحلة كبيرة إلى المغرب، بغرض تحقيق
ثلاث رغبات شخصية وهي: رؤية البلد والابتعاد عن التصراحي المفقوت وحضور دروس علماء
فلس الذين كانت شهرتهم، السابغ فيها إلى حد ما، قائمة بعد الهيمنة السياسية والأدبية التي كانت
لمغرب في ما مضى.

وفي صبيحة أحد الأيام من سنة 1872، سافرت بجاية ومزلزل الأسرة دون الإعلان عن
ذلك، بل ودون توديع والديه الذين سيفقد أثرهما بعد ذلك. وقد كان عمره آنذاك ستة عشر أو
سبعة عشر سنة تقريبا. هكذا، سيدير ظهره للشرق وسياخذ وجهة المغرب مشيا على الأقدام،
خالي الوفاض إلا من لوحة الدراسة، متقيا من المحسنين، أينما حل، طعاما محدودا لكنه كاف،
وسيتوقف بضممة أيام بمدينة الجزائر للتعرف عليها وللاستراحة بها في نفس الوقت. لكن
الغصاري واليهود كانوا أكثر عددا في هذه المدينة منهم في بجاية، وسيتابع طريقه بمحاذاة البحر
حتى لا يضل طريقه.

وبوهران وقع له حادث مروع سيظهر بشكل تام من الجزائر التي كان فيها اليهود، حسب اعتقادهم، هم الأسود. فأتى هؤلاء السامريين Sémites المعروفين بثلاثة أو أربعة أشخاص من أبناء ملته، والذين كانوا جميعهم يرتدون الزي الأوروبي، سيترصد طريق الطالب المتجول الذي كان منهمكا في مراقبة الحي الإسرائيلي. وسيقول اليهودي الوقح للدرويش: " أنا صيد الشرطة، ناولني لورق تعريفك وإلا لنخطفك السجن ". وعلى الرغم من أن هذا الكلام قبل برطانية تملزج فيها اليهودية بالفرنسية بالعربية و بالإسبانية والتي لا يعرف سرها إلا الإسرائيليون الأفارقة، فإن محمد الذي لم يكن يتوفر على رخصة السفر القنولية، توجس لوجه المواقب وظن بأنه سيسجن لا محالة، معتقدا بأن ذلك المحتال عبيد شرطة بالفعل. وكان في اليوم السابق قد جمع شيئا من المال، بفضل بعض المصنفين المسلمين، من أجل الإبحار إلى طنجة ولشراء بعض الزاد أثناء عبور البحر. ولتسوية لمشكل سيقتراح دفع اثنين يورو Duros، غير أن هذا الاقتراح سيرفض باعتقار.

وفي الأخير، سيطت من قبضة صيد الشرطة العربي، بالتخطي عن كل ما يملك من نفود أي ثلاث قطع من حقة قس. وعندما طلب منه جواز السفر، معتقدا بأن ذلك من حقه، تلقى لقطع الشكك من طرف ذلك اليهودي الصغير، الذي دفعه وصلحه ولتعزيز الفرصة ليصحب وأهلا من الشكك على الرسول وعلى العرب بشكل عام.

وفي قرية الأهالي التي وصلها محمد في أسوأ حال، أخبره السكان بأنه كان ضحية نصب من طرف اليهود، وأن الانصاري لا دخل لهم في القضية. ولم يكن بإمكانه الانتقال طيبعا، فأتى كانت السفينة المتوجهة إلى طنجة تطلق صغرها، وكان السامريون الممتقون للشركة المالكة للسفينة، يصرخون بأعلى صوتهم: " البهور بلقي وسط " (السفينة ستقطع)، ويدفعون مجموعة من الريفيين الذين كان من المقرر أن يبحروا في نفس اليوم، باتجاه الساحل المغربي. وقد قدس محمد وسط الحشد ووجد نفسه وسط أمازيغيين، هم يهولون له في آخر المطاف، لأنه يلهم تقريبا ليهتهم الخشنة. واستطاع أن يجلب صطف بعض النفوس المصنعة، من بين هؤلاء الجلبين الأتداء، الذين كانوا في طريق العودة إلى الريف، بعد رحلة شاقة إلى إقليم وهران، حيث حصنوا محاصيل مصرينا مقابل ثمن زهيد. هكذا، سيحرم معهم، وستفخر السفينة التي كانت معلومة عن آخرها بهؤلاء الريفيين الذين كانوا يرددون أمازيج بلدهم، ميناء وهران متجهة نحو الغرب. وعند مصب واد كيس Kis، ادعى قبطان السفينة حصوله على موافقة سيادي إلى التوقف لمدة أيام، وقد جزع المطالبة من فكرة بقائهم بدون طعام ولا شراب على ظهر السفينة التي لم تكن تتوفر على المؤونة الكافية. إذا، سيطلبون من القبطان إنزالهم على الساحل

الجواز، شريطة أن يحملهم تقنية حالما يصلح الطيب. وسيقبل القبطان هذا المقترح طر
لقور، لأنه كان يخوف من قدلاع ثمرود على ظهر سفينته. ولربما كان قد أعطى أولمر سيرة
البحارة المكلفين باستعمال الزوارق، ليكونوا مستعدين لأي طارئ. وكيفضا كان الحال، فإن 'الشبه
الفرقي' هؤلاء سينزلون بالأرض المغربية، وهو الأمر الذي سيتكثرون منه عند رؤيتهم لجمال
من الأهالي المسلحين الذين سيأمرتهم بالعودة من حيث أتوا. ولثناء رجوعهم، تحركت السفينة
لتي أصلح صليها، ولأن مقدمها Proue كان موجها نحو الشرق، فقد أثارت أمواجها من الريد
الأبيض وفوران المياه. وانبعثت صيحات الاستكثار والفضيب من الشاطئ أمام هذا الهروب
المتسدد، إذ فضلا عن ثمر السفر الذي تم خصرافه، وجب القوجه إلى الريف مشيا على الأقدام،
وسط قهائل إن لم تكن معادية، فهي على الأكل مستعدة لابتزاز الغرباء العاملين للمال. وقد حصل
تفاق جماعي على القوجه إلى وجدة مشيا بمحاذاة الحدود الفرنسية. وكانت المجموعة مكونة من
ألف رجل، لذلك لم تشر بأي انزعاج وبلغت وجدة دون مشاكل.

هكذا، ستبدأ بالنسبة لمحمد بن الطيب، حياة الطالب المشرود لقلته، عبر المساحة الشاسعة
للمغرب والتي سيقطعها من كل الجهات، مدة اثنتي وعشرين سنة، حيث كان ينام ويأكل
بالمساهد، مع الطلبة الآخرين الذين كان إحسان السكان الدائم، يخدمهم ويكسبهم لمصروفات عديدة،
دون فتسأل عن هوية فوفد الجديد ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب. لقد كان القرويش إنز،
من أكثر الرحالة المؤهلين لاكتشاف هذا البلد. فهو من أصل قبائلي، والأمازيغية هي لغته الأم،
بحيث ستكون له منفا بشكل كبير، في هذا البلد الذي لم تكن فيه اللغة العربية هي المهيمنة.
وبفضل معرفته الجيدة باللهجة القبايلية لبحابة، فإنه سيتمقبل كأخ في الريف، هذا البلد المتوحش
شبه المجهول والذي سيتمكن من اكتشافه خطوة خطوة، باطمئنان وإصطفا الوصف لوحيد
المتوفر حاليا. وبفضل العربية والأمازيغية، سيتطفل في أعماق منطقة البرابر Braher، هناك
حيث لم يسبق لأي أحد أن وضع أرجله. وسيكون مظهره كقرويش بنيس. الفصل ترخيص له،
ولم يكن له شيء آخر غير ذلك.

لقد كان يجوب البلاد، مدفوعا بقوة القاهرة لا يدركها هو نفسه، حيث لم يكن يستقر بمكان
محدد، لأنه كان يرغب في رؤية مناطق جديدة وأناس جدد وعلات جديدة، ولم يكن يدور أية
ملاحظة، بل كان يسجل ذلك في أروع مذكرة جغرافية يمكن أن يجدها المرء. وسيبدأ هذا
الاكتشاف دون توقف أو راحة سنة 1872، لينتهي سنة 1893. وكما أشرت من قبل، فقد التقيا
بعض الصنفه لتي أرجعنا معا إلى الحنية الإلهية. ولسوء الحظ، فإن هذا القرويش لم يف
برحلات لكي يروبوها، فبالأحرى ليدونها، ورغم إلحاحي الشديد، لم أتمكن من القطلب على الرعب

الذي يملكه من الكتابة، وكان يستعمل على نفسه إلى تكوين ولو حرف واحد بيده. مرة واحدة، رأته يخرش بسرعة على ورقة بيضاء بقلية. وبذل الحبر والمدونات، كان يستعمل بصفة نبيلة، بنفس فيها ريشته القصية، يرسم على الورق بعض الحروف اللامرنية. وكل الأمر يتعلق بتومة ضد صداع الرأس، يضعها على شعر رأسه الخفيف، الذي كان شكله القوضوي ورائحته يشيران إلى أن المشط والمطور لم يمرا منه أبدا. وهذا الاحتقار للانفلاق الذي دفع به للدويش إلى أقصى الحدود، كان أن يكون وبالا على حقيقته في الزيف، حيث أدرك الأهالي بأنه يؤدي صلواته المتقطعة دون اللجوء إلى قواعد الموضوع المحددة شرعا. وجب على إثر، أن استسلم لهذا العمل المزدوج والشاق، المتعب حقيقة إذا ما أدركنا بأن الأمر يتعلق بموضوع شاسع وجديد كل الجدة.

فالمطلوب هو الكتابة والاستفهام: الكتابة باستمرار والاستفهام بلا هوادة. ولم يكن الدويش يشك في القيمة التي ستكتسبها اكتشافاته، وهو الذي لا يعرف كلمة فرنسية واحدة ولم يسبق له أن قرأ رحلة مروية، كما أن معارفه الأدبية لم تخرج عن الإطار القرآني؛ لذلك سيدفعه حبه السليم إلى الخضوع للتوجيه. فقد يبدو له عنصر جزلي قليل الأهمية، لكنه يعتبر مهما بالنسبة لي. وقد يبدو له حدث آخر مثيرا للاهتمام، لكنه يبدو لنا نحن الأوروبيين سخيفا. غير أن هذا الرجل كان يتوفر على جغرافية المغرب في رأسه؛ وفي ذلك المكان بلذات كنت أبحث عنها، فهناك كنت أقتب لكي أخرج من هذه الذاكرة الرقيقة مئات الأسماء للقرى والقبائل والوديان والجلال التي طعمنا بها العلم؛ هناك تطبعت في الذاكرة، كل من العادات والتصرفات والأعراف والتقاليد والسلالات واللغات والسكر والقرى العسكرية والثروات الفخارية والزراعية والمعدنية. ولقي سائقم عنها لمحة دقيقة ومتنوعة، بحسب ما يسمح به قلبي المتواضع .

أؤكد أنه لم يكن باستطاعتي رؤية المغرب في جميع تفاصيله، بنفس رؤية رحالنا. وأعترف بدون مولوية، بأن طبيعتي لم تكن تسمح لي بتحمل دور القديس الجوال الذي لعبه هذا الدويش مدة اثنتي وعشرين سنة، دون كلل. فميزته الثلاثية، كمتسول وكطالب وكدويش، سمحت له برؤية كل طبقات المجتمع تقريبا؛ إذ أن القوم في العراء وفي القصور أو داخل كوخ مليء بالزجاج لم يكن يهمهم بتاتا. كما أن مواجهة كل أشكال البؤس والأمراض والقتلح الجسدية والمطوية، لم تكن تؤثر فيه ولم تكن تثير استمزازهم. ومواء كان الطعام الذي يتناولوه جيدا أو رديئا، فأخرا أو هرب كاف، أو غير موجود، مما قد يؤدي به إلى الصيام لفترة طويلة، فلي ذلك لم يكن يثني عزم هذا الشخص الذي خلق كي يتجول في بلد إسلامي. وكطالب، فقد كان بإمكانه الانسجام داخل كل المجتمعات دون إثارة الشبهات؛ وكان يترك المتسولين لينذهب إلى قصر،

وبغادر هذا الأخير ليعود ثانية إلى عالم الدرويش. وكغريب ورحالة، فقد كان بإمكانه التقرب من كبار البلد، الراغبين دوماً في سماع أخبار الرحلات واكتساب معلومات دقيقة إلى حد ما، حول بلد يصعب التعرف عليه. وكدرويش، فبقته كان ينسل في كل مكان، في المساجد ودخل منازل المسلمين بل وحتى داخل البيوت، لأن ابن الطيب كان يضع نفسه فوق الأحكام المسبقة والتعصب الضيق لأبناء ملته. ولأنه كان مدفوعاً بفضول طبيعي، لم يعد للمغرب يمتلكونه في أيامنا هذه، لكن لا زال الأمازيغيون يتفرون عليه بدرجة كبيرة، فقد كان يدرس الناس والأشياء، ليس بدافع غرور لحيي. بل فقط من أجل تلبية رغبته الملحة في السبر، لأنه لم يكن يشك في أنه سيأتي يوم، سيروي فيه كل ما رآه لنصراني يعرف كيف يحل عقدة لسانه.

وهذا نصل إلى نقطة حرجية. فهل نصب على هذا الدرويش؟ إليكم جوابي: لقد كنت كل مرة لأرغب لأقول هذا الرجل كلما تيسر لي ذلك. وكان منات الصغارية يؤكدون لي ما قدمه من معلومات، كاشفاً مطلقين. كما أنهم قدموا لي معلومات إضافية، علمت ليها بعد، على إراجيحها ضمن الحصة الواحدة التي أنجزها رحلتنا عن المغرب. ولم يسبق لي أن ضبطت هذا الرجل متلبساً بجريمة الكذب. وقد كنت في بعض الأحيان أتسلى بمسائله فجأة حول بعض القرى النائية بالبرابر Hrabar، بالريف وبجبل الخ.. وكان يجيبني مباشرة، ذاكرًا لي القبيلة وأسمائها والمكان بالضبط الذي توجد فيه والذي سبق لي أن حددته بصعوبة، على الخرائط. ولم يكن هذا الدرويش الضعيف البصر مستعداً لمساعدتي بهذا الخصوص، فقد كان يرفض بناتاً رسم خط أو كلمة، لأنه لم يسبق له أن رأى خريطة في حياته. وكنت مضطراً، لكي أصبغ خريطة، بأن أطره بالأسئلة حول الجهات الأربع ومجاري الوديان والجبال والمسافات والتمن والقرى الصغيرة، وباعتصار كان علي أن أعود من جديد وبمشقة، العمل المتعلق بكل قبيلة على حدة. ولأنني متقل بخدمتي المربوطة كأستاذ كرسي بالجامعة والثلثوي. وكمهمته بهذا المشروع، فقد شعرت لحظة بأن قواي ستفونني وبأنني لن أتمكن أبداً من إتمام مهمتي. وفي لحظات الضعف هذه، قمت بالعمل بحماس أكبر. وقد أحسنت فعلاً، لأنني لاحظت بأن الدرويش نفسه بدأ يشعر بالوهن. فعمد تحركه لمدة سنة، رغم الامتيازات العالية التي حققها، أثر كثيراً على عرقته كرجال متعبون على الفضائل الشائعة. أصف إلى ذلك، أن معرفته بالأجزاء الجنوبية للمغرب، كانت تشوبها ثغرات، مما استدعى القيام ببحث إضافي وبسر جديد. وبتاريخ 30 يناير 1895 وضعت قلم أخيراً. فقد زودني هذا الرجل بكل ما يعرف ولم يبق لديه ما يضيفه. وقد منحه جواز سفر وساعده على العودة إلى المغرب على نفقتي، مع تعليمات خاصة أعطيتها له وأنا وثق من أنه سينجزها إذا ما تمكن من الخروج سالماً من الجحيم المغربي. ومنذ تلك الفترة، لم

لقد أخبره سوى مرة واحدة. فهل سأراه مرة أخرى؟ اعتقد ذلك، واتمنى من الذي حفظه على مدى اثنين وعشرين سنة، ألا يتخلى عنه في هذه الرحلة الأخيرة.

وبينما يراكم الدرويش الذي عاد إلى حياة التجوال، الكلوامترات ويتمشى في الفضاء الواسع ويجد نفسه من جديد في بلد كل الحريات، أنزل من جهتي منطلقا في حجرة الرهبان التي اخترتها لنفسى، في مواجهة الوثائق الكثيرة التي أتوفر عليها، ساعيا إلى كتابة المجلد الأول من سلسلة من الكتب التي يعلم الله متى ستوقف. فلما تقدم ببطء لدخل هذه الإمبراطورية الصعبة المنال، وكما تحدثت، كلما أدركت حقيقة كلمات لفستون العظيمة: « اعتقد بأن من الأفضل لي أن أقطع القارة الإفريقية من جديد، بدل نشر مجلد ثانٍ؛ إذ أنه من الأسهل للعلم برحلة بدل كتابة تفاصيلها».

وتوجد كل ملاحظاتي بالعربية، وبعضها موجود بالأمريكية. ويتعين على تنظيمها وتنقيحها وحذف التلويل والتكرارات وتصحيح الأخطاء. وأخيرا للكتابة بالعربية، أي القيام بتكوين جديد بلغة لما سبق أن خططته في لغتين محليتين مختلفتين بجهلها للأسف أغلب الأوروبيين. وقد كان من الممكن، لو أن إمكانياتي سمحت بذلك، أن يقدم نشر مخطوطي بالعربية، خدمات كبيرة ولغوية لأولئك الذين يرغبون في اكتشاف بلد إسلامي مثل المغرب. كما أن العربية الدارجة المتحدث عنها في هذه الربوع، كانت موضوع بحثي المستمر. وأظن بأنني أوردت في الجزء غير المنشور من عملي، كل عبارات المغربية المستعملة تقريبا، والتي تعتبر معرفتها ضرورية بالنسبة لكل من يريد السفر إلى هذا البلد دون إثارة الانتباه. ومع ذلك، فلما لن أتخلى عن الأمل في إصدار بعض المقاطع من هذا المخطوط، في مرحلة لاحقة ربما؛ وبالتالى عدم إحراق الجزء الذي يبدو لي أكثر إفادة بالنسبة لجنودنا وتجارنا ورحالتنا.

ولما أصبح النسخ المطبوعة من هذه الصفحات، وصلتني ثلاث رسائل من الدرويش تبعاء. وهي رسائل مكتوبة بالعربية. وقد توصلت بالأولى، بفصل مسلم وهرانى تسلمها من ريفيا وكانت الرسالة الثانية تحمل طابع بريد طنجة، أما الثالثة فقد أرسلت من بريد المراكش. وكل واحدة منها، مكتوبة بخط مختلف، وهو ما يؤكد بأن رحلاتنا لا زالت مصرا على عدم حمل القلم، مفضلا إملاء رسائله. وقد لاحظت ذلك من خلال الترددات والتلميحات التي لا يمكن لأحد إدراكها سواها. ولربما اعتقد الطلبة الذين كتبوا هذه الرسائل، بأن هذا الرجل الذي يمنى عليهم خطابا تهيبيا غير مفهوم، هو إنسان مختلف عقليا.

ولا زالت ألقى بعض الأفكار المتفرقة من محمد بن الطيب السريع الخطوات في مازن المنصرم كقبلي بالأمازيغية من كورارة، مشيرا إلى وجود وحدة استطلاع مكونة من صباط

فرنسيين، في قلب الصحراء. والآن، ها هو موجود بالمعركة، حيث يستعد للزحف إلى منطقة
سوس التي ينوي عبورها من الغرب إلى الشرق. وكلفت أولى الرسائل الثلاث والمؤرخة بـ (الريف)
(الريف) قد وصلت متأخرة، إذ أن الريفي الذي حملها، كان قد أجل سفره إلى وهران ببضعة
أيام.

فلذلك أيتها الرحلة الجريء الذي يحتبره الجميع مجاناً، أقول أحسنت! أنت الذي خدمت
فرنسا رغم عدم ثقتك في قدراتك بعض الشيء، أقول أحسنت! ثلاث مرات أقولها! فلتتبع
مشوارك داخل هذه الإمبراطورية الفاسدة، أنت أيتها المحتاج العظيم.
أؤكد أن الوطن الكبير سيفكر فيك. وأنا المسلم لذلك، حينما يرغم المس والمعدات،
صداقتك الحديدية على الاستراحة، بعد أن أنهكها العمل لصالح هذا الوطن.. ولصالح قضية
جميلة ونoble.

لوجست موابيرين

المغرب المجهول

- مقدمة
- تأملات عامة حول المغرب
- لقلليم المغرب
- الاسم الحقيقي للمغرب
- الأعراف
- الأمازيغ
- العرب
- الزنوج واليهود
- ثروات وسكان المغرب
- الدور الموكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا.

مقدمة

تأملات عامة حول المغرب

إن وصف المغرب الذي شرع فيه الآن عبر هذا المجلد الأول، قد تم انطلاقاً من الملاحظات المباشرة ودون اللجوء إلى الكتب. ولأنني لم أعتمد على أي مؤلف، فإني إن استشهد بأي واحد، فكل المعلومات التي أضعها تعتبر جديدة تماماً ولم يسبق نشرها. ولقد استقيتها، كما قلت سابقاً، من رحلة مسلمين لم يخفوا على أي شيء، معتقدين بأنني واحد منهم. وستكون أحرص مكافأة بالنسبة لي هي أن تتفتح فرنسا بهذا العمل، إذا ما كان مفيداً لها.

ولأن المغرب يعتبر مجهولاً تقريباً، وذلك للأسباب التي عرضتها في المقدمة، فهل يتعين علينا أن نبقى إلى ما لا نهاية، لسرى هذا الجهل الذي لا يشرف في شيء. قرر الاكتشافات العظيم هذا؟ لا أعتقد. ولذلك، بالرغم من عظمة المهمة وصعوبتها، وبالرغم من الفترات والفتاخر التي ستثوب هذا الكتاب بكل تأكيد، فإني إن أتردد في اقتحام هذا البلد الذي لم يكتشف بعد.

لقد مد لنا الفرويش يده، فلنمد له يداً أيضاً دون خوف، ولنقتحم معه هذه الإمبراطورية المرحبة. فمع هذا المرشد وبرفقة أصدقائنا الآخرين من الرحالة المغاربة، فإنا إن نتيه وإن يتجرأ أحد على القول بأننا غرباء عن البلد. لكن ونحن ندخل هذا الأخير، لنندع الله مثلاً يدعو المسلمين الذين يخطرطن في سفيرة خطيرة ولنقل: " اللهم احفظنا من الأتباع الخبيثة للحاسدين والمفانين في ندهم ".

أقاليم المغرب

ما هو هذا البلد الجديد علينا؟ صحيح أن شواطئه معروفة بما فيه الكفاية؛ لكن داخله يظل قريبا في ظلمة شبه تامة منذ أن وجد العلم. ومع ذلك، توجد به ساكنة نشيطة، أثبتت حيويتها باستيلائها على إسبانيا والاحتفاظ بها عدة قرون. وقد عرفت فترات من المجد في تاريخها، حيث نالست على مستوى القوة والأبهة، إمبراطورية خلفاء الشرق العظيمة. فما هو هذا البلد الذي لا يمكننا معرفته بعمق إلا في حالتين:

- 1 - إذا ما قامت قوة مسيحية بفروء.
- 2 - إذا قرر المكتشفون تعلم العربية بشكل ملائم.¹⁰

يتشكل المغرب الشمالي من ثلاثة أقاليم:

- 1 - الريف: ويمتد على شواطئ المتوسط، من إقليم وهران إلى القبيلة البحرية لغمارة، غير بعيد عن شطاون (نطوان).¹¹
 - 2 - جبال: جنوب الريف وتشغل كل الساحل المتوسطي، انطلاقا من الحدود الغربية لهذا الإقليم، بالإضافة إلى شريط بالساحل الشمالي للمحيط الأطلسي.
 - 3 - دائرة فاس: جنوب جبال، وتمتد من غرب وجدة إلى المحيط الأطلسي.
- ويتضمن وسط المغرب ثلاثة أقاليم:
- 1 - حول مراكش الذي تحده البرابر Braber شرقا والمحيط الأطلسي غربا.
 - 2 - البرابر، وهو إقليم هام يشمل قلب المغرب.
 - 3 - الدهرة، وتشكل الحدود الشرقية للمغرب، حيث تمتد على طول حدودنا الوهرانية من وجدة إلى فجيج.

وهناك أربعة أقاليم تعد المغرب جنوبا:

- 1 - سوس.

¹⁰ - بني مقلع بأن الفرصة الأولى ستتحقق قبل القوة.

¹¹ - يشو - كلينا الأوروبيون باستمرار الكلمات العربية والأمازيغية لذلك فلما لحقت بصولة في كتابي، على التكوين الطبقي والشملي للأسماء المغربية، حتى ولو اقتضى الأمر وضع الاسم المبتور المعروف في أوروبا، بين قوسين، إذ يجب النطق بكل حروف الكلمات العربية والأمازيغية.

2 - درعة

3 - الساقية الحمراء.

4 - القصر الحمراء.

وهذا التقسيم معروف لدى المغاربة المتطمين، لكنه مجهول بأوروبا، وهو يتم صوره جديدة عن هذه الإمبراطورية التي تبدو خرائطنا مقبلة على فوضى وعلى اضطراب، لا مثل لهما في أي بلد آخر.

الاسم الحقيقي للمغرب

كل الكتاب الأوروبيين، يؤكدون بقوة على أن المغربية لم يعطوا أي اسم لبلدهم.. وهذا أيضا خطأ بحسب على جهلهم باللغة العربية. أما الحقيقة فهي كما يلي:

إن المغربية ينعنون بلدهم في مجموعه باللفظة المألوفة: الغرب. ويمنحون لأنفسهم اسم مغاربة ومفرده مغربي. أما تسمية Maroc و Marocain ، فهي مجهولة لديهم تماماً، إذ أن لفظة "ماروك" Maroc ، هي كلمة مشووعة بشكل فظيع، نتعرف من خلالها بالكاد، على التعبير العربي لمراكش، المدينة الرئيسية للإقليم الذي يحمل نفس الاسم.

وفي العربية الفصحى، نجد المغرب الأقصى كمقابل للفظ Maroc ، ويستخدم الأهل المتعلمون وخدم هذه الصيغة أثناء حديثهم، لكنهم ينطقونها: ElMag'rib أو (El Mug'rib (avec un i) ، حتى لا يتم خلطها مع لفظ مشترك وهو El Mag'reb أو El Mug'reb (المغرب، الذي يفيد هروب الشمس). ولم يتمكن العديد من المستشرقين الأوروبيين من وضع هذا التمييز، لأنهم كانوا يجهلون النطق الحقيقي للكلمتين.

وكيفما كل الحال، فعلى اعتبار أن كلمة El Mag'rib أو El Mug'rib (المغرب) لم تكن مستعملة إلا في العربية الفصحى أو من طرف بعض المتحلقين القلائد، فإنه لا مجال لتنبه على حساب اللفظة المألوفة وهي الغرب، التي يشير من خلالها، كل من المغربية والجزائريين المتعلمين والأمينين، العرب والأمازيغ إلى المغرب Maroc . ويجب أن تحل تسمية الغرب التي يبررها استعمال مختلف سكان إفريقيا الشمالية، بما فهمه المغربية أنفسهم، محل اللفظة البهيمية والغريبة "ماروك" Maroc ، المثبتة في خرائطنا وجغرافيتنا.

وتلقبنا لمزيد من التفوق، ودون اعتبار للجمع في اللغة العربية، يتعين أن تكون كلمة مغربي Mr'arbi أو بالأحرى عربي، هي الكلمة المعبرة عن عرق سكان المغرب برمتهم. وأنا لا أشك مع ذلك، في الصعوبات التي ستلاقيها هذه التعديلات الصحفية، إذ من الذي يستطيع مقولة قرونين قروي والمغربي؟

الأعراق

لقد كانت الأراضي الممتدة من الصحراء إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن المحيط الأطلسي إلى الحدود التونسية، منذ العصور القديمة الأولى، مهد شعوب يحاول التاريخ دون جدوى لفكها إلى أصولها. ولأنه يتشكل من حضاب جبلية ومن سهول شاسعة ويمتلك أعلى قمم الأطلس ويحيط به بحران عظيمان وتسفيه أكبر مجاري الأنهار بإفريقيا الشمالية، باستثناء النيل، ففي المغرب أنتج أو جذب إليه مبكرا، أعراقا نشطة وحاربة بشكل كبير.

الآمازيغ

يوجد حاليا بالمغرب شعبان رئيسيان وهما: الآمازيغ والمغرب. ومن المحتمل أن يكون للشعب الأول هو ساكن البلاد الأصلي، في حين أتى الشعب الثاني كغزاة. ولا يعرف أصل الآمازيغ، ولربما ظل الأمر كذلك إلى الأبد. وقد شغلوا منذ زمن سحيق، كل تلك الجزء من إفريقيا الشمالية الممتد من الصحاري القليبية إلى المحيط الأطلسي ومن المتوسط إلى السودان.

إن المزيغ المغاربة الذين رايهم (الريف ، سوس ، مراكش. درعة)، هم على العموم كسر قائمة من العرب. فطولهم قريب إلى حد ما، من طول الفرنسيين. وتجعلهم خصائصهم الجسدية، شبيهين بأعراق جنوب أوروبا، مع ملائحة صلبة أكثر بروزا مما هو عليه الأمر لدى القرويين الفرنسيين. أما خصائصهم الأخلاقية فلا تتميز كثيرا عن خصائص العرب الذين لغزوا عنهم تمصهم الديني. ولربما كان الآمازيغي لا يكذب بسهولة مثل العربي، (إلا أنه يكذب مع ذلك، في غالب الأحيان. وهو لا يأخذ من التعاليم القرآنية سوى ما يتعلق بصوم رمضان، لكن ذلك لا يمنعه من أن يكون متعصبا مثل أبناء ملته في العالم بأسره.

وكمزق لا يروى، فإن الأمازيغ شكلوا منذ فجر تاريخهم، كابوسا للفزاء الذين لم يروا، إخضاعهم. فكل من قرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والإسبان والأتراك، لم يخطوا بفترة هدوء مع هؤلاء الأعداء المهددين لوجودهم باستمرار. وإذا ما كتبت قصة المقاومة لفرنسا حاليا، قد تمكنت من السيطرة عليهم في الجزائر، فإنه في حالة ضلعها سيحدث التمرد سواء لدى الأمازيغ أو لدى العرب. لذلك، فإن شعار الأمم الأوروبية التي تخضع هؤلاء الأعداء غير المتسامحين مع المسيحية هو: الصرامة القصوى والمثالية القصوى.

ويعتبر التفكير في إنساجهم بمثابة يوتوبيا لا يكترون بها أبدا، فالمسلم يعتقد، بفعل دينه وتاريخه وحضارته الواقعية جدا، بأنه مطالب بنشر الدعوة وسط الشعوب. فله نفس المشاريع التي وضعاها بشائه. وهو يريد هدايتنا وأسلمتنا ودمجنا بالإجماع أو بالقوة. وقد هذه بالدهشة. لكن دون اضطراب، بل لدينا بشائه مشاريع مشابهة. ولهذا فهو يقبل الصراع ويتمادى في الاعتقاد بأن الكتلة الإسلامية لن تمس ولن النصر النهائي حليفه. ومدد أن عرف مخططاتنا أصبح أكثر مقاومة لممارستنا التحويلية.

إن الأمازيغي الجزائري بالخصوص، والذي وضعنا فيه أمالنا، أصبح محروبا أكثر فأكثر، فهو يشارك مضطهديه القدامى الذين كانوا لهميا معنوية، نفس القضية. ومجمل القول، لقد كان مسلما وسقط كذلك. فالاختراق العربي مارس عليه تأثيرا مضدا إلى الحد الذي فقد فيه، أينما تم تعريبه، ليس فقط حب الوطن. بل فكرة هذا الأخير ذاته، وهي فكرة مقدسة شكلت أساس لونه وكلفت شعرا له على مدى أربعة وعشرين قرنا من الصراعات الضارية ضد الشعوب الفارسية. وكل ما في الأمر، أن حب مسقط الرأس قد حوّل لديه بالتمسك، وهذا حاجز لا يمكننا الانتكاف حوله ولا اجتيازه.

أما الأمازيغ المغاربة الذين يفرق العرب وسطهم، فقد ظلوا إلى حد الآن، أمازيغ حقا وحقيقة، أي مرتبطين كثيرا بالأرض وبالمنطقة التي ولدوا بها.

إلا أن نزعتهم الوطنية لا تشمل كل المغرب في الواقع، فهي إقليمية بالأساس ولا تعصب أبدا من الحدود التي رسمتها الطبيعة أو الانتصارات، لأناسهم القروية. وسياهم العبري الذي باستطاعته جمع كل هذه القوى الأمازيغية تحت راية واحدة، وهي القوى التي يجهل بعضها بعض ويشل بعضها بعضا، في خلق إمبراطورية قوية على أبواب أوروبا، يكون وزن منها نقولا في ميزان الأمم.

ولا تعرف المصائر السوسية للأمازيغ ولا ميولاتهم الفكرية ولا تطوراتهم الاجتماعية، إلا بشكل يسير، نظرا للمعلومات الضئيلة والقصيدة، وهي مطبوعات مدونة من طرف أعدائهم

بصورة لينة وجهل مغرطين. ولأننا لم نبحث في ماضي هذا الشعب، فنحن لا يهمنا. أما اليوم، فإن الأمازيغ يشكلون عرقاً متميزاً، ذكياً، شجاعاً ويتصفون بسفوية أكثر صلوة من عبقريّة العرب. وعادة ما يتم إرجاع ما لحجز من الأشياء العظيمة والجميلة في كل بلاد الأمازيغ إلى الأجانب الذين جاؤوا كغزاة، لكنّ نفسي بقلّة منذ بداية الاحتلال القرطاجي، فإنّ بلدان العرق الأمازيغي كانت متوفرة على مدن أهلة بالسكان وغنية بشكل كبير، وكان الأجانب يدخلها بسهولة. ومما لا شك فيه أنّ سكان صيدا القديم، قد علموا الأمازيغ الشرقيين الذين علموا بخولهم الغربيين، بعض الصناعات الكمالية مثل: صناعة الزجاج ونسج الأقمشة الباهظة والكتلة الأهدبة.¹²

غير أنّ الأمازيغ كانوا يتوفرون، قبل هذه الغزوة الأولى، على حصارة عظمتهم أندادا للتجار الفينيقيين. ولربما كانت المدن المهدمة التي حددت لي أطلالها الهامة في قلب إقليم البرابر، سابقة على المرحلة القرطاجية والرومانية، ويدعوها سكان المنطقة لطلال نامير Ruines de Nemroa. وهذه لفظة عبرية، تفيد بأنّ الأمازيغ كانوا معاصرين لأقدم الأكل في العلم.

العرب

يشكل الأمازيغ ثلثي سكان المغرب تقريباً. ويتشكل الثلث الباقي في غالبته من العرب، ويأتي بعدهم الفزّوج واليهود. ولربما سمحت إطلاقة سريعة على أسباب عظمة واتساع العرب، بتصور الخاصية التي يصعب تحليلها، والتي تميز هذا الشعب الغريب والمعروف بالكاد. إنّ ديانة المسيح شقت طريقها ببطء، فقد كانت قبل كل شيء كياناً أخلاقياً أمر بعدم إشهار السيف. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الدعوة الإسلامية التي جعلت كنوز الأرض ونعيم الآخرة، تتلأأ أمام أعين أتباع محمد (ص)، قد دفعت بالعرب إلى غزو العلم كشلال ماض. وقد نزل غزو هذا العرق الذي جاء متأخراً، كالصاعقة. ففي أقل من قرن، كانت المساحة الشاسعة الممتدة من نهر الغانج Gange إلى جبال البرانس Pyrénées، تخضع لحكم الخلفاء. وكان الشاطئ الشمالي لإفريقيا من أولى المناطق التي لحظها هذا الشعب الجريء الذي تختلف عبقريته عن عبقريّة الروماني. ففي حين كان الروماني يرجع كل شيء إلى الدولة ويتقبل المركزية المفرطة، فإنّ العربي الذي كان قد انتقل فجأة من الحياة الرعوية المتواضعة إلى واقع السلطة السياسية،

12 - لقد كان التكوين المزوج لغة ثوغا Thugga، يتم باليونانية وبالأمازيغية.

حافظ رغم كل شيء على العادات المستقلة لحقبة الجلالة كراخ رجال ونهاب. لقد كثر ملكا في صمرقند ويريد أن يبقى كذلك وسط أعدائه المهزومين، حيث يفرض على الجميع طاعة الرؤساء والتخلف مع رفاق الملاح. وبعد انتهاء الفتح، يعود العربي كما كان قبل الحرب الفارسية، أي نحو كل سلطة وكل من يقف أمام عراقه، كقنصل أت من فصائل ثلثة. وهذا تخلص أريد من نوعه.. ففي حين تجعله طبيعة نصف المتوحشة على حب الحرية دون قيد ولا حد، فإن كبرياءه تلمحه بقول أوليفر شوية، يقوم بمعاربتها حلقا لا يعود منتحيا إليها، حيث يلقى ويهجم ناهيا، هذه الطوائف Coteries المشاكسة التي دمرت تدريجيا تحت اسم المصف sciff الإمبراطورية العربية الشاسعة، وجعلت من الصعب في الجزائر الحالية مثلا، إدارة هؤلاء الرجال غير المنضبطين الذين خلقوا فقط من أجل الحرب والتمسك.

لقد قام الرومان عدد بسط سلطتهم على العالم القديم، بدمج الأمم الفارسية لهم، داخل إمبراطوريتهم الشاسعة، جعلها رومانية. أما العرب الذين كان مهمهم الوحيد هو نشر ديانتهم مع أحد الخلق، فلم يفكروا ولو لحظة واحدة بالاندماج داخل وطن. فهناك شبه جزيرة عربية، وهناك قبائل عربية متناحرة فيما بينها، لأن الأمة العربية لم تتشكل وربما لن تتكون لهذا. فالعرب يحملون شعورا عبقيا إزاء ديانتهم، وليس لهم وعي بقوميتهم. فكيف كان بإمكانهم التفكير، وسط الفساراتهم، في جمع هذه العناصر المتفرقة والمتناحرة المكونة لممتلكاتهم الحريضة، تحت راية واحدة؟

وفي إطار الانقسام العام الذي وجد فيه كل فرق وكل أمة وكل قبيلة، نفسه مستجزا وشبه معزول وسط الفوضى الإسلامية، فإن الشعوب الفارسية، ومنها من اعتنقت الإسلام، ستعاطف على تقديس الوطن وسيمثل كل واحد منها، حسب الظروف العامة أو المحلية، على طرد أو إخضاع هؤلاء الأسباط اللامبالين والمستغنيين، الذين لم يحصلوا على مملكتهم، من أجل دمجهم بالآخر إمبراطورية عرقها الفارسي. إن العربي لم يكن فاعلا ولا مستثمرا بالمعنى المتداول لهذه الكلمات، بل كان ومزاجا داعية،¹³ ومبشرا متحمسا، فهو لا يمتج الشعوب بل يهتدم ويؤسلمهم muslimanise، وهي مهمة عظيمة، تكفي وحدها لتحقيق مجده. فالانشغال الأساسي لهؤلاء الفراد، أو لنقل مهمهم الوحيد، كان هو جعل كل شعوب العالم مسلمين وكان هؤلاء الدعاة الشرسون حاملون السيف بيد والقرآن بيد أخرى، يكسبون نفوسا تطوع الله دونما اهتمام بإنسانية إنهم إلى وطن أرضي غير موجود بالنسبة إليهم. وتترجم أقوال عبدة بن نافع بوضوح هذا الموقف فثبت لدى كل العقلاء المسلمين؛ إذ يحكي له بعد وصول هذا القائد إلى قسطنطين

13 - فضلا كلمة داعية على كلمة كامن كسبيل لفظة فرنسية *propre* . (المترجم)

الأطلسي، متبوعا بالفنفة المحدودة والشجاعة من الجنود الذين عبر معهم شمال إفريقيا كلهم، دفع بفرسه إلى موج البحر مغاطيا ربه، بلغة لولا الأمواج قتي وقتت حاجزا أمله، لاستمر في مسيرته من أجل نشر كلمة الله الطيبة والإعلان عن عظمة إسمه. وقد وقف الجيش كله وراء عقده وانحلى إجلالا للإرادة الإلهية، مرددا عبارة: الله أكبر. وميصر عتبة ذلك اليوم على الشاطئ، وفي اليوم الموالي سيتوغل مع مجموعة من الدعاة المسلمين داخل المناطق الجنوبية للمغرب، ليس من أجل الغزو، ولكن من أجل الهداية إلى الإسلام.

إن الهيمنة الدينية والفكرية للعرب، قد تطورت بشكل باتم عبقريه هؤلاء الرجال الحالمين والمهوسين بالعerie والشغوفين بالعرب المقدسة والذهب، علما بأن الهيمنة السياسية بالمعنى الحقيقي، لم تكن موجودة بالتمية هؤلاء الميشرين المحاربين الذين كانوا يجهلون الاسم الجميل للوطن. وقد وصلت هذه الهيمنة إلى الذروة في عصر هارون الرشيد ولتعت بقوة لا مثيل لها على باقي العالم. وتمثل هذه المرحلة لوج وبدية الانحطاط العرق الذي بهما. وستتحدد ساعة نهضة هذه الهيمنة بدقة بالغة، أي في اللحظة التي سيعيد فيها تقسم سلطة خلفاء المشرق للنتاج عن غياب الشرعية القومية لدى العرب، هذا العرق إلى القوضى، ويصل هذه المجموعة من الرجال إلى ظلمات الجهل من جديد، وهي قتي قصمت بالشجاعة واعتبرت من أكثر الجماعات موهبة وإشعاعا خلال القرون المنصرمة.

الزواج واليهود

سأتحدث بليجاز عن الزواج واليهود المخالفة الذين يشكون لقلية ضئيلة ومحتقرة، علما بأننا سنتعرف عليهم بشكل أكبر عبر صفحات هذا الكتاب، ويحبر مواطننا الفيكونت دو فوكو Vicomte de Foucauld، هو الككتب الأوروبي الوحيد الذي درس اليهودي المغربي عن قرب ولاحظه بشكل جيد. فقد سقط يهودي مغربي، وفيما هذا بعض الاستثنائات، في أننى درجات الخمسة التي انغمس فيها بفعل دناعة طبيعته وفساوة أسياذ البلاد.

أما الزوجي فقد لفتت، حينما أصبح مسلما، من هذا الانحطاط المنوي والجسدي للنتاج عن التمسب والقمع. فهو لا يختلف عن سيده الذي ينالسه أحيانا في الشجاعة والتمسب والكرم، إذ أن المسلمين الذين لا يركون بميديم الكفرة، يبدون لطفا راقما لتجاه إخوانهم في الملة من

المزيد الذين أصبحوا ملوكا لهم، بفعل قوة السلاح أو نتيجة ضيق ذات اليد. وهذا مثل عظيم للطبيعة، لأنه هؤلاء المسلمون القوي المسيحية، على مدى قرون طويلة، لكن بدون جدوى.

ثروات وسكان المغرب

إن المغرب، المجاور لنا، بلد رائع. وليس هناك في إفريقيا الشمالية بلد أجمل ولا أكثر تنوعا ولا أغنى منه. ويظهر احتلال مناخه ولطافته مضرب الأمثال عند العرب. كما أن خصوبته لا مثيل لها، إذ يكفي أن نلقي حفنة من القمح على أرض مخدوشة بالحكاد بالمحراث الخشبي، كي نحصل على حصد رائع. وقد كان من الممكن أن يكون هذا البلد الموجود في منطقة معتدلة والمحاط ببحرين كبيرين والمروى بالمطار أثيرة من جهتهما، مخزنا زراعيها غنيا بالنسبة لكل إفريقيا الشمالية، لأنه لا توجد أرض غنية ومطاه، مثلما هو الشأن في المغرب. وبينما يعني جيرانه بالشرق من الجفاف، فإن المغرب لا يشك في إلا من الحد الكبير من الفيضانات التي تكون ذات فائدة مع ذلك والتي تفسره في فصل الشتاء، مودية إلى نمو الأشجار في مروجها، حيث ترى قطعان الماشية الوفيرة للحد التي يمتلكها الرجل.

ورغم ذلك، فإن احتلال الملوك القدامين من الصحراء للأعمال الزراعية والضرائب المفروضة على الفلاحين والمنع الكلي لتصدير الحبوب، كل ذلك شكل صعبة قاضية للفلاحة المغربية. لذلك ظلت المسكنة القروية على حالها ولم تستفد من محصولاتها. كما أن كمية المنتوجات الفلاحية المعروضة في الأسواق، كانت بالكاد تكفي لحاجيات السكان.

وفي كل الأقاليم والسهول، كما في الفضايف، يتم على الخصوص الاحتكام بتربية الخراف والماعز والأبقار والحياد والبغال. وتعتبر الجمال والخراف موارد ثينة بالنسبة للرجل، ولا يوجد تصدير الحيوانات إلا على حدودها، وهو لا يقتلع من المغرب سوى جزءا يسيرا من ثروته الرعوية؛ كما أن ثمن الأبقار والخراف زهيد جدا في كل الإمبراطورية، باستثناء المدن التي يتولد بها الأوروبيون. فالخروف الجهد يساوي ثلاثة فرنكات في السوق وتثور السمين نادرا ما يتجاوز أربعين فرنكا.

لما الجبال المغربية العديدة والرائحة والتي يسمح لها ارتفاعها بالتوفر على الثلوج بشكل دائم، فإنها مكموة بغابات شاسعة، عالية الأشجار وبإدغال خطيرة تعيش فيها حيوانات مفترسة.

ومن بين المفاجآت السارة التي تنتظر الأسوء المحتملين للمغرب، أن ذكر في المقام الأول، الثروات المعدنية لهذا البلد الذي نجد فيه بكترة، كلا من الذهب والفضة والنحاس والرصاص، إلخ...

وقد سجلت بطنية في حكيتي وخرقطي، الأماكن التي توجد بها المناجم المعدنية لهذه المنطقة الغنية والتي لم تستغل بعد. وهناك مفاجأة سارة أخرى، خصوصا بالنسبة للقوة التي ستقوم بتكبير مصير المغرب، ويتعلق الأمر بالحد الإجمالي لسكان هذه الإمبراطورية. وكل ألمي، هو أن أرحن بالقول، على أن جميع التقديرات المنجزة إلى حد الآن، بهذا الصدد، هي تقديرات من نموج خيال مؤلفيها، وحتى تلك التي تبدو فيها المبالغة، تظل أقل مما يقدمه الواقع. فالمغرب أهل بسكنة أكثر عددا من ساكنة الجزائر التي تلح دائما على مقارنتها بها. ويجب أن نطم بل الأمازيغ ويشغلون أغلب أجزاء البلد، جبالا و سهولا وأن قبائلهم سواء كانت مغربة أم لم تكن، تمتد بعيدا حتى الجنوب.

وإذا ما أردنا وضع مقارنة بين ساكنة المغرب وسكنة منطقة شبيهة إلى حد ما بالمغرب، من حيث الأرض والرجال، فإن القبائل هي التي يجب أن تستخدم كنموذج لهذه المقارنة. وبالقول، لهذا وهناك، نجد نفس العرق والأرض والعمادات واللغة، باستثناء بعض الخصوصيات اللهجية البسيطة، ويحظى المغرب بامتياز على منطقتنا القبلية. فلكونه ظل على الدوام مكان لجوء المسلمين المطلوبين، فإنه سيتوفر بالضرورة على أكبر عدد من السكان بالكيلومتر مربع. فطرد المورسكيين من إسبانيا وغزو الجزائر من طرف قواتنا، مكن جازنا من ربح ملايين المهاجرين. أضف إلى ذلك، أن الحرب الخارجية لم تؤد أبدا إلى أضرار داخل هذه القلعة المحصنة للمسلمين الأمازيغ.

وإذا ما وصطنا مقارنة بين متوسط الساكنة بمنطقتنا القبلية، والذي يقدر بنسبة نسمة في الكيلومتر مربع، فإننا سنلاحظ بأن المغرب بمساحته البالغة 812 ألف كلم مربع، يمكن أن يتوفر على 73 مليون نسمة، أي نفس عدد سكان روسيا. لكن، نظرا لكون الصحراء تمتد على أكثر من ربع هذا البلد الضاسع، فيجب، كي لا نسقط في المبالغة ولكي نحقق التوازن بين الأجزاء الأثمة والأجزاء غير المأهولة، أن نقر بوسط سكتي أقل بالقلتين من الرقم المذكور، أي ثلاثين نسمة تقريبا في الكيلومتر مربع. وهذا الرقم المتواضع والأدنى مما يوجد في الواقع على الأرجح، سيطينا على الأقل 24 إلى 25 مليون نسمة بهذا البلد الجميل المعروف بالكاد، والذي يلح جغرافيوننا على تقدير عدد سكانه فيما بين خمسة وستة ملايين من النفوس.. ولا بد أن يكون المغرب أهلا بالسكان، لأنه بإمكان قبيلة واحدة من قبائل الأمازيغ أن تواجه كل قوى السلطان مجتمعة وأن تجهز للمركة 100 ألف مقاتل. وتبدلنا معاركنا بالداهومي Dahomy وطونكل

Tonkin مجرد منلوشات خفوة إذا ما تورنت بالمجزرة المربعة التي تحدث عندما تصطدم قيبلتان فيما بينهما. ففي أوسط شهر ماي من هذه السنة، تزارعت قيبلتان، إيمتا هما الأكثر حدا من بين قبائل، بالقرب من الحدود الجزائرية وهما المهاية وبني زناسن؛ وقد تركتا على أرض المحركة 600 رجل و 300 فرس. واقتربت هذه المجزرة في أكل من ثلاث ساعات، بدون مدافع، وببنادق قديمة وبالسيف أو بالسلاح الأبيض إن صح القول. وقد أكد لي المغاربة الذين تحدثوا عن هذه المحركة، بأن المغرب هو وكر نمل يمج بالرجال، ويقتله ل 600 رجل شبيه ب 600 قطرة ماء ناقصة من البحر..

إن المسلمين الأفارقة الذين طاردتهم الجيوش الأوربية المقصورة لم يجدوا سوى ملجأين آخرين بإفريقيا وهما: ليبيا والمغرب. ورغم شجاعتها، فإن الصحراء لم تمنحهم سوى ملجأ بسيط لا يلقى بالجنود الكريم والأمن. ولم تكن ليبيا، هذا البلد القاحل والخاصع للسيطرة المنفرة للأتراك، لتعزز عليهم أية جاذبية تذكر. أما المغرب، فقد كان بمثابة الأرض المضيفة للمونجية وحنة المسلمين المرغوب فيها والقائمة المحصنة للإسلام والأرض المباركة التي يسودها إلى يومنا هذا الحظنة القبلاء الفاطمية الزهراء، فهبت المحبوبة للرمول (ص). وإذا ما نجت هذه المنطقة المحظوظة من لطماح الأمم الغازية، في المائة سنة المقبلة، فلها ستوفر عدد نهاية القرن العشرين على حوالي 40 مليون نسمة. وبدون انتظار لهذه المدة الطويلة، فإن الإمبراطورية بإمكانها من الآن، وبسلاكتها التي تناهز 25 مليون نسمة، أن تبرز فوق حلبة القوى العظمى؛ وذلك إذا ما قررت لدخول فعلا في دولة الأفكار والسياسة الأوروبية.

لكن، من المرتقب أن يظل المغرب محافظا على هويته وسكوته العميقة التي حظي بها منذ قرون. فالمسلم المغربي لن يتطلى أبدا عن أعلام القنبلة اللطيفة وهي الحرية للاستقامة والحياة البسيطة والسهلة، وذلك بغرض الارتقاء داخل دواليب أنشطتنا وهي الأنشطة التي لا يرى فيها سوى الجلب المادي، أي تلبية الحاجيات المتجددة باستمرار والرغبة اللامحدودة في اكتساب الثروة. ومع ذلك، كم ستكون مخطئين لو تصورنا أن وكر النمل هذا، الذي يمج بالرجال، لا يتوفر على أفكار ورغبات وأهواء وأنشطة، لو تمكنا من كعاد مصاب ببلادة لا أمل في القضاء منها.. إن المغرب يشبه خلية نحل منخلقة بشكل محكم، ولا يمكن لطائين وحركات النحل القتال ولا لعبة المراك والمناقصات بين الملقكين للخلية أن تخترق الجدار الصانع الذي يمسها من الخارج. ويجب أن نكون نحلا في الخلية لردية الحياة النشيطة داخل شبه قنابوت هذا. فالأمر يتعلق بمحضرة حقيقة هي نتاج للتقاليم القرآنية وبثقافة مثيرة، سائمتين في المناطق المغربية.

إن الزوار الأوروبيين اليهوديين عن معرفة المجتمع الإسلامي الحقيقي والذين لا يضبطون اللغة العربية ولا يدرون أي نشاط منبثق عن هذا الشعب القريب، قد اختلطت عليهم الأمور واعتبروا الحالة الوجدانية التي لم يدركوها مجرد بلادة أو فتشاء دائم. وحتى اليهودي المغربي نفسه، ليس أكثر دراية من المسيحيين، بالحياة العمومية لأسياده. فهو محقر ومهمش في أغلب المناطق المستقلة داخل الإمبراطورية، أي في خمسة أسدس المغرب وهو بالتأكيد مقبول في بعض المناطق التي يتواجد بها، لكنه يظل على مسافة بعيدة عن سيده المسلم الذي يحتجزه هو وزوجته وأبنائه، داخل غنوعات مخزية، معروفة تحت الاسم المسمى: الملاح.

الطور المؤكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا

يبدو أن فرنسا مدعوة لخلافة العرب على مستوى الهيمنة الثقافية التي مارسوها في كل البلاد الأمازيغية، منذ فتوحاتهم الأولى، ومدعوة أيضا لخلافة الأمازيغ على مستوى الهيمنة السياسية التي ما فتئ هؤلاء المحاربون الأشداء يمارسونها فعلا لمواجهه سيطرة الغزاة، بالرغم من الانتكاسات التي لحقتهم. لقد كان العربي داعية مشاكسا لا يشبع، وكان الوندالي متوحشا وقرومقي طاغية مستعوزا والقرطاجي تاجرا عبدا للعجل الذهبي. ويجب أن يكون دور الأمم الحديثة المؤهلة لقيادة الشعوب المسلمة، مغايرا تماما.

فبعد الدروس القاسية للحروب الصليبية وبعد المسار الشاق للاستعمار الذي تم في شروط غير ملائمة، نصف علمية ونصف حضارية؛ ما هي الأمم الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، ترسم لنفسها هدفا في فجر القرن التاسع عشر، وذلك في إطار حملتها الاستعمارية الإفريقية. وهو نموذج يظلت تماما من تصورات وأحكام الشرقيين. وقد اتبعت كل أمة من هذه الأمم الطريق التي رسمتها منذ قرون، أكثر المبادئ الأخلاقية سفاء، لكن النتيجة كانت عكسية. وبهذا الصدد، تعتبر فرنسا الأكل تعرضا للفقر المسلمين. فهؤلاء يؤخذون علينا فقط طبخنا المتساهل، بالمقابل فإن الصوب التي يجدونها في الشعوب الأخرى كبيرة. وإن أذكر هنا سوى الأمم التي يمكن أن تلطم في امتلاك المغرب، وسأقول بصراحة المعهودة ما يتصوره عنها المسلمون المغاربة خصوصا. فقد قالوا لي مرات عديدة: «إننا لا نحب عجرفة وبرودة الإنجليز ونكره تعصب وفصير نظر الإسبان والتهور التراخي كومبي للإيطاليين ونقل نال الألمان. ورغم طيش الفرنسيين ومنهم

نحو اليهود، إلى حد ما، فإن فرنسا هي التي منحتنا لتحكمنا، إذا ما أجبرتنا الظروف على ذلك».

في فرنسا الطبية والفنية، إن حبك اللامحدود للشعوب وخصالك النبيلة وكرمك الخيري والمطير، تجلب لك التعاطف وتؤثر في القلوب الأكثر قسوة. لكن جهلك بالرجال وبمحوطهم، وإرثك الراسخ في إقرار معاداة بشرية، رغم كل شيء، كلنا السبب في ارتكابك لأخطاء شنيعة وإساءات مؤلمة. فقد أدت إجماع المسلمين. ونفع بك فلاستك الذين لم يسبق لهم أن رأوا عبادة البرنوس، باتجاه هذه الطريق المصطاء لكن المحفوفة بالمخاطر.

قبل التفكير في إجماع المسلمين وجب معرفتهم. ذلك أن كل مسلم يولد وفيه شيء من الدبلوماسية. وسيكون أكثر رجالا السياسيين دهاء، مجرد تلميذ أمامه، فالمسلم بشكل لغز، وهو معروف فقط من طرف بعض المسيحيين القلائل الذين شاطروه حياته واندمجوا معه إن صبح القول. وهو من طبيعة مرنة، ذكية، متمرس على المجادلة، تلتف ببراعة على الصعوبات، منطلة، لكنها تحسن الانتظار؛ لذلك فمن أن نجد أفكارا أعقد من فكره، فهو أكثر غموضا بالنسبة للآخرين، بل حتى بالنسبة لنفسه. ورغم أهمية تطوعنا، فإنه لن يغير من هاته الطبيعة شيئا. لتحقيق ذلك، يتعين أن نجرده من ديالته، وهذا أمر مستحيل، علينا تجنب محاولة القيام به.

هل معنى هذا، أننا ملزمون بالتغلي عن استعمال هذه القوة العظيمة التي تضغط بشمال وفي قلب إفريقيا؟ كلا.. بل يجب علينا استعمالها واستغلالها في أقرب وقت ممكن.

وما دام المسلم غير قابل للإنعاج، فلنتركه مع أفكاره ومعتقداته المحترمة إجمالا بشكل كبير، ومع عاداته وقوانينه وأعرافه العتيقة وأحواله الشخصية وأحكامه المصيبة، التي تشكل سمائته الوحيدة في هذا العالم.. ولنحصل فقط على مساهمته معنا في ثلاثة أعمال أساسية وهي: الحرب والزراعة والقرعي. فذلك هو كل ما يمكننا أن نستفيدة منه، وهو شيء كثير. وفي عصرنا هذا الذي توجد فيه فرنسا محاطة بالأعداء، فإنها ستكون في حاجة إلى كل أبنائها للدفاع عنها ضد جيرانها الذين يفوقونها عددا. وسيكون عدد 300 ألف سيف مسلم في صفوفنا أمرا لا يستهان به. ونحن نعلم بأن شهامة المسلمين لا تضاهي، كما نعرف لثقلهم للموت. فلنعلن في الجزائر إننا، الخدمة العسكرية بالنسبة لكل الأهالي وسيقبلونها بكل سرور إذا ما احتفظتم لهم بقوانينهم وأعرافهم ومحاكمهم. ولوظل المسلم غير المجنر، رعية فرنسية على الدوام. لنعامله بطيبة وبعدل مع الصرامة. لنمنحه إدارة مبنية على أسس جديدة، إدارة متجددة، لكن غير مختلفة عن القديمة التي يجب إصلاحها فقط. فالدوايب الممقدة لإدانتنا الحالية ونهضة المحبط لعدائنا، تأثير

حقيقة هذا الشعب البدائي المنعقد على قنصل وحيد ذي كفاءات لا محدودة، بحسب أثناء الجلسة في الخلافات التي قد تتطلب شهورا عديدة ومصاريف باهظة بالنسبة لمكاننا.

صحيح أن اليهودي الجزائري كان محفوظا بالمقارنة مع المسلم، علما بأن الأول لا يتوفر على الخصال الحميدة للثاني. لكن ما زال أملنا متسع من الوقت كي نضع في مصاف لرعية، الغريب الذي لا يستحق شرف أن يكون مولدنا فرنسيا. وستكون إعادة اليهودي إلى الوضع الذي كان يوجد فيه قبل السنة الرهيبة L'année terrible، عملية عذلة بشكل تام وفعلنا سينسار قتما.

ويجب أن تكون للرعايا المسلمين واليهود نص الحقوق والواجبات. فالمسلم الذي أراق دمه مرات عديدة من أجل فرنسا، يشعر بالخين وبالتمرد، عندما يدرك بأننا نكبل بمكيالين، وبأن للكائن الذي يحتقره أكثر من أي أحد، قد يصبح أحيانا سيده، بل وسيدنا نحن.

وإذا ما كانت الجزائر وتونس بإمكانهما مجتمعتين، أن تقدمنا لنا 300 ألف سيف مسلم، فماذا سيقول عن المغرب، عندما يدخل نهائيا في تلك فرنسا؟ ففي ذلك اليوم، سيصبح وطننا سيد العالم. فسر هو الجيش الأوروبي القادر على مقاومة هجوم مليوني من الأمازيغ والعرب المسلحين والمدربين على الطريقة الفرنسية؟ وأية إمبراطورية استعمارية رائعة ستكون لنا في هذا الجزء الشمالي الغربي من إفريقيا؟.. تونس ! الجزائر ! المغرب.. وخصوصا المغرب الذي يساوي وحده أكثر من الآخرين مجتمعين ! ونتمنى أن يكون المغرب، هذا البلد الإفريقي الذي لا مثيل له، في يوم ما، أجمل زخرفة على التاج الاستعماري لفرنسا ! فهذه القطعة مهمة وتستحق أن نهتم بها، وستكون مستكلاتنا الأخرى باهظة مقارنة بهذا الجزء الملكي.

وإذا ما كانت غالبية المغاربة غير قلقة على مستقبل وطنها، فإن أصحاب الروية المسؤولين عن مصير المغرب، يعرفون جيدا السيف المسيحي المستعد لاغتراق أصق الألكليم بالإمبراطورية، إنهم يحلمون بأن الاستقلال الحالي لهذه المنطقة الجميلة، يرجع إلى المنافسة القائمة بين القوى العظمى ولا يجهلون بأن المسألة المغربية ستحل مع مسائل أخرى، بعد الانفجار العلم الذي سيأتي المبارزة الأوروبية الكبرى. لذلك، فهم يبحثون عن كفة تقادي العاصفة المنوية فوق رؤوسهم.

لقد ناقشت مرارا المسألة المغربية مع أعيان فاس ومراكش القلقين جدا وعن حق، على مستقبل بلدهم. والنتيجة التي توصلنا إليها، قد تقدم لفرنسا استشارات لا تعصى والمغرب منافع لا تقدر بثمن. وإن تراقى فطرة دم واحدة للوصول إلى هذه النتيجة ! غير أن الرمن لا يرحم، وخصوصا يعملون دون مودة لمضاغة تأثيرهم داخل هذا البلد الرقيق الذي يستحصرون ثروته

وامسوته. ويجب على فرنسا التي لها الأهمية في هذا البلد، أكثر من الآخرين، أن تتأمل في أول
الشاعر العربي: وربما فلت قوما جل أمرهم من التفتي، ولكن الحزم لو حصلوا

ومران، حديقة وامسفورد Welsford، 31 غشت 1995
أوجست مولييراس Auguste Moulieras

المغرب المجهول

اكتشاف الريف

توطئة

الريف كلمة عربية، تعني الأرض المحروثة والخصبة التي توجد عادة على ضفاف النهر أو بجانب الصحراء. وتعني كلمة "الريف" في القبال: ضفة وشط. ويطلق الريفيون هذا الاسم على بلادهم دون فهم معناه.

ويحد الريف شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقا بإقليم وهران وغربا وجنوبا بإقليم جبلة. أما في الجنوب الشرقي، فيحد على مساحة صغيرة بإقليم الدهرة. ويمتد شاطئه المتوسطي على 230 كلم تقريبا، أما حدوده الجنوبية فهي أطول. ويختلف تسامعه كثيرا ما بين الشمال والجنوب. ففي وسط الريف يصل إلى 180 كلم وعلى الحدود الغربية يصل إلى 80 كلم، أما على الحدود الشرقية فيبلغ 60 كلم. ويغسر الريف من الوسط تقريبا عبر الدرجة 35 من خط العرض، كما يفصل عن إقليم جبلة في الدرجة 7 من خطوط الطول. وعلى الرغم من كون الريف أصغر الأقاليم المغربية المساحة، إلا أنه حافظ مع ذلك على استقلاله منذ فجر التاريخ. فهو لم يخضع أبدا للأسيد الذين تعاقبوا على عرش المغرب. وشكل يوما ملاذا للثائرين والظالمين في الحكم. ومازالت إلى يومنا هذا، يحتر ملجا يستحيل اغتراله.

إن قطاع الطرق والمخربين والأمراء المتمردين وكل أولئك الذين لا يجدون الأمن في الأجراء الأخرى من الإمبراطورية، ما عليهم إلا أن يطؤوا هذه الأرض المعتادة على الحرية، لكي يشعروا بالأمان. ذلك أن الريفيين يستقبلون الأجانب بكل ترحاب، خصوصا منهم المرتكون الإسماء الذين نجوا من محاكم التفتيش. وتشكل عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" جوازا سحريا بالنسبة لكل أوروبي جملته قدرد بين يدي هؤلاء الجبابرة المعتاة.

وعلى المستوى الإثنوغرافي، فإن الريفيين ينتمون إلى العائلة الأمازيغية الكبيرة. وهم العصر قامة من القبائليين الجزائريين، إلا أنهم يتفوقون على قوة وصلابة الفاتحين. ويمكننا رؤيتهم

بقلوبنا في كل سنة أثناء مرحلة الحصاد وجلي المحاصيل، وبالتالي دراسة هذا النموذج المتكامل للعامل القنوع الذي لا يكمل. وتستقبل منطقة وهران أكثر من 20 ألف ياقوت عند مصرينا للبحث عن القنود القيمة النادرة في الريف.

ومع ذلك، فإن بلادهم ليست أرضا ملوحة ما دامت قراها ومدائرها تعد بالمئات، وما دامت قبيلة القنوة وحدها لفترة على مواجهة القوى الإسبانية المتمركزة بملوية. فالروبي يأتي عندنا فقط كي يربح خلال شهرين ما يكفيه للمعيش برخاء على مدار السنة دون أن يشتغل. وهو يشعر بمقعة الوجود وسط القرنسيين الذين يقدرونهم حسن نيتهم ولطفهم القسبي. بالمقابل، فهو يحقت اليهودي والإسباني، الأول باعتباره ملعوناً من الله، والثاني باعتباره عدواً لهنا.

ولرؤد أن أترك جانباً كل اعتبار سياسي في عمل عطفي خالص على هذا العمل، والاتصال على اكتشاف طبيعة المجتمع المغربي وكيف يعيش الأفراد داخل أسرهم وبأية طريقة تنظم القبائل المستقلة، مع إعطاء فكرة مختصرة وصحيحة تقريبا عن هذا البلد الغريب، وعن الوجود القوي لملتهير الرجال الذين يعيشون في أسان داخل القنوس، أحراراً كوحوش كاسرة في غابات والذين لا يضر بعضهم بعضاً. خير أن الأطماع الأوروبية تعطيني رخسا على إلى السياسة المرعبة، بل إن المغاربة أنفسهم يدفعون بي إلى هذه الطريق. ففي جميع محادثاتي معهم، كانت تتكرر على شفاههم، المسألة الأرنية المتعلقة بمصالح وبكدرات القوى المتوسطة.

وهناك دولتان لهما مصالح كبيرة في المغرب وهما: فرنسا وإسبانيا. فهذه الأخيرة تمتلك منذ مدة بعض الصغور المنعزلة بالشاطئ المغربي، ولم تكن لها القدرة أبداً على توسيع مساحة احتلالها الهش. وبملوية وحولها، توجد قبيلة واحدة، وهي القنوة، تقوم الإسبان ندا للند. ولو كان قنصيون مغاربة على المدافع بدل بنادقهم القديمة، لكافت الأمور قد تغيرت رأساً على عقب. فالضعف النسبي لإسبانيا، ولو أمام المغرب، يبدو جلياً. وبالتالي فإن عزو هذا البلد سيكون بالنسبة إليها محاولة فوق طاقاتها. فمجرد الإبقاء على كوبا تحت سيطرتها، يعتبر الآن صعباً بالنسبة لهذه الأمة التي لم تعرف كيف تحافظ على ممتلكاتها الشاسعة بأمریکا.

بقيت فرنسا التي تعتبر مصالحها أكبر من مصالح إسبانيا. فإلى كل فرنسا بجيشها العظيم وقوتها البحرية الرائعة، أن تتخلى بسهولة على المغرب الذي لدينا معه مئات الكيلومترات من الحدود المشتركة. ولا يتعلق الأمر هنا ببعض الصغور الجرداء التي تلطمها الأمواج وتطلق باتجاهها رصاصات الرميخين، بل يتعلق بحدود مشتركة وشاسعة، وبتجارة تكفي يوماً بعد يوم، أهمية أكبر بين الجارين. إن الأمر يتعلق بمعرفة من سيملك ثغورا بسيطة، محاطة من كل جانب بالأراضي الفرنسية.

والآن، إذا ما نحن لمتكنا إلى مشاعر شعب، سيعرض أجلا لم عاجلا للسيطرة الأجنبية، فإن هذا الشعب سيحبب بأن الهيمنة الفرنسية هي الأخف بالقسوة إليه. فالإسبان لم يكتسبوا ود المغاربة، رغم جوار لمدة قرون؛ لأنهم لم يريدوا ولم يستطيعوا دراسة وتعلم اللغتين العربية والأمازيغية. وكل الأعمال الأكاديمية المتعلقة بهاتين اللغتين، قد انحزت من طرف الفرنسيين والألمانيين والإنجليز والإيطاليين. فالعربية والأمازيغية لا تستساغان من طرف الأسبان.

وعلمنا ما كنت بملاحظة ذلك في دروسي بثقوبة وهران وداخل الجزائر، فهل يرجع الأمر إلى عجز؟ هل هو نفور عرقي؟ ثم هناك سؤال أخير: هل بإمكان إسبانيا أن تعلم جيدا عن طموحها في حمل مشعل الحضارة خارج أوروبا، في ظل الوضع الثقافي الذي توجد عليه حاليا؟ وهناك أخيرا قوة ثالثة لا تشجع، وهي إنجلترا التي تريد الاستيلاء على طنجة لإغلاق مصيق جبل طارق ولتحكم بذلك في كل البحر الأبيض المتوسط. وتتمثل خطتها في الاستيلاء على بعض المدن الشاطئية، لأنها تعلم جيدا بأن تظفل جيوشها داخل المغرب سيواجه بمقاومة باسلة. كما تعلم أن بإمكان هذا البلد تجنيد أكثر من مليون من الرجال الأشاوس المختلفين تماما عن المسلمين الخاضعين بمصر أو بالهند. وهي على علم بأن مثل هذا الغزو يقتضي تعبلة أكثر من 100 ألف إنجليزي. وبالتالي، فإن هذه المهمة ستكون فوق طاقتها، وبإمكانها أن تحرق وتتهب الشاطئ المغربي، لكنها لن تستولي أبدا على شبر من اقتراب الداخل.

كانت تلك هي القوى الثلاث المهمة أكثر من غيرها باحتلال المغرب، وبميل المغاربة إلى فرنسا التي إذا ما استشرى، فإن بإمكانها أن تحصل على هذا البلد الجميل دون إراقة قطرة دم. فضلا لويس الثالث عشر لم تغير سياستها هناك، كما أن تأثيرنا مثل تأثير كل الأمم المسيحية الأخرى، لم يكن ذا أهمية. فقد كان القناصل الأوروبيون المضطرون لاستخدام مترجمين من البلد، وهم في غالبتهم يهود، لا يحظون بالاحترام الكافي من طرف أصحاب المجتمع المغربي الذين كانوا يهشونهم ويحترونهم مجرد كثرة متلبسين بلباس القداسة ومدعين بالقوة العاقبة. ولم يبق لإمبراطور المغرب أن يدخل في محادثات خاصة مع أحد ممثلي القوى الأوروبية الذين كانوا يجهلون كلا من لغة البلد والأدب العربي.

إن المؤرخين قد افكتوا بالإنجاح الذي حصل عليه غوليوس Golius سنة 1622 بالبلط الشريف. فهذا العالم لم يكن يعرف ولو كلمة واحدة بالعربية الفارسية. لكن، وبفضل عريضة الاستمطاف syplique المكتوبة بالعربية والمقدمة إلى السلطان، وهي العريضة التي سيجب هذا الأخير بكتابتها الجميلة، سيحصل على ما كانت السفارة الهولندية ترغب فيه. وكم من امتيازات كان سيحصل عليها لو أنه وضع للسلطان بالعربية موضوع عريضته والغاية من

المهمة التي كلف بها، بدل مخاطبته بالإسبانية. لم نفهم بعد في فرنسا، بأن على كل مسلمة بالمغرب وبالبلدان العربية الأخرى، أن يكونوا محرمين بشكل كبير، يتكلمون ويكتبون جيذا، لغة الرسول (ص)؟

انرجع إلى ريف، فتضاريسه تشبه كثيرا تضاريس القل الجزائري، بحيث يشكل لسان له، ولانه محاط جنوبا بجبل عالية، فإن قمم بعضها تظل على ما يبدو، مكموة بالتلوج في جز الصيف، ولا يمكن عبور هذه المنطقة لرضا، إلا من خلال حدودها البحرية، شرقا وغربا، ولا يتم النشاط أي ملاذ أمر. لهذا وهناك تستخدم مراكب غير صديقة كمصب لبعض الأنهار المسيلة التي لا تتعد مناهمها كثيرا عن البحر. وفي كل مكان تقريبا، باستثناء منطقة الغاريت (garie) الموحشة، يتم ذوات رالع. وتتوج حلقات القل، المنفصلة عن الأجزاء الخلفية لعمدة بالمغرب، تحت غابات من أشجار الفوكة، لتنتهي بهدوء داخل أمواج البحر الأبيض المتوسط.

إن ريف الذي يشكل مساحة قريبة من 23 ألف كم مربع، أي ما يناهز مساحة ثلاث محافظات فرنسية، يتوفر على كثافة سكانية مهمة. وتقدر المعلومات المختلفة التي حصلت عليها من مصادر متنوعة، عدد المحاربين الريعين القادرين على حمل السلاح ب 250 ألف رجل على الأقل. وإذا ما صاغنا هذا العدد بحس مرات، فإننا سنحصل على مليون و 250 ألف نسمة بالنسبة لسكان أصغر الأقاليم المغربية. ونفهم الآن لماذا يمكن لهذه المنطقة الصغيرة تحدي كلا من السلطان وإسبانيا. فهي محصلة طبيعيا من كل الجوانب، سواء بشواطئها الخطيرة أو بأوديتها أو بجبالها.

وهي تتوفر على عرق من كثر أعراق العظم سلالة، عرق لم يخضع أبدا للأجنبي، ولربما كان عرق الوحيد على الأرض، الذي لم يقول عنه التاريخ أي سوء. فهذا الشعب الصغير، تمتع باستقلاله في كل الحقب. لذلك فإن الريفي يحشق موطنه إلى حد العبادة. وهو يحمل حقا دفعا لإسبانيا التي نجحت في الاستيلاء على بعض صغور هذه الأرض المقدسة والاحتفاظ بها، لكن بأي ثمن ؟..

ولا يمكن لأي أوروبي أن يتباهى بكونه عبر ريف. فهذه المنطقة مجهولة وغامضة ولا ظلت مستقرة بسرما ومغطاة بحجاب متوج. ونحن نذكر المحاولة غير المجدية لمواطننا هنري دوغريي H. Duveyrier الذي عاش بعيدا عن هذه الأرض الموعودة ولم يتمكن من ولوجها. لكن هذا الرجل الشهير سامم بنفسه في فشل مهمته. فقد كان يرتدي لباسا أوروبيا ويخفي في جز رمضان ويأكل ألام الأملالي المتزمنين بالصوم القاسي ويتحدث العربية بطريقة خاطئة. وقد أدهش وأزعج حينما اعترض الريفيون على عبوره لمنطقتهم، رغم أنه كان ضمن قائمة

لشريف فوزاني. وقد كان يملكه ويقل من الذهب، عبور اريف واكتساب مجد خالد مثل
بريستوف كولب جديد لهذه الأرض المجهولة. وسافر في المجد الثاني، لماذا عبر لشريف
لوراني عن إزقة شكوك الريفيين واستصحاب هنري دوبري معه.

ونص لعقد جزمين في أوروبا، خصوصا في فرنسا، بأن شرفاء الزاوية الوردية
يحظون في بلدهم باحترام لا محدود. غير أن العكس هو الصحيح، إذ لا تمر سنة دون أن
تعرض الزاوية الشهيرة للنهب من طرف القبائل المجاورة. وقد سمحت الحكومة الفرنسية التي
خضعها للتأثير الخاطئة، للشريف فوزاني بالمجيئ أحيانا إلى وهران، لجمع تبرعات الأهالي،
في حين كان يحتمل بالتأكيد في بلده. وكانت التبرعات التي تتم عندها لأجل هذا الولي المزعوم،
تعود عليه ب 200 إلى 300 ألف فرنك.. ويمكن القول بأن أموال فرنسا هي التي تميل هذا
المورج العظيم الأهمية. وفي المغرب، هناك آلاف من شرفاء أكثر احتراماً من شيخ وزان. وإذا
ما رغب أحدهم في المجيء إلى محافلتنا لأخذ المال من رعاينا المسلمين، فإنه سيحظى بنجاح
أكبر من نجاح منافسه الضعيف. ونتمنى ألا يتبلى أي واحد منهم هذه الفكرة التي استغلت ببراعة
إلى حد الآن من طرف مولاي عبد السلام وحده، والتي قد يؤدي موته مؤخرًا إلى وضع حد لهذه
الجهولات القروية المتفردة.

هكذا، فقد كان رحلتنا مطعنا بالكشف هذا اريف القور، خطوة خطوة و سيحظى أينا
حل، وباستثناء بعض الأحداث المعارضة، باستقبال يليق بوضعه كطالع ودرويش ومتمول.

ولما لم أتبع بالضبط المسار المظلم لمحمد بن الطيب على مدى اثنين وعشرين سنة من
تجواله عبر ربوع المغرب، فقد كنت سأعرض لفتنه. لو كنت مرافقا له. وبقائي، كنت
سأسأل قراني الذين كانوا سيتحولون معي بدور قطاع، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق
إلى الغرب، على نفس الصفحة أحيانا. لذلك، فضلت إعطاء وصف كامل لمنطقة معينة قبل
المرور إلى المنطقة الموالية. وكانت الصعوبة الكبرى تتمثل في الحصول على تواريخ إقامة
الدرويش في مختلف أجزاء الإمبراطورية. غير أن محمد بن الطيب اللامبالي، الذي لم تكن له
مهمة رسمية ولا أصل ولا انتهاء أخرى تكسوه إلى مغامرة المكان، كان يحش بدهوء دون أي
اهتمام بمرور الأيام والشهور والسنوات. ولأنه شغوف بالأطعمة الفاخرة، فإن ذكريته المضبوطة
كروولوجيا، لا تحيل إلا على المأكولات الطيبة والفاخرة التي تمتع بها في مملكة الشريف،
صاحب الجلالة. وكان يتذكر جيدا البلدات التي احتل بها بعد الأضي. وقد مكنتني ذاكرته
المطبخية بوضع اللوحة التالية التي تبرز جزئيا الاكتشاف الرائع للدرويش وتقلاته الطويلة خلال
نفس السنة. وأيضا تاريخ تواجده بهذا الإقليم المغربي أو ذلك. وقد يحصل لي أثناء تحرير صلي،

إن أغلب أحيانا تاريخ سفر رحلاتنا، لذلك فإن المطلوب من القارئ في هذه الحالة، هو البحث عنها في الجدول التالي.

الأماكن التي احتفل بها محمد بن الطيب بعد الأضحي المسمى بالعيد الكبير

السنين	الأقاليم	المسكن أو القرى	القبائل
1872	جبل	بني بدو	بني رزول
1873	جبل	غضاي	بني رزول
1874	جبل	عبر الرباح	لدجبة
1875	جبل	ققلية	بني رزول
1876	البرابر	صغرو	صغرو (المدينة)
1877	البرابر	المنزل	بني بازغة
1878	فاس	فاس	فاس (المدينة)
1879	فاس	فاس	فاس (المدينة)
1880	البرابر	تولموت	بني مكيك
1881	تفولالت	قصر مولاي علي الشريف	مدرزا
1882	درعة	رطوبة سوي أحمد بناصر	ليت ناصر
1883	سوس	تروذالت	تروذالت
1884	مراكش	مراكش	مراكش (المدينة)
1885	فاس	فاس	فاس (المدينة)
1886	الدمرة	المقام الموقاني	أولاد عمرو
1887	الدمرة	سوي حمرة	مخلفيت
1888	الريف	صغرو	بني برناس
1889	الريف	بو حمرة	قصة
1890	الريف	تيزمورين	بني ورياعل
1891	مراكش	أسفي	أسفي (المدينة)
1892	الدمرة	تبدو	تبدو (المدينة)
1893	الريف	قلمة	بني مكنون، بني برناس

كيفية تكوين الكلمات العربية والأمازيغية والتعلق بها

بنا ما كانت هناك لغتان، خضعت كلمتهما لتقوية غريب من طرف الأوربيين، فهما بكل تأكيد العربية والأمازيغية. مثلاً عوضت الجزائر بدردير ووهرن بونهون والمغرب بمرتكش وتونس بتونس والمصر الضيق بطوق لود إلخ... فهل بإمكان الجميع التمييز بينهم؟ وما نمت أول من كتبت مئات الأسماء الجغرافية الجديدة للمنطقة بالمغرب، فبني أمتي أن تصبني دراستي المتخصصة من ارتكاب نفس أخطاء أونتك الذين بدءوا تمكثهم من تعلم اللغتين العربية والأمازيغية، يسعون بشكل رديء ويكتوبون بنصر فرداة الكلمات الخاصة بهتير اللغتين. ومن بين آلاف طرق التكوين المستعملة من طرف المستشرقين، فبني أن أرتد في اختيار طريقة مؤلف " محاولة في النحو القليلي "، العلامة المتواضع الجورق علوطو Hanoteau. وهذا التكوين هو الذي يبرز على كل حال في مؤلفاتي المنتمية بالكميات الأمازيغية. وأسمح لنفسني مع ذلك، بتقديم بعض التحولات الطفيفة التي سأشير إليها في حينها. ولو كانت المطابع الوهرانية مجهزة بشكل أفضل، لكنت قد تمكنت، على غرار صنيقي روني بلسي René Basset¹⁴، من إدراج الحروف المنصصة لتتشبه الحروف الأمازيغية sch ، g ، ضمر أجهتي. لكن هذا الأمر صعب المنال. فمصاحب المطبعة الجزائرية الذي قد يطلب منه شراء هذه الحروف الطليمة الجديدة، موصرخ محتها وموقفه لفصل التبريرات لرفضه. هكذا، سأضطر لتمثيل 'تن' بـ "sch" و "ج" بـ "i" و "ق" بـ "g" و "ك" بـ "k" وكلل الأمر يتعلق تماماً بهم أو بكاف. غير أن التكوين الفرنسي ميسر بالتعلق بالصحيح مع ذلك.

¹⁴ - Cf. René Basset, *Manuel de langue Kabyle*, Paris, in - 12, 1887.

جدول يمثل الأبجدية العربية مع القيمة التي يعطونها لها العرب الأسلاف.

القيم العددية	الأحرف العربية
800	ض
9	ط
900	ظ
70	ع
1000	غ
80	ف
100	ق
20	ك
30	ل
40	م
50	ن
5	هـ
6	و
10	ي

القيم العددية	الأحرف العربية
1	أ
2	ب
400	ت
500	ث
3	ج
8	ح
600	خ
4	د
700	ذ
200.	ر
7	ز
60	س
300	ش
90	ص

ملاحظات

للأدي أي غلط، مستعمل خط الوصل داخل نفس الكلمة كلما وقع الالتباس. مثلا، إن الحروف: t, th, kh, ch, dh, k ، ستكون مقبولة مباشرة بخط الوصل عندما يأتي بعدها حرف الهاء، مثال التهمة Ett-hma ، الكمي AK-ha ، أي نفع على أصابعه، Ed-hem ، أي لسود، سيد q-had (حرارة)، دهن D-han (زبد مذبذبة)، كهن K-hhen (تتجم). وعندما يوجد حرف صواتي voyelle فرنسي بين الهاء والحرف السابق عليه، فإن خط الوصل لا يستعمل مثل: تهم tchem ، صروح çaboh (البنوس)، دهن Dehen (نم) إلخ...

وسأنتهي من هذه الملاحظات الفونيقية والنحوية البسيطة، لكن المهمة، بالتأكد على أنه من اللازم لاطلاق بكل حروف الكلمات العربية أو الأمازيغية مثلا: Tizemourin سطلق تيزيمورين، Taroudant سطلق تارودانت، Mengouch منكوش، Ait Angad أيت أنجاد، Akh z'erouchchen أيت سغريوشن. وسواء كانت ch بسيطة أو مزدوجة، فلها تطلق دائما cho كما هو الأمر في الكلمة الفرنسية (سنة) . ومثل G و G' على نطقها الحقيقي أثناء حركات مثل e, i, y, a, o ، مثلا Mglid سطلق مغلاد ، iger ، وسجل حرف g صلبا كما هو الشأن في كلمات مثل: guider (أرشد)، guerre (حرب) Mag'rib (مغرب). أما حرف 'س' S الموجود في الكلمات الفرنسية مثل sauver (أنقذ) savoir (معرفة) (songer (فكر) ، فسمع دائما، سواء كان موجودا في بداية أو وسط أو عند نهاية الكلمة أو بين حرفين صواتيين مثلا: Fas فاس تطلق مثل Face (وجه) Tamaanan تطلق تاسمان، Bni Znassen بني زناسن إلخ... وبخصوص os ، هذا الحرف الصواتي المخصص لتمثيل الضمة العربية، فسيحفظ بالمعنى الوحيد الذي يعطيه له الفرنسيون في كلمات مثل Cou (علق)، Fou (مجنون).

ونعني بالمختصرات (A-B) و (B-A) العرب الذين تمزجوا والأمازيغ الذين تعربوا. فـ (A) تعني عربي، Arabe و (B) تعني أمازيغي، Berbère وفي كل مكان تقريبا أوضح معنى الأسماء العربية والأمازيغية.

وهذه المهمة الدقيقة والخطيرة، تضغط أمام صعوبات حفرية، خصوصا عندما يتعلق الأمر بأسماء محددة. لذلك، أرجو المخرجة من الأخطاء التي ربما تكون قد ارتكبتها. وعلى أية حال، فليقتلني ذلك الذي لم يخطئ أبدا، بالحجرة الأولى.

المغرب المجهول

القسم الأول

اكتشاف الريف

قبائل الريف

تاغزوت، بني بونصر، بني خنوس، بني سدات، متيو،
بني جميل، بني بوفراح، بني بطف، بقيوة، بني ورياغل،
تمسمان، بني توزين، تفرسيت، كزناية، لمطالصة، بني
عصريث، بني مزدوي، بني ولشك، بني سعيد، بني بويحيى،
قلعية، كبدقة، تريفقة، أولاد ستوت، بني زناسن، بني محيو،
مغراوة و بني بشير.

يستخدم المغاربة تداعيا ذهنيا لمساعدة الذاكرة في نظم وحفظ أسماء القبائل المشيرة. وتتمثل هذه الطريقة في جمع هذه الأقاليم متى متى دون اعتبار لوضعيتها الجغرافية، مع جعل كلمة كل زوج مقالة. مثلا: الريف والندرة، البرابر والصحراء، جهالة وقدايرة، الحور ودرعة، سوس الحمراء، وقدايرة هي مختصر دائرة فاس. أما الحور فهو مختصر لحوز مراكش. وكلمتا قدايرة والحوز مترادفتان وتعنيان " الإقليم ". وكل أقاليم المغرب مستقلة تقريبا ولا تحترف إلا بالسلطة الروحية لسلطان فاس. ولم يكن الريف خاضعا أبدا، فهو يشكل جزءا من " بلاد السبية " العاشية (أي المتخلى عنها من طرف السلطان)، البلاد التي يتجول فيها المرء بحرية والتي تشمل أربعة أقاليم المغرب. أما الخمس المتبقى فيسمى بلاد المخزن (بلاد الحكومة) . وفي حين اتخذت القوضى في بلاد السبية شكلا جمهوريا إلى حد ما، يتميز نسبيا بقليل من الطغيان، إلا أنه لا يضمن أمن الأفراد، فإلى أعوان السلطة في بلاد المخزن، بالمقابل، سيضربون الرعايا بكل سلطة لا ضابط ولا حد لها. فلا غرابة إذن، أن نرى القبائل المتمردة لا تحير أي اهتمام لامتلاك السلطة، فإد الإمبراطورية.

فالريف المحمي بجباله الجنوبية وبالبحر، لم يكن ليخشي عاهلا بحرية له ولا جيش له تقريبا. ومع ذلك، فهو يرسل الهدايا إلى السلطان متلما يرسلها الكفوليين إلى البابا. وتعمل هذه الهدايا عند وصولها إلى فاس، اسم الضريبة، وبذلك يكون مرور الإدارة المغربية قد تم إرضاءه. والقبيلة الوحيدة التي كُرت باستقبال بعض جنود السلطان، هي القباة، وذلك بسبب نزاعها المستمر مع إسبانيا بملاوية. وما عدا ذلك، فإن المخزني (الجندي النظامي) يظل غير معروف.

قبائل الريف

يتضمن هذا الإقليم ثلاثين قبيلة، تمتد إحدى عشر منها على طول البحر الأبيض المتوسط. والقبائل البحرية من الشرق إلى الغرب هي: طريفة، كبدانة، قلعة، بني سعيد، تسمان، بني ورياحل، بقوة، بني يلفق، بني بوفراح، بني جميل وعقودة.

وتجد جنوب هذه القبائل، من الشرق إلى الغرب: بني زناسن، بني محيو، أولاد متوت، بني بويحيى، بني ولشيك، تارسيت، امطالصة، كزناية، بني توزن، بني حمريت مغرولة، بني بشير، بني مزدوي، زركت، تارجيست، بني مدات، بني خلوس، بني بونصر، تافزوت.¹⁵

وكل سكان هذه القبائل تقريباً هم من الأسانج الذين يجادلون اللغة العربية، ولهم لغتهم المحلية *idiome*، المسماة تاسانجيت، تنوعاً كبيراً اللهجات المتقاربة بعضها من البعض، باستثناء ما ينطق بكبدانة وبني زناسن، اللتين تعتبر لاهما المسماة زناكية، مختلفة نسبياً عن تاسانجيت، وإن كان أصلها أسانجيتاً.

وقد تم، فيما مضى، اجتياح طريفة وأولاد متوت من طرف العرب الرحل. ويعتبر أسانجيتو الريف، القبائل الأربع الأخيرة: كبدانة وبني زناسن وطريفة وأولاد متوت، غير ريفية، إذ أن لغة أهلها وعاداتهم تجعلهم غير مؤهلين للمعاملة كقبائل ريفية، من طرف السكان الريفيين أصحاب لغة تاسانجيت.

قبيلة تافزوت

(المضيق، الانتعاش) ، التسمية أسانجيتية

إن أشهر في هذه مسير محمد بن الطيب الذي دخل الريف لأول مرة عبر تافزوت، وهي قبيلة جنوب الريف الغربي. وقد أقيم في هذه المنطقة حوالي أربع سنوات: ما بين 1888 و1890 في المرة الأولى، وعام 1893 في المرة الثانية. ففي سنة 1888 وأثناء عودته من رحلة بالدمرد، مر بالمنطقة التي تفصل هذا الإقليم عن الريف الغربي وبلغ قبيلة تافزوت، بعد أن تركه

¹⁵ - سلكوا دقماً، بأنه يتبع النطق بكل حروف الكلمات الأسانجيتية والعربية.

وراءه قبيلة كتامة (جبالة) التي ستحدث عنها في كتابنا التالي. وكانت أغواره القبلية وعرفته كدرويش جوال تشبه لدى كل من يراه، تمامًا مشوبا بالثققة. لذلك، كان من السهل عليه تسمية، المرور من قبيلة إلى أخرى، وهي عملية مخوفة بالمخاطر دوما في المغرب.

وحيثما يحظى المرء باستقبال جيد من طرف قبيلة مغربية، فإنه من الأفضل له الاستمرار دائما بها، لأن مغادرتها قد يجعله عرضة لاعتداء القبائل المجاورة المتعازية فيما بينها باستمرار تقريبا. وبالنسبة لمحمد القراغب في رؤية القريف، فإنه لم يخش أبدا المخاطر التي يمكن أن يلاقيها في هذا البلد الجهول والموحش. لقد هرب من كتامة دون توديع مضيفيه السابقين وتوجه بجراة إلى قبيلة تاغزوت، متبعا المجري القنصرج للتدبير الذي يحمل نفس الاسم. ودخل إلى قرية القكمة حيث بقي القرحاب في المسجد، ثم عمل فورا وكعائنه، على دراسة البلاد والحياد.

وتعد تاغزوت جنوبا وغربا بقبائل إقليم جبالة. وهي تتألف من قسمن وهما: تاغزوت القوقلانية (العليا) وتاغزوت القشتالية (السفلى). ويمكن لكل قسم أن يجد أربعة آلاف من المصايف الفانتاسين، أي ثمانية آلاف رجل بالنسبة لكل القبيلة. ولأن التجربة أكدت لي بأن كدرويش يقطع أربعين كيلومتر يوميا، كشأه جيد، لقد كان من السهل عليه تسمية، ضبط مساحة كل قبيلة وبالتالي كل إقليم. صحيح أن سيقان هذا الجوال الذي لا يكل، لا تتوفر على دقة وسقانا في مسح الأراضي، ومن الطبيعي أن ترتكب بعض الأخطاء في تقدير المسافات، لكن الصحيح أيضا، هو أنه بواسطة هذا النظام الفريد الذي يمكن تطبيقه بالمناصفة، فإني لم أحصل سوى على نسبة 30 كلم من الخطأ، ضمن خط معتد على طول السلسل القريفي، من مصب واد كرس إلى قبيلة شارة الجبلية..

وعندما تصور بأن مساحة القرايب الوطني الفرنسي نفسه، موطن الأنوار والعلم، غير معروفة بدقة تامة، إذ أن المساحات المعتمدة في الوثائق الرسمية ما بين سنوات 1878 و 1885 تتراوح ما بين 52700680 هكتارا و 52910373 هكتارا، فإني أرجو ألا يؤلفني القناد المتشددون على غياب الدقة في التقسيم الثلاثي لمساحة الأرض، المتميز بهديته ويتفلسفه.

وتعد تاغزوت على حوالي عشر كيلومترات طولاً وعشر كيلومترات عرضاً (ربع يوم من المشي في كل الاتجاهات). ويتبع نهر تاغزوت ، وهو مجرى مائي جميل شبيه إلى حد ما بتقنا، من قمة جبل الأرض بلأراضي بني بولصر. ويبلغ طول هذا النهر أربعين كيلومترا، كما توجد على جليليه قرى وضواحي عديدة. وأحيانا يجري النهر داخل أودية ضيقة جدا. ويتم عبور مجراه القام بين الصفور، على ست كتايف خشبية موجودة بقبيلة تنزوت وحدها. كما يساهم الماء الصافي والخبث، في دوران الحديد من دواليب المطاحن على طول شطآن النهر.

وبخصوص الحيوانات الأليفة، لا نجد في كل تاهزوت سوى الأبقار والبقول، إلا أن المراعي لا تكفي الماعز ولا الخراف. لذلك يقوم الأهالي بطف أبقارهم بأوراق الشجر. وحول كل المنبجات المحلية لهر تاهزوت، تمتد بمساقين رائعة مليئة بالمحاصيل. وهذه البيئة الموجودة بأعالي الجبال كثيرة الأشجار وتتوفر الغابات أساسا على أشجار السندبان والعرعار والبلوط والأرز. أما المساقين فهي مليئة بأشجار الجوز والكروم المتسلقة. وقد حدثت في خريطة خلصة بتاهزوت، الأمكن قتي توجد فيها مناجم النحاس والفصدير والرسايس والفضة والذهب والمديد.

ويعيش سكان القسمان من تاهزوت في حالة حرب دائمة. وهذا الحقد القديم بين أشخاص من نفس الأصل، نابع من الاغتيالات المتكررة قتي يرتكبها رجال هذا قسم أو ذاك. فلتاهزوتي الحساس والجامع جدا، يفضي لمجرد كلمة ويضرب إلى حد الموت كل من يشتمه، بل وكل من يمارسه.

وكلماتي العرق واللغة، فإن ملامحه متشعبة وطوله متوسط. وتعتبر أخلاقه ملحة، لأن مجاورته لجبال، وهي أكبر منطقة لوطية بالمغرب، جعل ميولاته الجنسية شادة. فلفلام gkon، هذا الشخص لطيف المسمى بالمعالي في البلد، يشكل جرما من الحریم Gynécée، وحتى النساء الشابات أنفسهن، يقبل بهذه المنافسة المنفرة ولا يخجلن من الاعتراف بأن السبل يمنح لمتعة السيد، أحسن منهن. ولحسن الحظ، فإن هذا الجرح القبيح المتمثل في معاشرة الفللمان، يتمصر عند حدود جباله. فهذه الممارسة مجهولة في الأجزاء الأخرى من الريف، المهيبة عن أكثر أقام الإمبراطورية الشريفة تهتكا. وفي المجد الثاني، سنضطر إلى تحريك هذا المستقيم الذي يبدو مستكرا من طرف جباله، لكن، لنترك تلك جانبها الآن، ولنقل بأن الفلمان يهاجون في أسواق تاهزوت مثل البهائم.

وتعتبر تامازيغت، وهي اللهجة الأمازيغية المتداولة بين تاهزوتيين، مختلفة بعض الشيء عن اللهجات المحلية الأخرى بالريف. وهي تقترب كثيرا من زولوا Zououa القبائل الكبرى. وتدعي أسطورة استقدمها الفرويش من القبائل، بأن أصل قزولوا القزائريين، من قبيلة تاهزوت نفسها، وأن أجدادهم هاجروا منها إلى جرجورا في زمن سحيق. وغضلا عن ذلك، ففي يومنا هذا، ما زال تاهزوتيون والقزولوا يمارسون نفس الأعمال والمهن. فهم باعة متجولون وصالحو أسلحة. وإذا ما كان العديد من القزولوا قد بدلوا بتكلمون العربية، فإن أعالي تاهزوت بالمقابل، لا يمارسون ولو كلمة عربية واحدة. ويمكن على ما يبدو، أن نجد لديهم مؤلفات محررة

بالأمازيغية، ومن بينها ترجمة لسودي خليلٌ وللأحداثِ القبوية. كما ينحصر أبهم المحلي في الحكايات الشعبية والأشعار.

وتشتهر تاغزوت في كل المغرب بصناعتها للبنادق المغربية، المميرة، التي أصبحت عرضة للمنافسة القوية من طرف الأسلحة المستوردة من إنجلترا وإسبانيا. ومع ذلك، فإن المكنة (القبيلة) لتاغزوتية ما زالت تشتري وتحظى بالتقدير من طرف قبائل الداخل التي لا يمكن للأسلحة الأوروبية أن تصلها، لأنها مستهدفة قبل وصولها إلى وجهتها.

إن لتاغزوتيين جميعهم تقريباً، هم باقو أسلحة. فهم يصنعون كميات كبيرة من تلك المكين الطويلة الشبيهة بالخناجر القبائلية. كما أن بعض التجار ينقلون صنع الصناديق الجميلة والصحون الكبيرة من الخشب (قصعة) وهياكل السفن إلخ... وكانت هناك محاولات في القبيلة لاستغلال المناجم الغنية للمنطقة، لكن بدون جدوى.

وقد اعتكرت خمس زوايا مناجم الذهب والفضة، لكنها لم تستد منها كما يجب. وينحدر شيوخ هذه الزوايا من سيدي محمد أخمريش الذي تلقى بركة الوالي الشريف مولاي عبد السلام. ويوجد أيضاً صامو الأثاث الذين يشتغلون على الأرض والسمرو بالخصوص، حيث ينجزون أثاث بيت متميز. وتمارس صناعة القطران من طرف عدد قليل من الأفراد الذين يحصلون على قطران والزفت بالطريقة التقليدية؛ يتم داخل مرجل مثقوب مثل الكسكس (وهو قدر الذي يطبخ فيه الكسكس) تعريض الخشب الصمغي للبخار الناتج عن غليان الماء، ويوضع القطران الذي يسقط قطرة قطرة بخلاية أخرى.

وكإخوانهم في جرجورا، فإن أهالي تاغزوت يتجولون كبائعين في القبائل الأخرى، عارضين الجوز وقشرة شجر الجوز لتبييض الأسنان واللور والمخازل والبارود والرصاص. ورغم تميزها باستقلالياتها، إلا أن القبيلة تبث إلى السلطان كل سنة بندق جميلة. ولا يكلف هذا النوع من الضريبة أكثر من خمسة سنتيمات بالنسبة لكل فرد من أفرادها. ومن جهتها، فإن قبائل بني بوشيت، بني بونصر، بني بشير، مريومة وررقت، لا تؤدي لأكثر من ذلك. فهي مثل تاغزوت، توجد في منطقة فقيرة نسبياً. وأغلب مدائرها مبنية فوق جحور حاوية للمعادن métallifères. وتزعم الروايات أنه في عهد السلطان الأكل، حكمت السلطة المركزية تشمل مناجم هذه القبائل. ويحكى أيضاً أن دقيوس Docius شيد قرب كل منجم حصناً ما زالت آثاره بادية للعيان. ولا يعرف الأهالي كيفية استغلال ثرواتهم المعدنية، وهم يطمون أن بإمكان القنصاري الاستفادة منها، لكنهم يخشون من تأثير مجيء الأوروبيين على استقلالهم. فهم يصلون الموت عزاء فوق منجمهم الذهبي، على أن يرضوا حريتهم العزيزة للخطر.

وتحترق الدار هي مسكن الريفي، وتتشكل في القبال الجنوبية من طابق مطلى بالطين
ampelodes mostenax وأحياناً بالجريد *chamoerops himilis* أو بالحطاف *ripe*
tenacissima. وفي الشمال يطن أهالي القبال البحرية بمنازل شاسعة، مبنية بالطين ودلت
طابق أو طابقين وسطح. ويخصص الدخل الرباعي الأصلاخ المحلط بالشفق، كساحة واسعة
حطرت بها مطامير لفرن الحبوب. وتستخدم هذه الساحة أيضاً كزريبة للماشية؛ وفي الوسط توجد
أربعة جذوع ضخمة للأشجار وضع فوقها برج عال من الخشب. وعلى قمة هذا البرج، يقف رب
الأمرة حارساً، حينما يكون عدم الأمن سائداً بالخارج. لمس موقعه المرتفع، يتحكم في القصور
الخارجي ويحيط عن الخطر ويستقبل بطاقات التهنية أولئك الذين يريدون مهاجمته. ويوجد لفرن
الذي يهيا فيه الخبز وسط الساحة التي تمنع عليها أبواب البيوت. ولا يتميز بيت الريفي بلبنة
خاصية. فعلى طول الحيطان الأربعة المطلية بالجير عند الأغنياء وباللون الأسود عند الفقراء،
توجد مصطبات واسعة وضخمة يصل علوها إلى متر، وتستخدم للجلوس نهاراً وللنوم ليلاً.
وفوقها هناك رفوف مبنية مهيئة بالحائط، توضع عليها الملابس وأحوات الطبخ والأسلحة
إلخ... ولا وجود للمرايحض بالمنزل، إذ تغطي الحاجة في الحول؛ لكن يمكن أن تجدوا بالمقابل،
في المصلى والمسجد، ويحاط كل مسكن، وبكثافة، بالطين الوحشي القديم العهد *opuntica*
vulgaris، وهو مصدر غذائي هام بالنسبة للمعمرين الذين يستهلكون بشكل مخيف، هذه الفاكهة
ذات القشرة الشوكية الحمراء والنداق الطو الذي قد يكون بدون طعم، والذي يسميه العرب
"كرموس القصارى".

الرجع الآن إلى الدرويش الذي تركناه بقرية القلعة. فقد ذهب رأساً كعادته إلى المسجد،
حيث وجد مجموعة من الشباب المنشغلين بحفظ القرآن وتلاوته بصوت عال. ولم يكن لهؤلاء
المسجد أي تأثير على الحاضرين، فقد جلس إلى جانب أحد الطلبة وشرع في تلاوة آيات القرآن
لتكريم معه. وسويت بالمسجد بعد تناول طعام العشاء مع زملائه الجدد. وفي القدر سمح له
المطعم بمائدة دروسه.¹⁶ وهو ما يعني أيضاً الحصول على الرتبة (الطعام والمبيت بالجامع).
ويقيم الطعام من طرف السكان المصنفين الذين يحتفون بأنهم ينجرون عملاً صليحاً، عبر الإنفاق
عدة سنوات عديدة، على ثياب منشغلين فقط بحفظ سور طويلة من القرآن، لا يفهمونها من
جانبيهم. وتقتضي الموضة الجبلية التي أخذت إلى تاغروت، أن يرتفق كل طالب راشد، عليل،
وهو صهارة عن خادم خسيس صالِح لكل شيء *ignoble factatum*. ويبدو أن هذا الاحتياط يتم

¹⁶ - إن المفردة لا يشترط بصر الطالب، وسواء كان حرد عشر سنوات أو أربعين سنة، فهو يظل دائماً تلميذاً، طالما لم يتم، ولا يلق هذه التسمية إلا عندما يصبح أستاذاً أو عدلاً أو عند توكفه من متابعة الدروس

لغته للحفاظ على حفة الشبان لبناء الأعيان. ولم يخرج درويش عن هذه القاعدة، فقد جلب معه من كلمة، غلاما لولاه لما سمح له المقام بالبقاء بالمسجد والاستقامة من دروسه.

وسامم وجود معشر الشعب والقصة الذي كان الأهالي عاجزين عن استخلاصه، في ميلا حتى قبيلة cabelistique في القبيلة، سيظهر الدرويش نصه بتأثيرها عليه. في تلك المنطقة، سيتعلم تلك القرع من السحر الذي يدعوه العرب " الخفطاطيرا Khar'zira "، وهو نوع من اللعب السحري يتم فيه تحويل الأشياء. ويؤمن المغاربة ومسلمو وهران كثيرا بالخفطاطيرا، وقد أكد لي أشخاص موثوق بهم، بأنهم رأوا بأن أعينهم محاولات مذهبة تمت في حضورهم. مثلا، يأخذ السحر لورقا بيضاء ويضعها تحت رداءه، ويتلفظ ببعض قصص السحرة ثم يرفع الرداء، فيتحول الأوراق إلى إسفنجة أو فطر يتعين الإسراع بأكثها، لأن هذه المنتجات تبدأ لتفسد، في العودة لحالتها الأصلية. ويمكن للفرد الأوراق، وبإرادة السحر، أن تتحول إلى قطع ذهبية أو فضية، وسيكون وجودها زائلا مثل الفطر في حلة إذا ما لم يتم صرفها. هكذا، سيبدأ السحر في تلك الأوراق البيضاء بدل النقود الذهبية الجميلة التي وضعا للراحة في محفظة أو صندوق. وسأكتشف هنا سر " الخفطاطيرا السحرة "، التي أهدوا إلى محبي المعارف الفلسفة، وأخبرهم بأنني أقدر على النص العربي للصيغة القبلية، وهو رمز تشارنيم. وإليك الصيغة السرية التي كنت بترجمتها: " خلوا سبعة من رؤوس الخفافيش وسبعة من جلود القطبين وأحرقوا كل ذلك. خلوا سبع قطع من الدهن المستمد من نيس أسود، اسحقوها واخلوا سبع قطع من قشبة Abu البيضاء، اصفوها بلبل ماء الفرس. طمروا كل ذلك، بلبل ركام قديم من زيل البسطة يرجع تاريخه إلى ثلاث أو أربع سنوات، ثم أفرجه بعد مرور واحد وعشرين يوما. ضعه بعد ذلك في صندوق ستسكون به أثناء الصلاة. آنذاك، تطلقوا فجأة نغمة التي يجب حفظها عن ظهر قلب وهي: يا ابن أبنائك، يا ابن أبنائك، أظهر معجزتك.. أين هو سيد السحاب؟ أين هو الملك الذي توج رأسه بتيان بمكة رأس والذي يحتوي فيه كل رأس على ألف وجه وكل وجه على ألف ثم وكل ثم على ألف لسان وكل لسان ينقر كلمة الله بألف لهجة مختلفة.. أين ثنين، ششوشين، كحوشين، لوشين، كحوشين، إولوشين؟ بسرعة.. بسرعة.. خورا! خورا! سرعوا! سرعوا! استخدم هذه الأسماء في تحويل هذا الشيء (بأن نقر اسم الشيء موضوع التحويل). أين هو العهد القديم بينكم وبين سليمان بن داود؟ سرعوا قبل أن تسقط عليكم الصاعقة.. نطلبوا إلى ما أمرتكم به. بركة الله عليكم .."

إن المغاربة هم أكبر الفجائيين في العالم الإسلامي. فهم يستطرون بسهولة مذلة إخوانهم في القلة وكذلك مذلة الكافرين. وكما من الأوروبيين وحتى من الفرنسيين، كانوا ضحية هؤلاء

المكتشفين للكنوز والعازفين الذين يحقون اسم الرائي أحياناً، معجزات تؤثر بقوة على المعتقدات
المهذوزة لأولئك الذين يتجذرون إلى حيلهم " السحرية " ..

إن جبال تاغزوت شامخة، بحيث تتولد القلوج في قسمها أثناء فصل الشتاء. وفي الأمكن
المظلة للوديان العالية، تظل القلوج قائمة في عز الصيف. وعادة ما يجري نهر تاغزوت ورلاءه
نهر بني بوشيت، أسفل الجبال، داخل ودان صيقة وضيقة. وبسبب القنرات المعدنية لبلدهم، فإن
أعالي تاغزوت برصون بأن قهيلتهم كانت هي المنجم الذي ينبثق منه كل النوع الإنساني. وفصلاً
عن ذلك، فإن تاغزوت، تعني في لهجتهم، المنجم والمكان المتوفر على كل شيء. وتخصص في
هذه القبيلة حوالي خمس وأربعين قرية، تتضمن كل واحدة منها في المتوسط مائة منزل.

القرى الرئيسية بتاغزوت

- أيت علي (أولاد علي) : 300 منزل؛
 - زاوية سيدي محمد الأخضر¹⁷ ؛
 - تازروت (التسمية أمازيغية) : (الصخرة الصغيرة)، 100 منزل؛
 - القلعة (التسمية عربية)، 100 منزل؛
 - القوي العسكرية: 8 ألف رجل من المشاة؛
 - العدد المحتمل للسكان: 40 ألف نسمة.
- ولا توجد بها طرق، بل فقط مسالك للبخال. التعليم الابتدائي قليل الانتشار. وفي سنة
1893 كان القائد هو المسمى : محمد الأخضر.

¹⁷ - تنطق إسلوش (التسمية أمازيغية) في الملتقى التي تتحول فيها الراء إلى لام : إسلوش، جمع إسلوش،
وتعني المبروك.

قبيلة بني بونصر

(أبناء قنصر)، (التسمية عربية)¹⁸.

تحد غربا بتاهروت (الريف) وجنوبا ببني بوشيت (جبلة) وشرقا بزرغت (الريف) وشمالا ببني غنوس (الريف). وتبعد على عشر كيلومترات طولا ومثلها عرضا (ربع يوم مر المشي في كل الاتجاهات). وتشغل مع بني غنوس وبني سودات أعلى قمم جبال صنهاجة بالريف. كما أن القلوج التي تتسلق بكثرة على هذه القمم، تجبر الأهالي على السكن داخل بنايات وبلاطة وضخمة. وتوجد القرى في قلب الغابة. ويكون فصل الصيف معتدلا وعلولا بل باردا أحيانا، إذ يضطر الأهالي في لوالي شهر يوليوز إلى إشعال النار للتدفئة أما المياه فهي موجودة في كل مكان، في الينابيع والجدول. وعلى قمة جبل الأرز، يبدو المنظر البهي لقرية تدميت ذات الخمس مائة منزل تقريبا. وقد أدى منبع وافر المياه وسط البلدة إلى انبثاق واد تدميت. وجبل الأرز شاهق جدا وهو مكسو بغابة من الأشجار، نجد من بينها لشجار الأرز الثمينة. وتكثر على جنبته الكروم وأشجار الجوز وهو يمتلئ تحت شطاء نباتي أخضر. ونجد في القبيلة الكثير من قماز والأبقار. أما الزراعة الرئيسية في الأودية، فهي زراعة القنطي (وهو نوع من القبر الأبيض) والحمص. ويستهلك الأهالي بكثرة، الفواكه الطرية للأرغال Argal. وهذه الأخيرة هي شجرة بحجم شجرة القسطن، وتشبه فاكهتها الفول السوداني، بحيث يتم طحنها ويستعمل الدقيق المحصل عليه، في صنع الخبز والكسكس والرمونة (الدقيق المستمد من القمح المحمص والذي يبل في الماء ليؤكل) والحريزة (التي تطبخ بالقليل والنوم). وفاكهة الأرغال سوداء، شديدة الحلاوة. وأغلب البساتين مكسوة بالعسل والنرة والفلل والقطون.

وكتجار متجولين فإن أهالي بني بونصر يبيعون في تجوالهم، الجوز واللوز والمغازل والقطران والزفت إلخ... وقد يقاضون هذه المواد بالمصوف.

وما يصدرون أيضا " الصامت "، وهو هلام العنب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف هذه الفاكهة، ونظرا لقساوة الطقس، فإن العملية تنسم بالمصوية. ونرى في كل القرى قنورا موضوعة خارج المساكن، يتم تمصير هلام فيها. وإليك الوصفة: يصبر العنب للنضج ويطحب المصير الموضوع في القنر، ثلاث مرات، وبعد كل طبخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد

¹⁸ - بلما، أنا لمألف هنا على التسميات المحلية دون تصحيح ما يمكن أن يختار خطأ بالنسبة إلى القوم العرب. هكذا، فإن بني بونصر يجب أن تكتب بالعربية القصص: بنو أبي نصر. وأنا أقدم هذه الملاحظة للمرة الأخيرة.

ذلك وينجز الهلام حينما يصبح المحصور الذي خفض إلى القلثون بفعل التبخر، مضطرا وحلوا كالصل. لذلك يمكن في جرات كبيرة ويحفظ به إلى ما لا نهاية. ويؤكل هذا الهلام بتكويبه في الماء. ويستمتع الأطفال كثيرا بشرائح الخبز بالهلام الخالص. أما الصامت المسكر *enivrant* وهو نوع من الهلام المؤذي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. ويستهلك الصامت الكموي بكثرة عند جباله.

إن الصوف الذي يتم جلبه من طرف الهاعة المتجولين، يستخدم من طرف النساء لصنع الجلابيب التي تباع في أسواق القبيلة. ويقوم الرجال من جهتهم، بصنع البارود والرقاصات ومقاييس البنادق المصنوعة من شجر الجوز. ولهذا سموت الجبال الصنهاجية بالريف " صنهاجة السرا " أي صنهاجة خشب البندقية. وليس أمالي بني بونصر جلابيب مخططة بالأبيض والأسود، أما النساء فيلبس الحايك. ويتكلم جميعهم الأمازيغية، وتحديدًا تمازيغت لقة. ولا تتحجب النساء فأغلاكيين طيبة. ومن القواني يشتغلن بالفلاحة ويستخدمن المعاول، لأنه يستعمل في العديد من الأماكن، حرث هذه الأرض الوعرة. كما أنهم يحصدن ويمارسن البستنة ويمن برعي الماشية، وبالتالي يجد الرجال أنفسهم في راحة تقريبا. وتنتزع قبيلة بني بونصر إلى ثلاثة أقسام وهي: الربيع القوقلي¹⁹، بني حماد وتمديث. ويمكن لكل قسم أن يجد 500 رجل من الماشية، وهو ما مجموعه 1500 رجل بالنسبة لكل القبيلة. وتتوفر هذه الأخيرة على الكثير من الطرائد وعلى بعض الحيوانات المتوحشة. ويأتي عرب الداخل عند بني بونصر لمقايضة زرعهم بالجوز والوزر والحب والشعير والقمح الهندي للتخزين. ونجد في القبيلة أيضا الكبار *calpres* والفزعر *thym* والمرمل *Peganum harmala* وفليو *pouliot* والبطاطس.

ولكل قبيلة رعية فاضية، ويقتصر دورها على تكبير محاملات أفرادها. فهو يمرر عقود الزواج والبيع والطلاق ولا يهتم أبدا بالمحالة الجنائية في بلد لا توجد فيه أية سلطة محترف بها. وسنحدث فيها بعد عن التنظيم الإداري لهذا الشعب المتمرد.

وهناك أمر غريب، وهو أن الصابون غير معروف عند بني بونصر، لأن القبيلة غنية بالطين المنظف للثياب *Terre à foulon*، وهو نوع من الطين الأبيض الذي يكون رهوا ويريل الأوساخ عن الفضل بشكل جيد. وتوجد كل قرى بني بونصر وعددها 50 تقريبا، على جوانب واد تمديث وواد تاغزوت. وهناك فسمات كبيرة بين المنازل، كما أن عدد المساجد كبير، وهي تستعمل كمكان إقامة للغرباء والطلبة الذين يحظون بضوافة محالفة وطيبة.

¹⁹ - بني الربيع القبيلة في الدارجة المغربية. وهذه الكلمة المعروفة بالقوقلي والتمثلي، تشير إلى أن الأمر يتعلق بالإسم الحقيقي لهذا القسم من القبيلة، الذي لنعمل على معرفته.

القرى الرئيسية لبني بونصر

- تهرقت (التسمية أمازيغية / عربية)، 300 منزل،
 - تلميث (المصاء) (التسمية أمازيغية) 500 منزل،
 - يزازن (القفرون) (التسمية أمازيغية)، 300 منزل.
- القوة العسكرية: 1500 من المشاة؛ عدد السكان المحتمل: 7500 نسمة والبلدة جبلية بدون طرق وتحيط بها الغابات من كل جانب. ولها نفس قائد القبيلة السابقة. أما التعليم الابتدائي فهو قليل الانتشار، وبالمقابل ففي الاغنيالات كثيرة في تلك الربوع.

القبيلة بني خنوس

(أولاد الخنزير الصغير)

إن هذه القبيلة الموجودة فوق قمة الجبل، لا تتلقى أبدا زيارة الغرباء، بل يقال في القرية، بأن السلطان يجهل وجود بني خنوس. ففي كل مكان، توجد صفور ضخمة ومنحدرات جبلية خطيرة وغابات شاسعة وقطعان من القردة.

وحيثما وصل الدرويش عند هؤلاء المتوحشين، أحبط من طرف الأهالي وتم حسه وتقبضه بنقطة، لكنه لم يتعرض لأي أذى. وقد تم حمله إلى جحر يستخدم كمسكن وحصل على مئات الحبات من القلوب الطلو كتحذية. وبينما كان رحلتنا بمضيق هذه الثمار بصعوبة، نظرا لصلابتها، دخلت عليه مجموعة من الخنازير الأليفة وهي تصدر أصواتا مزعجة، تحمل دلالة مع تلك. وبقفزة واحدة وقف الدرويش واضطر رخصا عنه، إلى التخلي لضيوفه الجدد عن الجزء الأكبر من الثمار التي لم يجد الوقت الكافي لأكلها. وسلاحظ بأن هؤلاء الأهالي القوي القورع، يربون الخنازير مع الماهز. ويحش الجميع في نفس الكهف، في غابة الاستجمام، بما في ذلك رب الأسرة الذي يسن بفعلية، وبواسطة ثمار القلوب، هذه الخنازير الصغيرة التي يستطيرب لها المسلوب. إن الفرد من بني خنوس لا يفاخر غابته أبدا. فهو يزرع للاستهلاك الخاص، أنواع الكرنب والفشوق والكهف. وبهذه القبيلة الرحبة التي لا يجرؤ أحد على المغامرة بزيارتها، سقط تلج عزيز. هكذا، وبعد قصصه لثلاثة أيام بين هؤلاء المتوحشين، سهرح الدرويش بالانتماء منهم، وقد اشمل منهم ومن طعامهم الرديء. فهو بقي بين ظهرانيهم تلك المدة ليتأكد من أن

لهجنهم هي تامازيغت ولي قبيلتهم تمتد على عشر كيلو مترات طولا ومثلها عرضا ولها لتضمر
 لسمين: فواد وثارروث (الصخرة الصغيرة) وما مجموعة خمس قرى. أما قوتها العسكرية
 فتتحدد في ألف رجل من المشاة. ولا يوجد فيها أي مقطم أما مسالكها فهي وعرة جدا ولا توجد
 بها أية طريق.

20 قبيلة بني سادات

هي قبيلة صغيرة تمتد على 10 كيلومترات من جميع الجهات. وتحد شمالا بمتوة
 وجنوبا ببني غنوس وشرقا بررقت وغربا ببلقوم جبالة. وتوجد ثلاثة قسام بالقبيلة: لكرار
 (الجبل)، إيفلوشن (المباروكون) ولزيلة. وفي المجموع هناك ستون قرية في كل واحدة منها
 مائة منزل تقريبا. وهي بلدة جبلية بشكل كبير، تحيط بها الغابات والمنحدرات والشلالات
 والجداول من كل جانب. وتكون مكسوة بالثلوج في فصل الشتاء. لذلك، فإن الأهالي يدخرون
 المذونة عند نهاية فصل الربيع وفي الصيف. وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية الخريف، مما
 يجعل العمالك غير مستصلحة. وتوجد فيها الطرقات بكثرة، وهي تشكل الغذاء الرئيسي للسكان ويتم
 الحفاظ عليها لمدة طويلة. ومن بين حواصلها البرية نجد الفهد والضبع والفخزير، وغلبا ما
 يتخذى الرعاة بهذا الحيوان الأخير. ويستخدم البلوط الطو والأرغال في صناعة الخبز. كما يوجد
 الفسل بكثرة، لكن مداه مر، لأن النحل يلقح أزهار بختينو bekhnenu (بلغة تامازيغت) لو
 لاسلو (بلغة زولوا). وهذا لا يمنع الأهالي من التلطف عليه. وتوضع خلايا داخل المنزل
 بسبب قساوة الطقس.

وما إن نصل القرويش إلى أراضي بني سادات، حتى يادره شيخ التقى به في الطريق
 بالقول: " يا صاحبي، إنك هنا في بلاد القسبة. فلا تقل لأحد بأنك جئت من تاغزوت، لأنك ستقتل
 حينئذ وستجرد من امتعك ". وفترق الرجلان ثم استمر القرويش في مشيه. وفجأة شاهد بالقرب
 منه مجموعة من الأفراد مستقلين على الأرض، صائتين ومصوبين بأنفهم نحوه واعتد في
 قبلية بأنهم رعاة. وسيتوقف أحدهم موجهها إليه الحديث بالأمازيغية.

- iouachou ou territ fellanegh esselam ? (لماذا لم تسلم علينا؟)

20 - أصل الكلمة مشكوك فيه. وقد قيل لي بأن هذه القبيلة سميت كذلك، لأن قتلح والضباب يحيطان بها ويسدانها
 من كل جانب. وإير، فإن سادات هذه الكلمة العربية الممزقة، سحرت عن الجذر سد بمعنى أغلق وأغلق بشكل مريح.

- الدرويش : a ouhidi. our zrir' had (باعزيري إني لم أر أحدا)

- الرجل : anisik kedj ? (من أين أنت ؟)

- الدرويش : Nekki d akthami (أنا من كتامة)

عند هذه الكلمات وقف جميع الرجال سائمين : kedj d'athar'zouthi (أنت من

تاغروت) . وقال له الشخص الذي يبدو هو الرئيس :

- Tikhret fellas. Aih k'echchether'. Itskaddib ! Netta d'azouggar' .
Aih tar'zouit d'izouggar'en am netta.

(ابتعدوا عنه . سأسلبه أمتهته . إنه يكتب .. فهو أشقر . وكل أهالي تاغروت هم شقر

منه) . ومضيف : " اخلع ملابسك يا ابن النصارى " .

بعدها ، موصوب بندقيته نحو الدرويش صارخا : " ألم تخلع ملابسك بعد ؟ " وإن يسمع

محمد أكثر من ذلك . فقد ألقته يد قوية أرضا وجردته برمشة غير من كل ملابسه . وقد فقد من

جاء ذلك ، جلابتين وزوجا من النعل ولربعين سفنجا وغطاء رأسه ، أي أربع أو خمس طوالي

بيضاه موصوعة القواعد فوق الأخرى ومخاطة بمسامة . لكن السؤال هو : لماذا كان كلسيا بهذا

الشكل القاهر ، وهو الذي كان يسافر عادة بأسمال بالية ؟

وقد طالب الدرويش بتعليه لكن دون جدوى ، ولم يترك له سوى لمبصه . ولما ألح على

استرجاع النعلين (لأنهما كانا جديدين تقريبا) ، قيل له بقسوة : Sousem a ner' ak ner'tes

(أسكت ولا نهضك) .

ويكون الهواء في هذه الجبال الشاهقة باردا ، كما تهب رياح قوية جدا . وقد أحس

الدرويش الذي ترك لحاله قميص من القطن فقط ، بالتأثير المزملم لرياح الشمال الباردة ، حيث

بدأت أسنانه تصطك بفعل ذلك . وظل يمشي حله ينفأ قليلا ، دون أن يدري أين توجد قرية تزمننت

التي يقصدها ، وعندما سأل أحد الرعاة عن موقعها ، كان الجواب هو : " اتبع نفس الطريق . وعندما

تصل إلى قمة الجبل ستري القرية . لكن احتط من القتلج فهو يوجد بكثرة هناك " . وفي الطريق ،

التقى محمد براع آخر يمشي ويحزف على قمة الصنوجين فسأله : " هل هناك تلج على الطريق ؟ "

ولأن الآخر شخص ماهر ، فقد لفتأ أن يخدع هذا الرحالة صاحب القميص وقال له : " كلا ،

كلا ، لا يوجد هناك تلج " . ومستمع الدرويش في صعود الجبل مطمئنا إلى كلام الراعي . وعندما

وصل إلى قمة الجبل ، رأى بأن الجانب الشمالي لهذا الأخير مكسو بقتلج عن آخره . ومن المؤكد

أن تزمننت توجد عند السفح في حلق أحد القديان . لكن كيف السبيل إلى اكتشافها وسط الأشجار

وهذا الرداء الأبيض الناصع ؟ وبدأ الهبوط وكما تقدم في المشي غاصت رجلاه في القتلج . ولكنه

كان يرتدي قميصا فضفاضا ، فقد كاد أن يموت من البرد . وكان يمشي بحذر مخافة السقوط في إحدى

الهلويات ولم يكن يعرف مكلل وجوته وبدأ يبأس من قنجلته، أنذاك سمع نباح كلب. ويبدو لي هذا النباح كال صائرا من عرق الوادي الذي لم تشكر عيون الدرويش المتعبة من رؤيته على بعد مئات الخطوات منه. وكان اللون الدكن للأشجار واللون الأسود للأرض يشيران إلى أن القلج لم يعد موجودا بهذا الوادي المسجد والمستنق الذي يتحور بلوغه قبل حلول الظلام.

وسيقود الرحلة بمجهود أكبر. عندما شعر بأن الأرض المبللة، هذه الأرض المرهوب فيها لتي تحصر عينا القلج، قد أصبحت صلبة تحت قدميه وهو ما كان يتطام منذ ساعات. وفي نفس اللحظة يظهر له بعض المنازل المنعزلة وسط أشجار عذبة. لقد كانت تلك هي ترحميت وما هو قد بها. وجر قدميه إلى أن وصل إلى باب المسجد حيث سقط منهوكا. وقد دعش طلب كل خارجا من المسجد، من رؤية شخص بقميص واحد في هذا الطقس البارد. وعلى الفور، سيرجع إلى المسجد وسيلقي رفاقه قائلا: *Aouith ed timessi . As mud del tafgirth adizzizen* (اشلوا النار. سحصب له شطة بتفأ بها)، وقمعه كل الطلبة في العمل. وبعد قليل اشلوا بارا عظيمة من خشب قبلوط متسام حرارتها القوية في إبعث الدرويش المسكين بشكل أسرع مما كان يريد. لقد تم تقريبه كثيرا من النار إلى درجة أنه كان يحرق حيا بعد أن كان يسموت من البرد. وسيتذكر هذا اليوم العسير أثرًا لا يمحي من ذاكرة محمد. وحتى وهو يروي لي هذا الحدث، كانت أسنانه تصطك وكان يلحن بقوة من سألوه أمتعه والقاضي المنحوس الذي دله على الطريق.

هكذا، سيحيط طلبة ترحميت بـمحمد، وعندما رأوا علامات الانتماء بلدية على وجهه أنخلوه المسجد. وستوضع أمامه سلة صغيرة مستديرة من القوم، مليئة بالبطوط المشوي والسلمون. وبعد ذلك، سيقدم له صحن مليء بأناسو المفلن بالملح والهندية المشوحة والصل الحاد المنق والرامبو (ثمرة الأرزال المشوية) والشتي (الزرع الأبيض) والفول والمرغو. وسيلتكم الطلبة طعمه، حيث سونغسون أصابعهم في الصل ليضعوها بعد ذلك في الزميت (الفلفل المشوي). وبعد الانتهاء من الأكل، ستقدم لـمحمد أكلة ملاكمة وسيعبر له ركن بالمسجد القوم الذي سيخلد له الجميع.

وفي الصباح، عندما استقر الدرويش عن مكان إقامته، كان الجواب كالتالي: ' إنك توجد في بشيرة (قرية) دروتان المسماة أيضا ترحميت. وبما أنك شرقي (من الشرق)، فأنت مطلب قبل الذهاب إلى أي مكان آخر، بزيارة قبر سوي محمد نجيمون، أشهر ولي في بني سيدات، وهو مدفون في قلب الغابة، وكان يعيش في القرن التاسع وحقق العديد من الكرامات '.

لا نفسي، في هذا الإطار، بأن المغرب ملاد حفنة الرسول محمد (ص)، هو الجزء من
العالم الإسلامي الذي يوجد به أكبر عدد من الأولياء. وتستدعي سيرة كاملة لحياة الأولياء، عمر
باحث وخمسين مجلدا in-octavo .

ومن بني سيدات، يمكن الإحاطة بالبحر الأبيض المتوسط الذي تظهر صفحته الزرقاء من
بعد. ويعتقد أهالي هذه القبيلة جازمين بأن كل سفينة مسيحية تمر على مرأى قبر سيدي محمد
دجيون، الموجود على الجانب الشمالي من الجبل الذي يقابل البحر، تنكسر وتهدم وتغرق في
بضع دقائق.. وهناك كرامة أخرى لهذا الولي: ففي أحد الأيام، جمع حيوانات الغابة المتوحشة
وخاطبها قائلا: " لا أريد أن يصبح أعزائي من بني سيدات وقتهم في حراسة مواشيهم. وستذهب
لماز والأبقار والحمير والبهال إلى الغابة بدون حارس، ويمنع عليكم مهاجمتها وأكلها ". ومنذ
تلك الفترة، دلت المواشي على التجول بحرية داخل الغابة في أمان تام. وعندما يقبل الليل، تعود
إلى منازل مالكيها. وتشكل الأبقار استثناء لهذه القاعدة، فهي تعيش في حالة توحش إن صبح
الغدير، في الجبال؛ لكن حينما يريد الأهالي استخدامها أو بيعها أو أكلها، فإن قبض عليها يتم
بسهولة. ولا تمتلك القبيلة جهادا، لذلك يتم إخصاب إناث الخيول عن طريق جواد مستقدمة من
المناطق المجاورة. وتحكي أسطورة أن ابن لوي، الراغب في عصيان لوامر الولي، أراد مهاجمة
معة سيداتية، وحطى القور، أحاطت به القطعان من كل جانب، وقضي عليه بضربة قرن مميتة.
وقبل موته، أمر الولي المبارك سيدي محمد دجيون أتباعه بإقامة عدة (حفلة إحصائية) كل
خميس قرب ضريحه. وإذا ما كانت هناك كرامة، فإنها تتمثل في اتباع السيداتين بدقة، وإلى
يومنا هذا، لأوامر السيد. ويستغل الدرويش أحد أيام الخميس لريلة الولي، وأثناء دخوله
الضريح سيدهش أمام بقاء العظام وزخرفته الداخلية، العدد الكبير من الرلزين الحائليين مهم
أضحياتهم. ويلج الأمازيغيون الضريح وهم منججرون بفسلاح كالجنودا بهلايتهم السوداء
والقصيرة التي تصل إلى الركبة وسراويلهم الضيقة التي لا تتجاوز الركبة أيضا. ويضعون
لشرطة من شعر الجمال حول رأسهم العازي ويتوشحون ببندقية بوشلر المستقدمة من تطولي.
تلك هو المظهر المثير لهؤلاء الجبابرة المتوحشين الذين ما أن يدخلوا ضريح السيد، حتى يفرغوا
بنفثهم في الهواء. وبعد كل طلقة يصوح البراح: " مرحبا بالقبيلة قفلاتية " وبعد الريلة يخرج
الحاربون ويتقون بشرقة أمام مدخل الضريح ويخرجون سكاكينهم الحادة من أعينهم ويشرعون
في ذبح أضحياتهم التي يسيل دماها سلخا على الأرض، مرددين العبارة الخاصة بهذه المناسبة.
لذلك فقط، يضعون أسلحتهم . وبالتكريع، يمثل السوق الذي يقام حول الضريح. ويجب على
الرجال أن يدخلوه بدون سلاح، ولا يستردون بنفثهم الموضوعة داخل الضريح، إلا عند

رجوعهم إلى منازلهم بعد انتهاء الوعدة. وتكون هذه الأخيرة مناسبة لاستهلاك فطوح للكسمر واللحم والبطويات الخ... وبعد القراء الذين تقام الوليمة من أجلهم، متعة كبيرة في ذلك. ومن جانب، فإن الدرويش الذي تستهويه الأطعمة الفاخرة التي يتناولها بانتظام في صريح الولي، مستطيل المكوث بقرية ترحميت. ولأن زيارته الولي أصبحت متكررة ومظهره الورع أصبح مقما، فقد اقترح عليه بعض الأهالي بأن يكون حارما لذلك المكان المقدس. غير أن قصوده الطبيعى ورغبته الملحة في التنقل منعا من قبول هذه الوظيفة المريحة، مفضلا عليها رغبته في الاكتشاف. وبعد شهر، سيمار القرية، متجولا داخل القبيلة، حيث كان ينام كل ليلة بقرية جديدة، ويتقى في كل مسجد الضيافة التي تعتبر واجبا مقدسا لدى كل سكان المغرب. وفي هذه المنطقة، يصود الأمل نسبيا. فالسيداثون هم أناس مسلمون، لا يكذبون إلا نادرا ولا يمزحون أبدا. وهم متفهمون حول ذواتهم، لا يريدون زيارة جيرانهم ولا أن يقوم جيرانهم بزيارتهم. ولأنهم بعيدون عن الساحل، فإنهم لا يعرفون التصدير ولا الاستيراد ويجهلون كل أنواع السكريات والشاي والقهوة والسكر والقلنيات الأوروبية. ففي هذه المنطقة لا يعرف اليهودي ولا النصراني. والزراعة السائدة لديهم هي زراعة القطن والكيف والنشوق. ويستهلك الأهالي الكيف والحشيش، وأيضا الأفيون ونبتا يدعى الكبار²¹، يتوفر على خصائص مخدرة. ويدخن النساء الكيف مثل الرجال ويرتدين ملابس صوفية. ويتشكل الطعام الرئيسى للقبيلة من قبيصار²² والكسكس بالبول والقمح والحبلة (البزلاء) وقشرة شجر الأرز التي يشبه مذاقها، لحم الحيوانات، عندما تطبخ بشكل جيد. ويحضر الحارون طعاما مرغوبا فيه ويؤكله الرعاة للهموم، نبتا، بمعدة البلوط الذي لا يقشر بالكامل.

وفي إحدى جولاته، فوجئ محمد بن الطيب برعاة لحواك الطفس والخبثا تحت شجرة بلوط *quercus ballota*، غير بعيد عن حظيرة يرتفع منزل وسطها. وكان الثلج يتساقط بكثرة وبدأ يغطي جسد الدرويش. في تلك الأثناء، خرج شيخ من ثقب بسياج الحظيرة وسأله بتمازيغت: *Manis tchouchedh* (عن أي شيء تبحث ؟) وسجبه الدرويش: *k'imer* oua ha (إنني جائع هنا فقط). وسيتم الحوار التالي بينهما، وهو الحوار الذي أترك للدرويش مسؤولية نقل اللهجة السيدقية الخالصة التي تم بها.

- الشيخ: *stad'fedh r'er taddarth innou ?* (هل متكل إلى منزلي؟)

21 - وهي كلمة شبيهة بكلمة كابر *capre*، لكن الأمر لا يتعلق بشجرة شجر الكبار.

22 - فطر مؤلفا من أصابع القليل الكبرى، الجزء الثالث، الأسطورة 23 والتي التي استشهدنا به وهو: *irouh* ad immas ad' icich abicar وملحوظا بخصوص هذه الكلمة.

- الدرويش : in llah (هو بنا) . وسيفتلي الدرويش خطي الشيخ ليدخل معه قبيلت، حيث سيجد الأسرة منشطة بشي القناظ والأراشب (insyin d'iouthal) وسيشركهم طعامهم وعند الانتهاء من الأكل خاطبه الشيخ : Ekhser' akoucher' illi , m'ana anisik chekk ? (إني أريد أن أهديك ابنتي، لكن من أين أتيت أنت؟)

- الدرويش: Gelh' akama ouroumi (من أراضي النصراني)

- الشيخ: tājiben yi medden enni (هؤلاء الناس يجهلونني)

- الدرويش: Mar'er ? (لماذا؟)

- الشيخ: L'kloud enner' d'ifranciym (لقد كان أجدادنا فرنسيين).

وإثر ذلك نهض الشيخ وأخرج كتابا من داخل صندوق وعرضه على الدرويش قائلا:

- lektab agi fellas arba lek'roun , thira ines tafrancist. Tamourth a n aith seddath oufrancis; H'acha souffer'en ien aith Merin d'auth ouattas. Ina ik'amen d'ououlen d'imselmen.

(هذا الكتاب عمره أربعة قرون، وهو مكتوب بالفرنسية، وقد كانت بلاد بني سادات

هاته، بيد الفرنسيين لكنهم سيطرودون منها بواسطة بني مرين وبني وطاسا والذين بقوا منهم أصبحوا مسلمين)

وإذا ما صدقنا محمدا، فإن شعورا بالتماطف ينتظرونا في هذه القبيلة. ولنا الفضل

تصديق ذلك، بدل الذهاب بنفسي للتأكد من هذا الأمر. ولم يفكر الدرويش الذي انفصل عن

علامه منذ زيارته لقبيلة بني بونصر، في مسيرة مشروع لزواج المقترح من طرف الشيخ.

لقد وعده بالرجوع، لأنه لم يجرؤ على رفض هذا الاقتراح. وسينوغل في الغلبة، كي لا

يظهر مرة أخرى أمام هذا الصديق والحميد المرحوم الفرنسيين.

القرى التونسية لبني سادات

- تدارث (الدار)، التسمية أمازيغية، 50 منزلا، محاذية لنهر أزيلا

- إخمليشن (القباركون)، التسمية أمازيغية، 100 منزل، قرب نهر أزيلا.

- قزاوية، التسمية عربية، 50 منزلا، على نهر أزيلا.

- تيزلميث (الحزمة)، التسمية أمازيغية، 50 منزلا على نهر أزيلا.

- الخميس، التسمية عربية، 20 منزلا.

- القلعة، التسمية عربية، 10 منازل.

- سيدي بالقاسم، التسمية عربية، 50 منزلا.

القوى العسكرية 2500 رجل من المشاة، عند السكان المحتمل 12500 نسمة. المسالك خاصة باليمنال. البلاد مليء بالمنحدرات ومغطى بالغابات. التعليم القرآني منتشر بما فيه الكفاية. في سنة 1893 كان قائد القبيلة هو سي محمد أخمريش. وكانت القبيلة مستقلة تماما .

القبيلة مثنوية

(الضخمة) - التسمية لمأريضة -

يمكننا أن نتابع على الخرائط مسار الدرويش خطوة خطوة. فقد نطلق من القبائل الجنوبية الغرب الريفي، متقنا ببطء نحو الشمال، دون الالتفات عن حدود جبلة. وها هو قد وصل الآن إلى القبيلة البحرية الموجودة في أقصى غرب الريف. وتشكل مثنوية الحد الفاصل بين هذا الإقليم وجبلة، ويجب أن يكون هذا الحد متماسكا، لأن البلاد يتوفر على جوانب ضعيفة خصوصا بالساحل. وبالفعل، فليس هناك أي حاجز طبيعي من جانب البحر، بين غمارة ومثنوية. لغمارة، هذه القبيلة الجبلية القوية، الأكبر من مثنوية مساحة وسكانا، تهاجمها من حين لآخر، مما يضطر المثنويين للإستعانة بالمقاتلين الريفيين المدركين لمخاطر هذه الهجمات.

ونملك مثنوية على ساحل من عشرين كيلومترا، وتتوغل جنوبا على مدى يوم من المشي (أربعين كيلومترا). وتحد غربا بغمارة، القبيلة الجبلية، وشرقا ببني جميل (الريف) وجنوبا ببني سادات (الريف) وشمالا بالبحر الأبيض المتوسط. وتشتمل على خمسة أقسام هي: أيت محمد على جانب البحر بمحاذاة غمارة؛ تيثولا (الحضر) المؤدية شمالا إلى البحر وعلى مستوى الجنوب الغربي إلى جبلة؛ أيت جد الله، وهو قسم بحري أيضا بحادي بني جميل؛ بني علي بالموسط ثم الربع الفوقاني بالجنوب. ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام أن يجند 1200 رجل حامل لبنكية، أي ما مجموعه ستة آلاف من المشاة بالنسبة للقبيلة كلها.

ولكونها تشكل الحدود الغربية للريف، المنغمسة في البحر الأبيض المتوسط، فإن مثنوية تكتسي أهمية خاصة. فهي تستخدم فعلا كحجر بين الريف وإقليم جبلة. ولا يمكن لثلاثها القبيلة الارتفاع، أن تشكل حلزوا في نفس أهمية الجبال الشاهقة لقبائل الريف الجنوبي. فسر هذه الطريق أو من خلال القبائل البحرية لشرق الريف، يجب أن تتغلغل فيالق الجنود التي تريد احتلال الريف. فالحاجز الكثيف من الصبار الذي يبدو أن مثنوية وضعتة قصدا بينها وبين جبلة، لا يشكل سدا مئيعا بالنسبة للجيوش الحديثة. لذلك فنحن سنصيب إذا ما قمنا في البداية بإخضاع القبائل البحرية وبعد ذلك بمحاصرة سكان الريف الجنوبي داخل جبالهم. وطبعاً، فإنهم سيظهرون

مقاومة شديدة في حصنهم الطبيعي المشكل على طول الخط الجنوبي، من سلسلة جبال الأطلس المنيعة.

وقبل أن يفارق مضيقه بنزواتن، تلقى محمد منهم جلابة من الصوف وزوجا من الفحل الجديد وحائكا وشيئا من المال يقرب 2,25 فرنكا. وسيقوم بجولة طويلة بالقبائل المجاورة لجهة الشمال ليرجع إلى الزيف، فلحفا من قبيلة غمارة الجبلية وغيرها قبيلة متينة. ومن غمارة إلى قرية القلعة بالزيف، يشكل السهل من سهل مموج بصخور عظيمة لا يمكن لأحد تجاوز أمواجها الهائلة، اللهم إذا تعلق الأمر بطائر أو بالأرجل السريعة للماعز. وتسمى طريق القلعة هذه: "السلوم". وسيضطر الدرويش الذي ترك عن يساره، ميناء تلكموت الصغير والمعروف أيضا باسم الجبهة، إلى أخذ الطريق المنعجه جنوب ليت محمد، فلحفا من غمارة، ليتقوى الجروف الصخرية للسلوم. وبعد أن سلك هذه الطريق الجبلية، وصل بعد يوم من المشي، إلى قرية القلعة. ويتعلق الأمر بميناء بحري صغير، يعرف في البلد باسم مرسى سيدي فتوح ويقع على جانبي نهر تنفولا حيث يوجد مصبه. وبإمكان البحر الكبيرة الرسو بهذا الميناء. وقد فهم بالقلعة حصن يزود بالمؤونة من طرف قسامة قبيلة متينة. وعشية وصوله إلى القلعة، استقبل الدرويش كالعادة بحفاوة داخل المسجد، حيث وجد الطلبة وبعض الرحالة الغرباء. وهناك انتظر بأناة طول موعد العشاء. ففي المغرب (المغرب) برمته، لا ينحس الناس إلا بعد أداء آخر صلاة في المساء (صلاة العشاء) وذلك حوالي الساعة ليلًا. وما أن نادى المؤذن للصلاة حتى امتلأ المسجد بحشود من الشباب والشيوخ والطلبة والشرفاء الذين جاؤوا لأداء صلاتهم دون التقطي عن بناتهم (كلايط) الإنجليزية المصدر. وهذا المشهد لشعب مسلح بقم صلاته، دفع الدرويش إلى الاستنتاج بأن قلعة غير سائدة بين هؤلاء الفروعين. وسيتحقق من ذلك لاحقا. وبعد الصلاة، جاء الطعام المنتظر محمولا من طرف بعض الرجال الذين يرافقهم حوالي ستين فردا حاملين بناتهم معهم. وقام لصيوف المسجد، الفجاج والسماك والمسل والربدة وخيول قشعرا إذ لا يعرف خبر قمع، فمن متونة إلى نيمور Nemours لا يزرع قمح إلا لملأه، إن لم نقل إنه لا يزرع القمح.

وبعد الانتهاء من الطعام، رجع الأفراد المتون إلى منازلهم، حاملين الصمون الفارغة. ولم يتعدوا سوى ساعة خلوة، حتى سمع دوي ترشق بنيران البنادق. ومع ذلك، فإن نقاشات وضججات ضيوف المسجد، لم تنقطع تقريبا. وسوقول أحد الحاضرين بلوغ من اللامبالاة: "اسموا.. هناك نقاتل بالخارج". وبعد برهة، جاء من أخير الطلبة بلن اثنين من حاملين الصمون قتلا وسط قرية من طرف أعدائهم للشخصيين. فتساقط الدرويش المتعود على المعدات المسلحة للطلبة: "لغة قبيلة حقة يتم فيها الترشق بنيران البنادق بهاته السهولة؟". وسيجيبه أحد

الطلبة: " لكم أنت ساذج (عديم) .. ألسنا في القرية؟ وهل هناك ريفي واحد مات مائة طيبة؟
فكلهم يموتون بفعل الحديد والقار. وتقام عليهم صلاة الجنازة بسرعة، إذ يحزن أحد الأشخاص بل
فلان مات وقد قتله فلان. فلنصل عليه ونطعمه ونزعم عليه ". وسيضيف الشاب المتكلم وهم
بنهم: " طبعاً عدا ما نقوم به ". وبالفعل، خرج الجميع من المسجد بما في ذلك الدرويش وتم
الالتحاق بمنزل القبايل. وكانت مصالحي صحيفة تدير الجنتين اللتين تم غسلهما وتكفينهما بسرعة.
مع ترك قرآن مكتوفاً. وميقتهم أصحاب قبوت الحسل والريدة والخبز للطلبة، كما سيشاركونهم
الطعام دون أن يبدو عليهم أي حزن. وقد سألهم محمد: " لماذا لا تكون ؟ " فأجابوا: " لقد لأموا
بقتل هيرهم ". ومرت الليلة في صلاة وأكل وشرب، إذ لا يعتبر السهر بجانب ميت أمراً محزناً
في كل ربوع الريف، على الأقل بالنسبة للطلبة الذين يجدون فيه مناسبة ممتازة لإشباع بطونهم
مع ربح بعض المستلزمات كالأجر على السور القرآنية التي ترحموا بها على الميتين.

وعند الصباح، غادر الدرويش القلعة باتجاه سوق الاتيين الذي يقع وسط القبيلة بقرية
سيدي إبراهيم. وقد شرع في تسليق مجموعة من الفلال والجمال الصغيرة المطينة بالقرى، تاركاً
قبره وراء ظهره. وعلى مدى البصر يمتد القين الوحشي (خرصوص للصلابي) الذي يغطي
الفلال والوديان بكثافته الخضراء لذلك. ومع ذلك، توجد بعض المسالك الضيقة داخل هذه القلعة
المتفرقة. ورغم أن الفصل كان صيفاً، فإن هواء البحر كان يمتش الجو ويهب دون توقف.
واستمر الدرويش في ترحاله دون استعجال متقلداً من قرية إلى أخرى، دارساً البلد وعادات
وأعراف سكانه. إن أهالي متوبة هم من عرق أمازيغي يتحدثون جميعاً بـتامازيغت ولقبيل منهم
يعرف اللغة العربية. وهم شجعان وميلون كثيراً إلى الاقتتال ويحبسون في استقلال تام. وفي كل
مكان تقريباً، من قرية إلى أخرى ومن منزل إلى آخر، تجد عداوات رهيبة. وفي كل يوم، تسلك
بماء أفراد القبيلة بسبب الاقتتال. وغالباً ما تقتلي شبهاً في العشرين من عمرهم وقد وسعت
لجسادهم بندوب ناتجة عن طلقات الرصاص أو ضربات السكين. ويتميز المنيوي ببنية قوية مثل
خنزير. ورغم حفاظته وطيبته الشرس، فإنه يحافظ على تقاليد حسن الصيالة، بحيث يتنازع
الأهالي فيما بينهم على الضيوف. وقد عاين الدرويش يوماً، معركة منتظمة كالصوب في نشوبها
مسافر أجنبي تنازعت عائلته. وقتل من جراء النزاع ثلاثة رجال واستصحب المنصورون معهم
الضيوف الغريب إلى المصلى الموجودة بعزوتهم. ويطلق اسم العزوة في الريف، على العشيرة
الصغيرة المشككة داخل كل قرية من مدرلين أو ثلاثة منازل متحدة فيما بينها، ولكل هوة
مصلاتها الخاصة بها. وقد يحدث أحياناً أن تتنازع عزوات القرية الواحدة فيما بينها، لذلك فإن
الرجال لا يخرجون إلا ليلاً، وإذا ما ظهروا نهاراً، فإن الرصاص المنطلق من العزوات المجاورة

سوقهم على الفور. بالمقابل، فإنه بإمكان النساء التحرك في الأزقة متى شئن دون خطر على اعتبار أن المهانة القائمة والأبدية تخصهن وحدهن لا غير. وهن يذهبن إلى منابع المياه وإلى كنيسة والحقول دون خوف.

ويضطرب أرباب العلاقات المعرضون لمثل هذه المخاطر إلى تشييل الأجلاب لزرع حقولهم وحراسة مواشهم. ويحظى هؤلاء المرتزقة بالاحترام مثل النساء. ففي متقوة، كما هو الحال في كل قرية، لا يملن رب العائلة عن سفره حينما ينوي القيام بذلك. فهو يسافر غلسة أثناء الليل، متسللا بين الحيطان. وما أن ينفذ القرية حتى يسرع المشي في إخلاء وحتى داخل الغابة إن أمكن. وسيجد نسبيا بعض الأمن عند ما يصل إلى أراضي القسم المجاور، لكن أي أمل؟ فغابة بوندي Bondy، تعتبر مقام السلام والأمن والسعادة، مقارنة بالريف. ولهذا السبب فإن الرحلة عملة نادرة في المغرب، إذ يجب أن يكون المرء مدفوعا بسبب وجوه، إلى مغادرة قريته أو مدينته أو دولته.

وقد تحصل الهندة من حين لآخر بين العزلات والقرى المتجاورة. لكنها لا تدوم طويلا على العموم. وفي متقوة، لا يخشى الغرباء شيئا، إذا ما كانوا يرتكبن ثيابا ذات لون مغاير لثياب سكان البلدة الذين تكون جلابيبهم سوداء أو مخططة بالأبيض والأسود. وهذه العصابة لا تخص سوى الغرباء المقيمين بالمساجد.

وكل قرية أو صديق يحظى بصيالة عاتلة ما، يمكن أن يتعرض للنس المخاطر التي يتعرض لها أفراد هذه العائلة.

والمرأة المتقوية جميلة. وهي ترتدي نوعا من القماش الأبيض يسمى للرهبان وتعمل في رجليها نعالا حمراء وتزين كواصها ومخاضها بقلائد وأسورة من الذهب أو الفضة. وتكتمل هذه الزينة بخرص الأذن الثمينة وذات الحجم الكبير وبناتج مذهب أو فضض وبخفود مثقلة بقطع الفلوز الذهبية أو بقطع من الفضة ويشوكات فضية تجمع أطراف الرهبان على الصدر. ولا تسمى خواتم الذهب والفضة التي ترصع أصابع اليد. وتيومن قطع النقود الفرنسية والإسبانية على الخفود، وبالمقابل فإن النقود المغربية نادرة. ولا تستعمل النساء الحجاب بتاتاً، فهن يخرجن سفرات فوجوه.

وتتزوج الحزوات في سن مبكرة، ما بين عشرة أعوام وأربعة عشر سنة، وهن يكنن أزواجهن ثمنا باهضا نتيجة صفقة مع الأب أو الوصي الشرعي. وتصل قيمة التويحات إلى 500 فرنك ومتوسطات الجمال ما بين 1000 و 1500 فرنك، أما الجميلات فما بين 4000 و 5000 فرنك، إضافة إلى جهاز العروس والحلي. ويطلب الخطيب الذي يكون مرفوقا بثلاثة أو أربعة

لشخص من أقربائه، بد الفتاة ويستقر عن قيمة العور من لديها أو وصيها. وطبعاً، فإن المعينة بالأمر لا تستأجر لها. وإذا ما قبل الطلق، فإن الأب أو الوصي يخرج مع الزوج الموعود وأقربائه، متجهين جميعاً صوب قاضي القبيلة الذي يحرر عقد الزواج. بعد ذلك، يرجع الصليب إلى منزله لتعيين حفل الزفاف. ويقوم، حسب ما تسمح به ثروته، بنسخ ما بين يترافق إلى ست أيلار. وإثر ذلك، تطبخ دجاجة من الكسكس وتسلأ جرات عن أخوها بالصليب وتبين الموت وخالات ولم العريس كروما من " قسمن " (القطار) الفارقة في بحر من الصل. وعندما يصبح كل شيء جاهزاً، يجمع العريس أملي القرية ويدعوم للأكل والشراب. وبعد الظهور، يتوجه مئات من الرجال المسحين بينهم وفد شداوا لعرستهم بلوة، وكلهم ذاهبون إلى معركة، صوب منزل الفتاة مشياً على الأقدام. وهناك يضعون بين يدي لب العروسة، العور المتفق عليه، ثم يضعون هذه الأخيرة فوق بقعة مربعة بشكل أيق ويحيطون بإشارة الانطلاق بطلقات مشتركة من بينهم.

وتوضع الفتاة المصحبة وسط الموكب الصالح الذي تطلق بطلقاته المستمرة، من بعد، عن قرب وصوله. وفي منزل العريس، تبدأ النساء في الزغاريد بشكل قوي عند سماعهن لطلقات القنابل. وما أن يظهر الموكب حتى يصرعن لقاء العروسة، حيث يرافلها من السرج ويرفلنها إلى منزلها الجديد ويمكث معها داخل غرفتها إلى أن ينتصف الليل، لذلك، ينسحبون ويتركها لوحدها. وسواء بإخبار العريس الذي ظل بالخارج، يلهو ويطلق رصاصات بنقته مع أصدقائه، بأن موعد اللحظة المهيبة قد حلت، وتقوم بهذه المهمة الإخبارية، امرأة مسنة مغموصة لهذه المناسبة. إثر ذلك، سيبتد عن أصدقائه طسة، لامتلاك زوجته، ويضع فوراً بنقته بلقمة حدثت لهذا الغرض، حيث سيجلس المومض المتنوع بدوي الرصاص، لسكان القرية. بأن الفتاة لم تعد بكراً. هكذا، سيستقبل الخير بالزغاريد الحادة التي تستجيب لها بطلقات القنابل. وفي الوقت الذي يظل فيه العريس داخل الغرفة، يستمر الضيوف في الاحتفال طيلة الليل حيث يطي الرجال والنساء بالقتال، مخندين أعزاج قديمة ومرتبطين لأخرى جديدة. وتحتار زغاريد النساء الحاضرات، كمكافأة على هذه الأسرار المتقنة. وعند القمر، يرجع الضيوف الذين استأثرت بطونهم إلى مسكنهم مع الاتفاق على الالتقاء في حرس محفل.

طبعاً، فإن زواج الأرملة والمطلقات لا يتم بنفس بهرجة زواج العذراوات، فهو يمر بهونه ويتوضع ويتناسب مع وضع تلك التي فقدت أكبر جزء من قيمتها، أي بكرتها. وفي جميع الأحوال، يتم الاهتمام بطون الضيوف الذين يهرعون إلى هذه الحفلات بكثرة.

وميزة المرأة الريفية أنها ولودة، وغالبا ما ترى امرأة محاطة بسبعة أو ثمانية أطفال، بل يتم نكر نساء أنجب 15 طفلا وطفلة. ويعتبر رجال ونساء هذا البلد الرهيب العقائد المتعددة الأفراد، كمكة إلهية. ولا ينتظر هؤلاء الجيليون الأشداء، كما هو الحال في أوروبا غالبا، أن يكون الرجل قد خارت ثلاث أرباع قواه، ليتم تزويجه. فالريفي يتزوج وهو صغير السن، ما بين 15 و 20 سنة. فأي اختلاف هذا، بين شاب قوي البنيان ومتين كتور، وطالب الزواج من أجداننا من أربعين سنة، والذي يساوي إتهامه الجسدي، انهياره المعنوي.. ولا يحب الريفيون النساء العاقرات، بل يطلقوهن بعد انتظار سنتين أو ثلاث سنوات، مع إظهار احتقارهم لهن. ومن الأرجح ألا تتزوج سيدة الحظ هاته بعد ذلك، فهي تعيش في كنف أبويها اللذين يشبعانها شتما ويخضعانها لأشق الأشغال. ولن يكون مصيرها شبيها بمصير المرأة الأوروبية الكسولة، والقصد بذلك الدعارة. فهذا الجرح في بلداننا المتحضرة نادر الوجود في الريف، إذ لا يمكن للمرأة أن يمزح بشرف النساء هناك.

لقد سبق لي أن قلت بأن كل القبائل الريفية مستقلة ولا تعترف بتاتا بسلطة سلطان فاس. ومع ذلك، فقلعية تتوفر على حصن يتواجد به أفراد من الجيش النظامي وتؤدي الضريبة بانتظام. وهذا هو مجال خضوعها. ولكي لا أعود ثانية إلى هذا الموضوع، سأوضح كيف تختار متيوه وبقي قبائل الريف الأخرى، القياد عندما يستدعي الأمر ذلك.

فالقياد الريفيون هم موظفون غير مستقرين، أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة لوزرائنا، وهم معرضون أكثر منهم، لسلح مواطنيهم: إذ يتم انتخابهم ثم إعفاؤهم بسهولة مذهشة، بل ويتم إيلانهم بسهولة أكبر. وعندما يموت القائد، موة طبيعية أحيانا وعنيفة في غالب الأحيان، أو يتم إعفاؤه من طرف الأهالي، فإن أمر انتخاب قائد آخر يخضع للإجراءات التالية: يشكل أعيان القبيلة الرئيسيون الجماعة، وهي أعلى هيئة في القبيلة، شبيهة بنقابة قوية، ويجتمعون بالمسجد أو بسوق يحضره الناس بكثرة. ويكون أفراد الجماعة قد اتفقوا مسبقا على اسم القائد المنتخب والذي لا يمكن أن يكون إلا فردا منهم لأن أعراقهم لم تكن ديماغوجية بحيث تسمح باختيار الشخص الذي سيشتغل أهم وظيفة من أسفل المراتب الاجتماعية. هكذا، فإن الجماعة تعين أحد أعضائها كبديل للقائد الراحل. ويستحضر عقد التسمية الذي ستم المصادقة عليه شكليا من طرف السلطان. وسيتمتع الشخص المعين، مرفوقا بهذا العقد، إلى فاس أو مراكش حاملا معه ما بين 1500 و2000 فرنك، قيمة الهدايا المخصصة لصاحب الجلالة الشريف. لكنه لا يسافر لوحده، بل سيرافقه أربعة أو خمسة من أصدقائه القدامى، المكلفين بمراقبة القائد الجديد وحراسة محفظته. وتقاليد لكل مغامرة لا تحمد عقباها، فإن هؤلاء الأصدقاء الأوفياء، سيتكلفون بحمل المال، هذا

العبء الثقيل الذي يشكل في المكتب من قطع (K) خفيفة. وسيلخذ الوفد المدحج بالسلاح طريقه على ظهر القميص. وإذا ما حصل أن سقط في كمين، فإنه يرجع إلى القبيلة على الفور. بعد أن يكون قد تركه القصور، الهدايا والأطباق والقميص. وربما أو أكثر من أفراد. أما إذا وصل بأمن إلى فاس أو مراكش، حيث يتواجد الإمبراطور، على أول ما يقوم به هو التوجه إلى باب القصر الملكي. وسيخبر أبناء القصر بوصوله وبرغبته في المثول بين يدي العاهل. غير أن هؤلاء الأبناء لا يحضرون الوفد أي اهتمام، إلى أن يقتطعوا جزءاً من المال المخصص للسلطان. وإذا ما حاول أعضاء الوفد عدم الاستجابة لهذه المعاملة المستعصية، فيجزم أن يروا السلطان أبداً. كما أن هذا الأخير لن يعلم أبداً بأنهم ينتظرون مقابلته عند باب القصر. وعند تلبية رغبة الأبناء، يتم إدخال أعضاء الوفد حفلة إلى قاعة الاحتفال. ويتلقى الحجاب لطرح عليهم بعض الأسئلة من قبل: من أين أتوا وماذا يريدون؟ وهذا الشخص الذي يكون في القاعة أحد أقرباء السلطان ومن قصر بحيث لا يرعى بالهدايا الصغيرة التي تأتي بها الجبلون الغراء. سيدخل إلى قاعة العرش وسيضع القاب على مصراعيه مطناً بأعلى صوته: "أي بني كذا قد وصلوا...". ويكون السلطان الذي تم إخباره من قبل، جالساً على مقعد مرتفع. وسيقوم بإشارة تعمل معنى: "دعهم يدخلون". هكذا سيستمر القاب الجديد خلف الحجاب باتجاه القاعة. وسيمضي الأمير على الطريقة المغربية، أي بتقبيل رؤوس أصابع يده اليمنى، وهي حركة مؤدية معروفة تحت اسم "بندق". من جهته، فإن السلطان سيرد على هذه التحية بمثلاً. لذلك، سيتقدم الموظف الموعود من العرش بلوح من قرع، لأن حارسين خاصين للسلطان يحيطان به ويظهران سلفهما ويبدآن علاجاً لاسية. وستحدث أحد هذين الحارسين بصوت قاطع، طلقاً من قدام الجديد، الجلوس على مقعد موضوع أمام السلطان بالقرب من العرش. وهو ما سيحدثه القاب، مقبلاً عند تسميته دون أن ينس بكلمة. وسيحاول الإمبراطور المقعد، ثم سيسلمه لأحد القوراء الجالسين بجانبه، شيئاً ما إلى القوراء. على مقاعد الارتفاع وأبهة من مقعده حيث سيدأ الوزير بقراءة الخط بصوت عالٍ. عندئذ سيمسك السلطان القاب، سلالاً يهتف عن قريته وأهلها وحالة سكانها والمحاصيل والمواشي. وإنهاء اللقاء. سيقيم بإشارة من يده، سيتقرب الحجاب على إثرها من القاب قاطعاً: "أوهي أسي" ²⁴ (فهم يا سيدي).

وعلى الفور، سينس القاب. وإذا ما كان عازماً بقواعد البلاط الشريف فإنه سيرجع بالقهقرة، أما إذا كان جاهلاً بها، فإنه سيدبر ظهره للشريف، إلا أنه لن يلام على ذلك، بل سيكتفى

24 - كلمة سيدي اختصت في سي. وهذا دليل على التشفير بالمثل. أما "أ" التي تسبق سي، فهي إشارة للمقطع الصوتي "يا".

الحاضرون بالقبلة سفرة من فطنة هذا الشهر. بعد تلك المصطحب الحجاب القيد إلى لغة الاجتماع (طمطحة) المصصمة لاجتماعات القيد في مرحلة جديدة من السنة. هكذا، سيجري لهم القيد متبع من الوقت للنظر ببعجب إلى فرارهم الجسيلة والمستمر الصفرة التي سيقدم عليها فيما بعد وصفا متقبلا أمام أصدقائه المشدودين.

إثر ذلك، سيستقبل السلطان أعضاء الوفد واحدا بعد واحد، ثم يصطحبه الحجاب تاه إلى قاعة الاجتماعات حيث سيجدون القيد المصري. في نفس الأثر، سيقدم آخر عنصر ضمير الوفد، الهدايا إلى السلطان، حيث سيمسها قرب العرش فتلا: " هذه هدية القيد " وسيمسها لاصحابه. أثناء مفتح الحجاب بقب القاعة على مصراعيه وسيكون أعضاء الوفد متواجدين بشكل لا يروا السلطان من خلاله، مثلما لا يراهم بدوره. وسيمسها في قاعة العرش مشهد هم وعظيم، لم يسبق للأوروبيين أن عاينوه من قبل ذلك في المعامل ووزراء المجلس على مقاعد، سيعلمون بأنهم مجتمع قرب وجوههم وكذلك بقروى كتابا وسيردون بصوت حل القاعة، مصحين إليها بصر الابتهالات والدعوات لفتنة القيد وأعضاء الوفد ولهيئته.

وستقدم هذه الدعوات المكتوبة على ورقة، إلى الحجاب الذي سيمسها صوب القيد . بعد أن كان نظره منصوبا إلى لغة العرش، وسيرجع في قراحتها.

عندئذ سيمسها أعضاء الوفد إلى الاستقبال قد انتهى وسيلتدون قصر. فيا كانوا في الممر، فإن ضريح المولى إريس هو الذي سيكون مكان مأواه وسيمسها له إيا كانوا في مراكش، فقام سيقومون في ضريح سيدي بلعاجس المكني. وفي الصباح، سيرحل السلطان إلى القيد الجديد طالبا من القيد أو القصة، حسب أهمية الشخص وقبيلته. ويحمل الطمطح القيد قائلا: " إن فلانا هو قائد القبيلة القلائية، طوعا أو كراهية ". وسيرافق ذلك بشوب شعر ويجوز راقع. هكذا سيقبل القيد راجعا ومعه عشرة عرسان نظامين (مغربية) مكنون يعرفه إلى القبيلة، من أجل جلب الضرائب التي لم تؤد بعد. وسيلخذ الوفد طريقه إلى القرب، مع هذه القوات المساعدة الخطيرة التي سيقيم أفرادها عند القيد ويصبحون منقضي لأموره الانتقامية. وعند رؤية المغزنية، سترجع القرب بتقديم الهدايا إلى القيد المنتخب الذي وافق السلطان على اختياره وسيقدم هؤلاء المغزنية بجولات داخل القبيلة مستقرين بالبلدات التي يشكون في معاملتها القيد ومكين القيد على أعدائه الأشخاص المتهمين بعدم أداء الضريبة. وبعد شهر أو شهرين من القيد على هذا المنوال، سيجرجع المغزنية إلى حاضيتها بعد أن ملأوا بطونهم وقللوا بلهجات. وسيقدمون للسلطان جزءا ضئيلا من الأموال التي جمعوها، إذ أن أغلبها سيجد في جودبه أو جوب القيد ومناصريه.

إن رئيس الأهالي المحروم من مساعدة المخزنية ، بموجب مساعدة " نصف " وسوقى كل أنواع الانتهاكات والتجاوزات، إلى أن يأتي اليوم الذي سيقال فيه أو يجبر على الاستقالة، لأن عدد الرافضين له سيكون قد ازداد، كما أن القوة المشابهة له ستكون قد ضخت. وسيمثل " نصف " المتمسك عن الشخص البديل، ويمكن لهذا الاختيار أن يحظى أو لا يحظى بموافقة السلطان، كما يمكن لهذا الأخير أن يتلقى بعد شعور من الحدث، خبر وفاة القائد المعين أو قتله بخارج أعدائه، وذلك عن طريق الصنعة.. وهذا سيستخدم لبقائه لإعادة القبيلة المتمردة إلى جادة الصواب، وأحياناً ما ينجح في ذلك، إلا أنه يضطر أحياناً أخرى إلى انتظار سنوات عديدة قبل أن يعود إليه أبناء الصلوة وتصل مسامحتهم الصربية. وهو لا يحظى بتعاطفهم إلا بعد أن يكثر من الشكوى في رسائله المطولة التي يعاتب فيها هؤلاء المسلمين الفاترين الذين لم يلتزموا بأحد المبادئ الأساسية للقرآن الكريم. وسيبرز بالمسابقة مبرته كحفيد للرسول، وهي حجة لا تقاوم وسيكون لها تأثيرها على القبائل الأكثر استقلالية.

هكذا، ستأخذ الهدايا طريقها من جديد إلى فارس أو مراكز وستطن فوكالات الأوربية للمعلم المدهش، بل صاحب الجلالة الشريف، قد جلب بالقوة ضرائب هذه القبيلة المتمردة أو تلك..

طبعاً إن الريفي لا يلتزم بالأداء المنتظم للضريبة التي يعتبرها كهنية إلى حفيد الرسول، أكثر من اعتبارها كرسوم إرسية. وفصلاً عن ذلك، فإن الحصر المنطوقه quotes-parts تكون ضئيلة، فهي تعدد من طرف الجماعة وفق إمكانية كل واحد، ولا تتحدى أبداً، حتى بالنسبة للأغنياء، 10 إلى 15 فرنكا في السنة. أما حصة الفقير من كل ذلك، فهي ضئيلة ولا تتعدى بضعة سنتيمات. وللأسف، فإن قيادة وأعضاء الجماعة لا يشعرون وهم غير عادلين لأنهم يطون المواقير لهم من كل ضريبة، ويقولون كاهل خصومهم بالرسوم، وهو ما يفسر الاضطرابات المتواصلة بالقبائل الريفيه وعدم احترامها لمعامل لا يستطيع حمايتها من جشع قيادة المخزنيين أو المستقلين.

لذلك ترى بعض القبائل تتخذ القرار الحكيم المتمثل في إدارة نفسها. فهي تعين جماعة تكون ملزمة بعدم تحصيل أية ضريبة. ويحصر دور هذه الجماعة في قمع مرتكبي الجلبات والمخالفات وفي تمثيل القبيلة على مستوى العلاقات الخارجية وفي إصدار أحكام الإعدام في اللحظات العسيرة. وللأسف، فإن أعضاء هذه الجماعة ليسوا بمنأى عن الارتشاء. فممارسة السلطة تذهب بصواب هؤلاء الذين انتخبهم الشعب. لذلك فهم سيتفنون فما بينهم لإتقال كاهل الشعب الفقير بالضرائب. وستكون الثورة عليهم لذلك ضرورية لإزالة نفوذهم المستخدم بشكل

س. ومثل الخصومات والانتقامات والاعتقالات وتصل القرضى إلى ذروتها. وهذه هي الحالة التكنولوجية المتكررة من طرف السلطان. فبفضل غلوريته ومخزوات بعض منحصره. يحرص أحد أتباعه على القيمة المتميزة التي أتيحتها القرضى ويهتف لضرائب المنطقة من قبل. وهي مهمة ممتعة وخطيرة بالنسبة للقبائل الجديدة.

ولا يوجد أي نوع من الإنفراة بالعرف. بحيث لن قدحش إذا ما طمنا بأن السلطة القضائية ضما مجهولة. ويختار الطلق الذي حظي بقب القاضي مجرد ككتاب عومي يمتلكه كلمة لتسجيل بعض الأحداث العامة. كزواج والطلاق وحشيت البيع والشراء. ولأن قمع الجنيات والمخلفات لا يוכל لأحد بحينه. فإن أقرب المصلحة هم الذين يتكفون بمصلحة الانتقام. على شكل العرف. يختار الأخذ بالثأر أمرا دائما يستمر. لكن حينما تلغز الجريمة ليوما فطوما أحياء. فإن الجماعة هي التي تلغز الميعود وويث لذلك الذي سيكون حقا لتعويضها. إذ سيطرود كوحش جريح وسيمك عليه بالعيش في قفلة إلى الأبد لو الميعود. هذا إذا لم يتم قتله في إحدى القرعات. ومنصبه ممتلكته عرضة لنهب أعضاء الجماعة الذين يأخذون القسط الأول. تتركب ليلي لورد القليلة المسكين. بعض الأسفل البقية. وقد روى لي ريلي من بني بوشاغر. وهو قسم من القوية. حكاية ذات مغزى بهذا الخصوص. فلهذا الذي قام ظمنا بالارتكاب جريمة. بعض عليه من طرف أعضاء الجماعة وأحد رميا بالرصايس بمنزله. وسط لورد أسرته المرحوبين. وفي قفلة الموقلة. سألخ لرواي كل أقربائه من النساء والأطفال وسيلتقون بالقفلة حيث ميسرع في ضاية لمادة القفلة لغيره. وستكون المصلحة هي: مقرر سنة من أبناء عمه ومجموعة حشر من أعدائه. وكان هو الرجل الوحيد من العائلة الذي بقي على قيد الحياة. وبالرغم من أن باندلته قتلت ثمانية لورد من أعضاء الجماعة. إلا أنه لم يبق على البقاء بالقفلة. وسيرحل إلى مملكة وبجها إلى وهران. بحثا عن العمل والأمان. وهو ينتظر منذ عشر سنوات. الفرصة الموقلة للعودة ثانية إلى دياره وما زال خاضعا للتأثير الفكرة التي مفادها أنه لن يموت قبل توجيه رصاصات باندلته إلى آخر أعضاء.

ومذا بطع سنوات. ظلت مشوة بدون قيد. فهذه الجمهورية الصغيرة كثير شاولها بنفسها بالاعتماد على مستكين للأعلى. منتحين داخل كل قسم. ولا يجتمع أعضاء الجماعة الرئيسية المكونة من سبلي مختلف الأقسام إلا في المحطات المصيبة حيث يتم القسم في أمور السلام والحرب والأعراق والطرود. وطبعا فإن لكل قرية جماعتها الصغيرة الخاصة بها.

ورغم استقلاليتها المطلقة، فإن قبيلة متقوة ترسل من حين لآخر، بعض الهدايا إلى السلطان. وهي هدايا مقدمة إلى جنود الرسول ونهبت إرارا بالمضروع لسلطة الإمبراطور الذي لا يخشى الرينغون بتاتا، سلطته الدنيوية.

وعلى الحدود الغربية من القبيلة، غير بعيد عن البحر، توجد مناجم الذهب والفضة. ويرجع ذلك إلى كون متقوة معادية للملوك، وهي المنطقة التي يبدو أن الطبيعة حبها بأغنى الثروات المعدنية في العالم. ولا يعرف سكان متقوة، مثلهم مثل جيرانهم، جهة الغرب، استقلال هذا المعادن الثمين. وهناك غدير ذو أهمية لا بأس بها، وهو واد تيثولا الذي ينبع من الربيع الفوقاني وينبع مجراه من الجنوب إلى الشمال ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقلمة، حيث يتشكل ميناء صغير.

القرى الرئيسية بمتقوة

- نلقموت (المحاطة بالصخور)، (التسمية أمازيغية)، قرب البحر 100 منزل.
 - القلمة أو سيدي فتوح (التسمية عربية)، قرب البحر 100 منزل.
 - تيثولا، على الغدير الذي يحمل نفس الاسم، 100 منزل.
 - سوق الاثنين، وهو المكان الذي يقام فيه أكبر سوق بالقبيلة.
 - تزيارت (كرمة الطيب)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.
- قرى العسكرية، 6000 من المشاة الحدد المحتمل للسكان 30 ألف نسمة. وهناك حوالي 60 قرية. التعليم القرآني قليل الانتشار.

قبيلة بني جميل (جميل)²⁴

وهي قبيلة بحرية، تحدها متقوة غربا وبني بوفراح شرقا وزرقات جنوبا، وتمتد بحرا على مدى عشرة كيلومترات، كما أن عمقها بالداخل يمتد على مدى عشرين كيلومترا تقريبا. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي مصطلمة بالشمال، إشلويين بالغرب وأيت علي بالشرق. ويشكل هذان القسمان الأحرار جنوب القبيلة.

²⁴ - من الكلمة العربية جميل التي تعرفت فيها اليوم إلى كلف.

إن سكان تزيلاوث لم يظهروا في منع الدرويش من زيارة بني كميل. وقد بذلوا كل جهودهم في إقناعه بأن هذه القبيلة توجد في حافة حرب مع متيو، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل. وانشى، فوحيد الذي كان يتلق محمد بن الطيب، هو الجلالة المتيوية التي كان يرتديها، إذ كان لديه إحساس بأن هذا القباس الوحيد الذي يمتلكه، قد يؤثر له القلال ضد جيران المتيويين.

وعند الفجر، سيخاف تزيلاوث متجها صوب الشمال الشرقي، وقد كانت كل المنطقة من جافى الحدود بين متيو وبني كميل مقفرة. فقد هجر السكان منازلهم هربا من ويلات الحرب. وكانت المحاصيل المهجورة تتخفن في عين المكان والفواكه الطازجة ملقاة على الأرض. وبجانب المنازل الفارغة كانت خلايا النحل مليئة بالعسل وتتساب منها على العشب غيوط ذهبية سيخس الدرويش أصابعه بداخلها لمرات عديدة. وكانت الحيوانات المتوحشة قد استقرت بهذه الضيقات المهجورة، حيث أن بنات أوى والقملب والخنزير كانت تعبر الأزقة بالطعنات وتدخل المنازل دون أن تعير اهتماما لرحلاتنا الذي كان يحاول أن يخفيها بسرقة، وهو نفسه غير مطمئن لردود أفعاله. وعند الظهر سيري فوق تل، بلدة صغيرة مبنية على جانب منحدر باتجاه الشمال الشرقي. وأسفل المنحدر هناك خدير، تحت حته بركة مليئة بالطيور العابرة. وكانت أشجار الفواكه ممتدة على مدى البصر. وأمامه، على بعد كيلومترين، كان البحر الذي لم يره الدرويش إلا مرتين أو ثلاث مرات عبر معرات الصبار، يتفتح بشكل شامع على الشمال. ولم تكن البلدة الصغيرة سوى مصطبة، عاصمة بني كميل. وسيوجه محمد رأسا إلى الأمام، نارا عبر التل. وبعد مئة خطوة، سيسقط في كمين نصبه له ما بين 100 و 200 فردا، لاسين جلابات سوداء. وكان هؤلاء الأشخاص مستلقين على العشب، تحت ظل الأشجار ومطعمين ببنادق إنجليزية. ولقوى رؤوسهم العالية تماما، كانت توجد جهة اليمين، خصلة من الشعر مقسمة إلى ثلاث ضفائر طويلة بشكل عجيب. وحول جذر هذه الخصلة المسماة كطاية، كان جلد الشعر مطوقا بحناية.

وعند رؤيتهم للدرويش بجلابته المتيوية ذات الخطوط البيضاء والسوداء، صلبوا بالعربية: "إنه متيو، فلنقتله". واقتضوا على الرحلة، بحيث صوب أول المقترين منه، بندقيته إلى صدره. عندئذ يقول الدرويش: "لا بأس". وعلى الفور سيرفع الرجل فوطة بندقيته. فهاتان الكلمتان السحريتان عربيتان وتعنيان بأنه لا بأس هناك. وفي لريف، خصوصا لدى بني كميل فإن مخاطبا هو: أنا صديق ولا أضمر أي شر. ويقول الرجل لأصحابه الذين اقتحوا به: "إنه صديق، فهو ليس من متيو". وقد أسرع محمد بتأكيد ذلك، مطا بأنه كان مجرد ضيف على هذه القبيلة. وسيخضمه رؤساء المجموعة لاستطلاق مطول، له علاقة بنوايا أعدائهم ولقوى التي يتوفرون عليها قلائد: "قد سمعنا بأن متيو خليفة عمارة ستهلجنا عا قريب. لكن حدودنا

محروسة بشكل جيد. فحرم، سكان مصطبة نزلها من الشاطئ إلى حدود إشلوبين، وهؤلاء يراهم ما تبقى إلى حدود زركشت. وسجلتهم الدروش قتلًا بأن الميتوبين الأمن في ديارهم لا يفكرون بنقا في مهجنتهم. إثر ذلك، سئلوا لحد الرؤساء قطعة خبر ملونة بالمسل وسجلته قتلًا: " اذهب، ما أنت الآن في أرض مسلمة وليس لديك ما تغشاه. فليفتا غنية ومزدهرة وتعجب الغرباء. أما أهلي متوبة فهم نصارى ". وسترك محمد هؤلاء المحاربين ليتابع طريقه إلى حين وصوله إلى واد بني كميل. وبالمستاء البركة التي تحدثنا عنها، فإنه لم تكن في القدير ولو قطرة ماء واحدة.

هكذا، سحر محمد مجرى القهر الصخري الذي رسمه الشلال، ليصل بعد ذلك إلى بلدة مصطبة المبنية على سفلة اليمنى. غير أن جلابته المتوية ستثير لفضول الرجال والنساء والأطفال الذين يجتمعون حوله وسيفحصونه فائقين: " إنه متوي ". لكن رحلتنا سيرع الخطى باتجاه المسجد متفدا هيئة الدروش المتبول إلى حد ما وسيتحدث عن الحشد الذي اعتقد بأنه رجل مجنون. ومعلوم أن المجانين يحفظون لدى كل المسلمين بحطف كبير وباحترام عريق، لأن جنونهم لا يؤدي أحدا على الصوم.

فالإيمان على الكحول الذي يعتبر مصدرا للعديد من القوالب الجنونية العنيفة عندنا، غير معروف في الريف.

وبعد تخلصه من الفضوليين الذين تحول عدائهم فجأة إلى احترام، دخل الدروش المسجد. وكان حوالي 50 طالبا من كل الأصناف، يطسبون قرقاصاء على حصائر، ويثقلون آيات قرآنية بأعلى صوتهم. وسيفهم لكان منهم بتقديم سلة ملونة بخبز الشعير، كانت مثبته بالحائط، إلى الرحالة الذي كان قد فزوى برطوبة بالمسجد، فور دخوله. كما سيحضر طلبة آخرون أطعمة موضوعة بصحن من الطين الذي تم تسميته، وتكضم الججاج والبيض والحسل والربدة. ولم يحصل أي تبادل للكلمات، بل سترك الدروش أمام طعمه، يأكله كما يشاء. وبعد انتهائه من الأكل، طلب منه إخبار الحاضرين، من أي بلد هو. وسجل محمد بأنه ريفي، دون الإشارة إلى موطنه الأصلي. ولأنه رغب في تغيير جلابته، فإن الطلبة سيأتون له على الفور بجلابتين بلون أبيض وهو اللون المميز للصيوف. وبذلك سيتخطى الدروش عن جلابته المتوية مصدر كل مشاكله. وبعد أن حظي بالتحفة والمبيت بالمسجد، سيقترح لمعالجة بلدة مصطبة على مهل. وهذه البلدة تتحقق اسم المدينة، لأنها في حجم مدينة متخلف. لكن يا لها من مدينة قفرة. فالدروش نفسه اشتمل منها كثيرا، وهذا أقل ما يقال عنها. تصوروا معي، لراحة ملونة ملونة بزيل الأسنة والفتورات وبجانبها بالوعات ملونة بهول الحوليات. وتتمو شجيرات القين

فوحشي وبعض القبائل المعصرة وسط التلال البشرية، مما يجعل حركة المرور صعبة. أما الحيوانات المبيدة، فتتغذى تحت أشعة الشمس وتزيد الجو تكتة. ورغم ذلك، فإن جو المدينة ليس مضرا بالصحة، لأن هواء البحر يهب بانتظام من المائترة صاعدا إلى السادسة مساء، حاملا معه الروائح الفاتكة والقوية.

وتوجد بمصطبة طائفة يهودية. وهذه أول مرة منذ مغادرتنا لتاغزوت نلتقي فيها بمعتبر عن هذا العرق القبيح الذي تمكن من التخلل في كل المناطق، بما في ذلك عند أحد أجداده، أي المسلمين. والغريب في الأمر، أن يهود مصطبة ليسوا مجتمعين داخل ' قمارح '، كما هو الشأن في المدن المغربية الأخرى؛ إذ أن مسلميهم لا تخطف بتاتا عن مساكن القريبيين. فهي منتشرة في كل مكان، لكنها في ملكية المسلمين، لأنه لا يمكن لليهودي أن يملك شيئا من الأرض ولا مسكنا فيريف برسته. فهو يقتصر على تخزين الأموال باستمرار وعلى جمع قطع الذهب التي يجمعها تحت الأرض، دون أن يستفيد منها كما يستفيد من أمواله في البلدان التي يسود فيها الربا. فهو لم يعمل قط على اختراق السلطنة المغربية الأكثر تعصبا في العلم، بل وجد السبيل لكي يكون ممصبا من طرفها أيضا. وقد استعمل لذلك وسيلة بالغة الذكاء، حيث جعل من نفسه يهودي مسلم. ومعنى أن يكون يهودي مسلم، هو أن يكون رهن إشارة هذا الأخير جسدا وثروة. وهي حالة وسطى بين اليهودية والتمية *vasselage*، تحظى السيد الحق في ضرب تابعه لليهودي بل وقته أحيانا دون تعرض للطب في حالة السرقة والتمرد والخيانة وشم القومول ومحاولة اغتصاب أو إهراء مسلمة. ويمكنه أن يشغله وأن يملعه من لزواج وأن يجهز على الطلاق وأن يفرض عليه زوجة ما وأن يطلع في بنته أو زوجته، وأخيرا أن يرسله في رحلة لقضاء أهراضه الخاصة.

وكتعميض عن ذلك، فإن لليهودي الحق في أن يكون ممصبا من طرف سيده الذي يجب عليه الدفاع عن ثروة وأسرة وشخص نفسه، ولو أدى حياقه ثمنا لذلك. ونحن نندمش حينما نجد هؤلاء اليهود، في تلك المناطق القبلية من المغرب، وقد نجحوا في الحش وسط مكان مسلمين كساء بطلاقي، لا يحتلون مجرى أي غريب إلى ديارهم، حتى ولو كان مسلما منهم! ومع ذلك، فهم يتحملون هؤلاء المسلمين *semmes* العبيدين والمكرين. ويجب كتابة مجد التصيل لقول في الاحتار الذي يتلقاه اليهودي المغربي حيث توجه إليه كذبح قشتالم وأطع الإهانات، بشكل دائم، دون أن يعير لذلك اهتماما. ويجد الأطفال المسلمون لذة سادية في فرار الصلقة الإسرائيلية المتلحين الذين يتعرضون للرشق بالمجارة من طرفهم. ورغم أن أباهم يمنعونهم بشدة من القيام بهذا اللعب القبيح، إلا أنهم يعودون إلى فعلتهم حالما يذهب هؤلاء الآباء.

واليهودي مطلب دوما بأن يدعو المسلم "يا سيدي"، وهو مجبر على خلق نظيره والعشي
مفتحا وبسرعة، علما يمر أمام المسجد.

وتتضمن مدينة مصطاسنة خمسة مساجد، كما يتوفر مسجد واحد من بينها على صومعة
مرتفعة هي بمثابة مرصد للمراقبة، يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى خليج سيدي الحاج
سعيد الذي يقع على بعد مئات الأمتار بالشمال الغربي. ويوجد فوق القبرج، منطع عتيق، صدق
وذو حجم كبير، وجهة لوجهه صوب البحر. طبعاً، فإن لكبر السكان هنا، لم يحدق لهم أن سموا
صوته. لكنهم يتفخرون به مع ذلك، بحيث أن طغيات قوى مترعفا لا تسلي شيئا بالنسبة إليهم،
أمام وجود هذا القوش الحنودي.

ويستطعم خليج سيدي الحاج سعيد كمياه بمصطاسنة، وهو يستقبل مياه راد بني كميل في
فصل الشتاء. وهذا السيل الجارف يجف تماما في الصيف. وعلى جانب البحر، بمحاذاة المروج،
يتنصب قبر الولي الذي منح اسمه إلى الخليج. ويتعرض هذا القنن الذي تلوذ به جملة إلى حد
ما، لصربات الأمواج القمعية أثناء هبهم الموصف القوية.

إن ضاحية مصطاسنة هي عبارة عن سول مغطى بأشجار الفواكه والقنن القوش. ويمتلك
أهالي ليت على ويشاويين جبالا غابوية مسورة. وللأسف فإن الصبار ينتشر كثيرا هناك. كما
نجد بالقنبلة الكثير من أشجار القنن والحنب. ويتم بالأساس ررع الشير والقول والحنس. أما
الصح فهو غير مطلوب بذريعة أنه يفسد من يتأوله، في حين أن الشير يمنح القوة والجرأة
لستهلكه.. وعلى الحدود الجنوبية، يصنع هلام الحنب بكثرة. وفي كل مكان، توجد الفاهز
والأبقار والبقول والحمير والقول من الجبل. ولا نجد القبيلة سوى 3 آلاف رجل، لكنها غالبا ما
تقتصر على مشوة التي توجد معها في حالة نزاع مستمر. ولهجنها هي تامازيغت، غير أن
العربية تهيمن بمصطاسنة وبعض القرى وسط القبيلة. ولتفسير هذا الوضع العثير، يزعم
الاماريخون بأن أهالي بني كميل وبني بوفراج، هم حفدة الموريسكيين الأندلسيين، ولذلك ما زالت
العربية تستخدم في بعض بلدات عتيق القبيلتين، ويدعي سكان هذه البلدات بنوع من السغرية *
مركبين قرانس، أي أصحاب الرؤوس المدورة والمحدوبة.

ولا يعترف أهالي بني كميل بسلطة السلطان، فهم يحلون ويحلون تقايد بسهولة مدهشة.
ويحدث أحيانا أن يظلوا بدون رئيس لمدة سنوات، لذلك، تكون الجماعة هي المسؤولة عن تدبير
شؤون القبيلة. وهم مسلمون غير ورعين، إذ لا يؤدون الصلاة أبدا ويقتنون بصوم رمضان فقط.
وقد وقعت للتدريش مغامرة عجيبة بمصطاسنة. ذلك أنه كان موجودا بالمصنفة بجوار
منزل يهودي اسمه مشيمو. وفي تلك اللحظة فتحت يهودية في سن الكهولة الباب، وعند رؤيتها

لمحمد، صلحت بلقاء زوجها: " يوجد يهودي بالقرب وأعتقد بأنه حاضرا ". وبالفعل، قد كنز الدرويش بوجه المسيح المصلح بخصائص طويلة على صدره، يشبه حاضرا حقيقيا. وسبقني مشيئو بنفسه إلى باب الدار قللا باحترام: " السلام عليكم يا أهل الإسلام " ²⁵ وسجبه الدرويش الذي كان متيقنا بأن قصد كلامه أن يفهم، قللا: " السلام عليك " (أي تسقط عليك الحجارة، وبمضى لمر فكن عرضة للرجم). وقد نطق بكلمة سلام (حجر) سريعا وليس بكلمة سلام. وذلك كما اقتضت عادة بعض العرب في استعمال هذه الكلمة، حينما يغضبون كثرة غير مسلمين، بالعربية.

وسلاحظ الحاضرا المزعوم فور دخوله إلى المنزل، بأن هذا الأخير ليس لطف ولا توسع من مسكن المسلمين، وهو مصروع من الداخل بطريقة غريبة، فالسجن ملون بأشكال متنوعة، من اللون الوردي إلى القرمزي المتوهج، مروراً بألوان عديدة، وسجلت الدرويش فوق حصيرة، مع كل فرد الأسرة (رجل والمرأة والأطفال) حيث سيتم تناول كمكة الصروط بالسر. وعندما سئل محمد، من أي بلد هو قائم، أجاب بأن يهود أصيلا يفخرون به كمواطن وكأخ لهم في القلة، وسيتم الإلحاح عليه بالاستقرار بمصطبة لتعليم أبناء القبيلة الإسرائيلية. إلا أنه سطر بأنه ملوم بالذهاب إلى أصيلا أولاً، واستشارة الطائفة اليهودية بهاته المدينة. وسطرح عليه سؤال أخير، يتعلق بمعرفة ما إذا كان ينتمي إلى قبيلة بنيامين أو يهودا، وأن يتردد الرحلة في الإجابة بأنه من قبيلة يهودا، فقد كان يعرف بأن هذه الأخيرة غير مطقة بشكل كاف في المغرب، في حين أن أبناء بنيامين كثيرون في هذا البلد. ولم تتوقف المضيفة القورعة والممرورة باستقبالها حاضرا في منزلها، وهو شرف كبير يرغب فيه كل اليهود المنارية، عن تعجيل تهاب وإلادي الداعية الطيب. فقد أحاطته بخفية لافقة وأكتمته أكلا، مولفة عليه عدم إخباره على طعام وسقاة مياه بين كان طبعها قد أصعبه. وقالت له في الأخير: " يا سيدي، إن أنت بقوت معنا، فإن لاهتي ستكون خاتمتك وزوجتك ". وسجيب الدرويش بالانصاف: " سألني ". ولأن مشيئو كان مضطرا للخروج، فقد اختار دجاجة المشاء. ورغم صغره كحاضرا، فإن سمعا لم يرد قلها بيده مطلا ذلك بأحد الأسباب. وفي الواقع، فقد كان يخشى أن يفصح أمره بعمل أغرق تثير شكوك هؤلاء الناس السريعي التصديق. وعند غروب الشمس، عد مشيئو إلى المنزل وطلب من الدرويش إقامة الصلاة. غير أن سمعا الذي كان يجهل العبرية سيتفلس من هذه القورطة، بحديثه الجريء عن عفة مزعومة لدى أبناء يهودا، قللا: " إن أبناء يهودا لا يجب عليهم أن يتأسوا شحاتر الصلاة

25 - إن اليهود اللطيفين بالعربية، يحاولون حين شيئا، وهو ما يبرز قوتهم، وفي هذه الحالة يجب أن تنطق بكلمة " سلام " بدل " الإسلام "

عند الغرباء الذين يستقبلونهم : " ولأن مشيشو كان يجهل عادات قبيلة لا ينتمي إليها، فإنه صدق كلام الرحلة وترأس بنفسه الصلاة. حيث وقف أمام الحائط ووجهه إلى الشرق صوب القدس. ووقف كل أفراد الأسرة ومعهم محمد، خلفه صفًا واحدًا، وانطلقت الصلاة. ولم يبدِ الدرويش أية كلمة وظل يلاحظ الوضع. وكان صوت اليهودي المنتهي يرتفع ثم يلهو صمت طويل. ويبدو وكأنه يحد شيئًا على أصابعه. وهناك كلمتان تتكرران، تمكن محمد من ظنيهما وهما: موسى وهارون. وبعد الانتهاء من الصلاة تمشى الجميع وناموا مختلطين فوق الزريبة الوحيدة الموجودة بالمنزل. وكان الدرويش موجودًا بين طفل ومضيفته الوردية التي لم تتوقف عن شكر الإله، على اليوم المبارك الذي عاشته. ولأن الرحلة غير مهذب بطبعه، فقد أدار لها ظهره هائسا: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " وهي عبارة يطلق بها المسلمون عندما يحرق بهم خطر كبير. وبدون شك، فقد حقق له الإله دعوته، إذ أن السيدة مشيشو ستخط في سبات عميق بعد فترة قصيرة. وعند الصباح. وكان اليوم هو الجمعة، قال محمد لمضيفته، بعد تناول الشاي: " أتركوكي لأذهب إلى سادة لزيارة قبر عسي " ²⁶ وسأبحر بعد ذلك من بنيس إلى أصيلا. وهناك سألهم من الطائفة اليهودية السماح لي بالمجيء هنا لتعلم الصغار. غير أنني أجول بإخباركم بأنني لا أملك قلما واحدا للإبحار بالمركب ". وسيمضيه مشيشو خمسين فرنكا، ثم سيفانران معا الفار، وكانت اليهودية تتبعهما وهي تكي. وكل جمعة، كان علم الأخضر يرغرف فوق صومعة المسجد الكبير. ولأن الرحلة أراد أن يعرف آراء يهود الريف حول المسلمين وديانتهم، فإنه سيشير بيده صوب العلم مستقلا: " ما شأني هذه قرابة؟ " وسجبه اليهودي: " إنها تشير إلى أن يوم الجمعة هو يوم حداد بالنسبة للمسلمين ". وقد كان يكره التلطف بكلمة " جمعة ". كما أن منظر العلم والمسجد كان يثير أعصابه؛ لذلك فقد أدار ظهره وهو يندم: " إن المسلمين يخافون أوامر الله... فقد كان عليهم أن يرتاحوا يوم السبت كما أمر بذلك الرب الخالد، غير أنهم اختاروا الجمعة كي لا يشتغلوا ". واستمر هذا النقاش طويلا حول نفس الموضوع. وهو ما أظهر للدرويش كيف أن اليهودي المغربي يمتد كل ما ليس بإسرائيلي. وسينتقل رحلتنا فيما بعد إلى دبدو وصفرو وسط قبضولات، دارسا عن قرب هذه الكائنات العجيبة التي تقاوم سوء الفهم العالمي، منذ قرون.

هكذا وبعد توديع مقتضب لمضيفته، سيصعد محمد واد بني كميل ثانية، وسيعود إلى وهران لقضاء ليلته، وهي قرية من خمسين منزلا، تقع جنوب مدينة مصطفىة على القدير الذي يحمل نفس الاسم. ²⁷

²⁶ - انظر قبيلة بنيوية والتأصيل حول المقبرة اليهودية الوحيدة في الريف.

²⁷ - « Les bni isguen (Mizab) », p.40, Article oran, in 8, Oran, 1895

القرى الرئيسية ببني كميل

. محطة (نظر اعلاء)

. وهران (الإظهار) . التسمية أمازيغية (نظر اعلاء)

. سيدي بوزيد، جنوب وهران على واد بني كميل، 100 منزل.

. إشاوين، جنوب سيدي بوزيد على واد بني كميل، 100 منزل.

. تلمرطاس، جنوب إشاوين، 10 منزل.

القرى العسكرية: 3 آلاف من المشاة، عدد السكان المفضل 15 ألف نسمة. المسالك خاصة بالجلال، وهناك سهل بالشمال وتلال صغيرة غابوية بالجنوب. التعليم الابتدائي غير منتشر بها فيه الكلية. وهناك بالقبيلة حوالي خمسين قرية صغيرة لم تمكن من التعرف عليها.

قبيلة زراقت (التسمية عربية أمازيغية)

وتارجيست (المتلجة) (التسمية أمازيغية)

لبنث الدرويش شهرا واحدا ببني كميل. وفي صبيحة أحد الأيام الخريفية الجميلة، غادر قرية إشاوين متوجها جنوبا نحو سوق السبت، وهو سوق كبير بأحد أقسام زراقت، يدهي منطقة حلال. والطلقاء من إشاوين متصحب المنطقة رائحة، إذ أن الحديد من القرى التي لا تفصل بينهما سوى مسافة قصيرة، تختفي وراء الخضرة. وفي كل مكان نجد الحدائق والبساتين التي تقي أشجارها من أشعة الشمس الحارقة. وتجري وديان من الماء البارد والصافي في كل مكان. كما أن الأرض المسقية بشكل وافر، تسمح بمرور مروج صغيرة مغطاة بالأزهار. وتستقر آلاف الطيور فوق أغصان الأشجار حيث تختلط أصواتها الحادة بصخب قشالات الصغيرة المتواجدة بكثرة في هذه المنطقة الخفية. وتشكل أشجار الجوز والظب والبلوط واللوز والسفرجل والشمش والتفاح والإجاص والأرز والأس والرمضان والنظي والغروب والفتوت الوحشي، لقاسم المشترك للنباتات المشجرة في كل المنطقة المتواجدة بالجلال الشاهقة الجنوبية الريف. وتقع قبيلة زراقت داخل مرتفعات جبل الأرز الذي ترتفع أعلى قمته وسط القبيلة تقريبا في قسم زراقت بلذات، إلى المنظر العام لهذه السلسلة الجبلية يتهدى كلما ابتعدنا من بني كميل، أي من البحر. وتمتد سلاسل

جبلية صغيرة على كل الجهات، مشكلة العديد من الوديان العميقة، المأهولة بالسكان والمرروعة بشكل جيد، كما هو الأمر في القبال. وتجد بعض القرى المحيطة على قمم أو المنحدرات على جنبات هذه السلاسل الجبلية. وأعلى قمة بجبل الأرز هي من الطول بحيث تحتفظ بالثلج على مدار السنة، بما في ذلك خلال الصيف، ويقترّب علوها من طو جبال جرجورا. وعند الغروب، دخل الدرويش إلى قرية علال، وهي قرية كبيرة من حوالي 100 منزل. محيطة على جنبات أحد المرتفعات الصغيرة لجبل الأرز.

وتتخلى هذه المنطقة تقريباً، تحت الأشجار. وكان سكان علال منهمكين في تجفيف الفين واللؤلؤ والظلم، على شبكة منحدية مغطاة بأوراق القسق والزاز. وبعد أن استقر بالمسجد، حيث استقبل بحفاوة لم يمان محمد كالعادة عن موطنه الأصلي، بل اكتفى بالإجابة على الأسئلة المطروحة عليه بهذا الصدد قللاً: " من هنا وأما " (من هنا، ذلك كل ما في الأمر) وهي صيغة سحرية، ميزتها أنها تتبع فضول كل المضاربة. وعرد هذا القمص هو العقد القائم بين القبال، بل وبين القرى. وهو مقبول في كل المغرب، إذ لا واحد من الأهالي يمان عن اسمه الحقيقي أو اسم قبلته. وحتى في جرجور التي لا يمكن للمضاربة أن يخشوا فيها أحد، فإهم يحيطون أنفسهم بهالة من الغموض، بفعل عافتهم القديمة. بعد مرور أكثر من سنة على استقراره بوجرجور، كان الدرويش بالقدسة لإخوته في قلة بقرية الأهالي، مجهولاً مثلما كان الحال في أول يوم من وصوله. فإمام السوسيين كان يقول بأنه من سوس، ولما الذين كان يقول بأنه ريفي وسيفتحروا أمام أهل فلس بكونه فلسي. كما سيخبره زولوا القبال الكبرى واحدا منهم، حيث سيدعونه " ولد البلاد ". فصرفته العميقة بالشمال الغربي لإفريقيا سمحت له بالانتماء إلى مختلف الأصول. ومع ذلك، فقد اقتضح أمره في إحدى المرات، فعندما دخل إلى مقهى مغربي يجتمع فيه العديد من مواطنيه المرعومين، عامله فزولوا كآخ، غير أن أفراد من سوس ألتجأوا على ذلك، معتبرين أنه من بلادهم " تمازيغت ". وسيثور الريفيون معتبرين بأنه ولد بالريف. ولألم هذه الورطة، سيطن الدرويش بأنه من تونس، وبما أنه يسافر كثيراً، فإنه يعتبر نفسه هنا لكل المناطق التي زارها. وسيكون هذا المبرر مقبلاً للجميع. أضف إلى ذلك، أن ميرته كدرويش صاحب بركة، لا تسمح بمؤاخنته على هذا الأمر البسيط.

وبعد وصوله إلى قرية علال، التحق محمد بجماعة من الطلبة المتوجهين إلى سوق السبت المسمى أيضاً سوق تارجيست، رغم أنه يوجد في أراضي زرقث. وهذا السوق علم جداً، فهو مكان التقاء وتبادل بين أهالي قبائل عديدة. وقد جرت العادة قبل دخول السوق، أن يقوم الجميع بزيارة لقبر ولي المنطقة سيدي بوشين. والصريح المقام عند مدخل السوق هو عبارة عن

بنية ضخمة مربعة ومتوجة بقبة كبيرة، تلمع بلاطتها المصنوعة من الخرف الفراق والمتحد الألوان، تحت أشعة الشمس. وفي كل يوم السبت، يكون فناء الضريح مملوفاً عن آخره، حيث يلتقي أهالي زركش وتارحوست وبني يطلت وبني ورياهل وبني مزدوي، مع جيلة بني عواش ومروسة وبني بشير. ويميز الأهالي بلباسهم وخصوصاً بأسلحتهم. فالحريون يملكون بنادق ورصاصات من صنع إنجليزي وإسباني، أما جيلة فهم مسلحون بنادق مغربية مصنوعة بتاغزوت، القبيلة الريفية التي تحتلها عنها من قبل. وتزاحم العشود داخل الضريح متهاكئة على مرقد قولي الذي يستقبل أعداداً هائلة من هؤلاء الأشخاص الغشني الطباع. وتوضع كل البنادق على الأرض، حيث توجه فوهتها صوب الحائط ويتم تجميعها حسب كل قبيلة. وتعتبر جريمة قتل المرتكبة داخل هذا المقام الذي لا تكتفك حرمة، بمثابة عمل تنكيسي. وسقوم الزوار، وخصوصاً الحافظون للقرآن، بثلاوة السورة 67 التي تنكديء بـ « قهر الذي يهده الملك وهو على كل شيء قدير ». (يقصد موليراس هنا، سورة الملك).

وحول الضريح يقوم المصنون والورعون بنبح الخراف والماعز والدجاج ويهيلون صحنوا ضخمة من الكسكس، ويخدم كل ذلك إلى حارس الضريح الذي يضطر بدوره إلى إطفاء الزوار الذين يلتقي بعضهم للثرب ويأتي أغلبهم لملأ بطنه مجانا. ويجمع المقدم (حارس الضريح)، إضافة إلى ذلك، المال الذي يضعه الزوار بصندوق مثبت بجانب القبر. وقد تثير هذه الطعائم حسد الحاسدين، لو ظل المقدم يقوم بهذه المهمة المربحة ولم يتم تبدله كل سنة.

إن الهضبة الشاسعة التي يقام عليها السوق، يمكنها بالكاد أن تتسع للخيل ولذالكين الباعة والحيوانات الحديدة والحوالي 15 إلى 20 ألف رجل، يجتمعون عادة كل سبت. وأحيانا ما تحدث نزاعات ومعارك بالبنادق، بين أفراد مختلف القبائل المتناحرة والذين يجدون أنفسهم وجها لوجه، وجميع هؤلاء الزوار الأثداء، يتكئون ويحذون على الأقدام أو على ظهر البغال. ونادرا ما نجد بضعة جراد وسط هذه العشود. ولأن المغرب هو بلد الأئمة الرخيصة، فلنا أن ندهش عندما نرى سوق السبت مثلا، أن فنظر الشخير يساوي فرنكين وأن معزة تساوي فرنكين وخمسين سنتيما وأل ثورا سمينا ثمنه 25 فرنكا وثمان دجاجة كبيرة 20 سنتيما وأن 24 بوضة تباع ب 24 سنتيما إلخ...

ولا توجد أية امرأة بسوق السبت. ففي الريف، وباستثناء كلبية والقبائل الشرقية، يكون دخول الأسواق مخصصا للرجال وممنوعا على النساء. وبالمقابل، فإن للنساء أسواقهن الخاصة بهن، وهي ممنوعة دائما عليا على الرجال.

وأثناء حضور الدرويش وبينما كان سوق السبت في أوج حركته، تنازع أفراد من بني ورياخل وبني مزدوي. وسهرع الناس بإجلاء المكان، حيث بدأت البنادق الإنجليزية والإسبانية تغلغل فملها، مما أدى إلى سقوط عشرة من المتنازعين. وعلى مسافة محترمة من ساحة المعركة، كان الناس يتبعصرون دونما أي تأثير بالطلقات الذرية وبالصرخات. وعند انتهاء المعركة، أخذت كل قبيلة مكانها الخاص بها. وسبقني محمد ليلته تحت قبة الضريح، رفقة العديد من الأسابيين؛ حيث سيقدّم لهم العارص الذي يوجد مسكنه على مقربة من الضريح، طلعما والرا يتضمن الكسكس واللحم والفولكه. وقد تلقى الجميع على أن يوم السوق كان هادئا أكثر مما هو معهود، إذ في العادة، كانت تقشب أربع إلى خمس معارك، يسقط على إثرها ما بين 50 و 60 من القتلى.

وتشمل زرقنت على أربعة أقسام وهي: أعضاض (التسمية عربية أمازيغية وتعني المكان المحاصر وسط الجبال)، زرقنت، جلال وبلحكم. وهذا الإسمان الأخيران عربيان؛ ويعني الأول من يسقي مرة ثالثة؛ أما الثاني فهو اختصار لكلمة ابن الحكم. ولست تارجيمت بأكثر من الأقسام المذكورة. ورغم أنها قبيلة قلقة بدتها، إلا أنها تحترق قسما من أقسام زرقنت التي تربطها بها روابط متينة. فهاتان القبيلتان المحاطتان بالقبائل الريفية الأخرى، تجدان 4 آلاف من المشاة.

ويتمتع الأهالي في كل مرتفعات جبل الأرز بمناخ معتدل حتى في الصيف وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية أكتوبر وتتوقف في شهر ماي وتكون مصحوبة بالثلوج والبرد grêle في أعلى القمم. والأوبئة نادرة في هذه المنطقة الجميلة؛ وكان من الممكن أن يصل السكان الأنداء إلى آخر مراحل الشيفوخة، لو لم تكن الفناجر والرسائسات توقف مسار حياتهم في وقت مبكر. ومع ذلك، يمكن أن نلتقي ببعض الممدير الذين بلغوا الثمانين والذين سجوا من كمالن أبحاثهم بمعجزة. وفي كل مكان، يتم استقبال الغرباء المسلمين بحفاوة. ولا ينتشر التعليم القرآني، أي الأولي، إلا بشكل ضئيل. وتشير الفروقات إلى وجود أماكن تجمع بمناجم الذهب والفضة والرماسين وقشبة والكبريت والتي لا يستطعا أحد. ويوجد منبع من المنابع الهامة لنهر ورغة إلى الجنوب تقريبا من زاوية سودي عبد الكريم. كما تشير بعض الأساطير إلى أن أهالي زرقنت وتارجيمت من أصل فرنسي. فهل يرجع ذلك إلى كون هذه المنطقة للطبيعة، شديدة بمناطقنا الألبية الجميلة؟

القرى الرئيسية بزرقت وتارجيست

- حلال، 100 منزل،

- سيدي بوشمين، 100 منزل،

- زاوية سيدي عبد الكريم، 50 منزلا.

وتوجد بالقبيلتين حوالي 100 من القرى الصغيرة. وكان قائد المنطقة في السنين الأخيرة، هو شريف يسمى عبد الكريم الوزاني. غير أن سلطته الضعيفة والروحية لم تكن ذات أهمية. القرى العسكرية: 4 آلاف من المشاة: عدد السكان المحتمل 20 ألف نسمة. وتعتبر زرقت بلدة الجبل الشاهقة لكن القليلة الاكثار. أما تارجيست فهي بلدة الجبل المتوسطة الطول، والمتوفرة على مسالك عديدة.

قبيلة بني بوفراج

بعد عشرين يوما قضاهما في اكتشاف زرقت وتارجيست، تابع الدرويش طريقه نحو الشمال. وسيرجع إلى بني كميل حيث سبق للأهالي أن تعرفوا عليه. وبمصطبة اعتلى به رملاؤه بالمسجد ونهوه عن الذهاب إلى بني بوفراج، فالتين بأنه من المحتمل أن يطلب من أئمنته وأن يقتل بهجل بوخشفاش الذي يفصل بين القبيلتين. وسبحكون له أشياء عظيمة حول ما يقوم به قاطعو الطريق المتحصنون داخل مزارع هذا الجبل الذي ينتصب كحائط بين بني بوفراج وبني كميل، متكا على خط مستقيم من الجنوب إلى الشمال حتى البحر، بحيث تكسر بقايا مرتفعاته في البحر الأبيض المتوسط، غير بعيد عن مرفأ سيدي الحاج سعيد. ومع ذلك، فإن الدرويش سينخر مصطبة وسيتجه صوب الشرق، عبر مسلك البخل موزا لشاطئ البحر وغير بعيد عنه. وكان يسمع صوت الأمواج التي ترتطم بالرمل، بالرغم من أنه كان يسير في الغابة ولا يستطيع رؤية البحر إلا من خلال الفجوات التي يمر منها. ويمكن القول بأن سادة بوخشفاش، وهم مجموعة من الأوغاد المنتمين إلى عدة قبائل ريفية، كانوا منشغلين في مكان آخر، لأن سمدا لم يلق أي واحد منهم في طريقه. ومن أعلى قمة هذا الجبل الرحيب، سيتمكن من رؤية سهل ملية بالقرى ويتعلق الأمر ببلدة قويصة. وسيمرغ الحصى تاركا وراءه جبل بوخشفاش المعروف الذي يسميه أمازيغيو المنطقة " الجبل الذي يتم تقسام المؤونة في طريقه - adrar adeg bet'tour adouin " مع قطاع الطرق طبعا.

وسيجعل بعد ذلك إلى بلدة قوبيعة (القبة الصغيرة) والمتواجدة على بعد مئات الأمتار من البحر ومن خليج أوقش الصغير (إسم للبات الأتريون المنتمى إلى صنف القنقات المركبة). وعلى مسافة قريبة من الساحل، تقع جزيرة اللوش، وهي عبارة عن صخرة مكسوة بالصيقل وأمامها على الباحة، بني مسجد كبير، يستخدم كمكان للمراقبة من طرف مئات من قريعيين المنحجيين بالسلاح.

وتتمت قرية أوقشي (السهل) الكبيرة، داخل الأراضي، الموجودة جنوب قوبيعة، وهي مكسوة بغطاء الخضر، حيث أن صومعة المسجد تتجاوز بقليل الأشجار العالية.

وتتضمن قبيلة بني بوفراح ثلاثة أسام وهي: قوبيعة بالشمال الغربي، أوقشي بالشمال الشرقي والربع الفوقاني (بمعنى أن إسمه مجهول) بالجنوب. وكل المنطقة مكسوة بمروج رائعة وشاسعة تتخللها مساتين مزروعة بشكل جيد، توجد بها لشجار القوكة المتنوعة. وهناك منابع مائية وفيرة تسقي البلدة التي هي عبارة عن سهل تمتد الأطراف. وفي كل مكان يزرع الشعير والبطاطس والخرطال والفول والكوف. كما توجد الأبقار والماعز والبغل بكثرة.

وبالتقريب، هناك نهالت على حفظ القرآن، وقد أصبحت اللغة العربية التي كانت مقتصرة على بعض المتحلقين، منتشرة بشكل كبير. وهي تسير نحو الطول محل الأمازيغية. وعلى عكس العادة المعممة لدى قريبيين والمتعلقة في خلق الوجه، فلبن بوفراح يسدلون لحاهم في الغالب ويتجولون برؤوس عارية ومطوفاة، إلا من القطاية التي سبق أن تحدثنا عنها. ويلبس الرجال جلابة سوداء، وهم أقبل شجمان وكرماء وميلون إلى التعميل الدراسي بشكل كبير. وتمت قبيلتهم على مدى عشرين كيلومترا تقريبا (نصف يوم مشيا) من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

القرى الرئيسية ببني بوفراح

- قوبيعة، 200 منزل؛

- أوقشي، 200 منزل؛

- سيدي علي أوشعيب، 300 منزل.

وهناك لمسا حوالي أربعين قرية متفرقة هنا وهناك بدائرتي أوقشي والربع الفوقاني والربع إلى خمس قرى فقط بقوبيعة.

القوى العسكرية، 3 آلاف من المشاة، المنطقة سهلية تماما. عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة.

قبيلة بني يطف

(الممسكون بالخناق) ، (التسمية عربية ولمازيغية)

تمتد هذه القبيلة على مدى عشرين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب، وعشرة كيلومترات من الشرق إلى الغرب. وهي محاطة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني بوفراج وشرقا ببقوة وجنوبا بزرغت وتارجيمت. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي: سادة (المسند أو الملحأ) (التسمية عربية ولمازيغية)²⁸ وبني محمد وأولادهم، وهذان القسمان الأخيران يشكلان سلسلة من القلاع الصغيرة الممتدة من الشمال إلى الجنوب؛ أما سلسلة فهي عبارة عن سهل، وهي مدينة حقيقية تشمل ما بين 700 إلى 800 منزل وتعود فيها اللغة العربية، في حين يهيمن الأمازيغية في القسمين الآخرين. ويلوث ولد باديس المليء بالطناني والمحاط بالبرك ذات المياه الأسنة، المنطقة، ويكون سببا في انتشار الحمى. ومع ذلك، ففي الأرض تكون خصبة في الأماكن التي لا تتولد فيها شجيرات القين الوحشي، إذ نجد حقول القنول والقشعر وبعض الموشى كالغراف والأبقار ولحضا البغال.

وتقدم قبيلتنا ببقوة وبني يطف، يوما وبالتاقوب، عشرة حراس مكلفين بمراقبة حركات وتحركات الإسبان الجائعين على صخرتهم المسماة *Pefion de Velez*. ويمنح على هؤلاء الأوروبيين وطأ التربة بالقدم. وبالمقابل، فإن الزريغين يمسكهم الذهاب إلى *Pefion* المسمى عدهم جزيرة باديس، حيث يشترون كل ما يمرض هناك. وهم ملزمون بالإبحار صوبها دون سلاح، إذ يتركون بناتهم بمفر الحراسة الزريغى الموجود على أرضهم. ويبلغ عدد الأمازيغيين للإسبان درجة يرفضون معها بيع الأطعمة والمياه لأعدائهم ولو كلف وزنها ذهباً. وفي أحد الأيام قرر محمد زيلة باديس والبحر رفقة أربعة أو خمسة طلاب من بني يطف، بقارب بقوده أربعة جدران. وقد أعطي كضيف، من أداء القشعر ستيمت اللازمة للعبور إلى الجزيرة. وغير بعيد عن الشاطئ، كانت تتراءى صخرة باديس الجرداء التي تلطمها الأمواج باستمرار.

وبعد نزولهم من المركب، سيتقدم المسلمون الخمسة إلى باب القلعة وسيخضعون لتفتيش دقيق. وبما أنهم لم يكونوا مملوون، سيسمح لهم بدخول القلعة المحصنة التي توجد بها أزقة ضيقة

²⁸ - هذه الكلمة عربية في الأصل ولكنها تمزجت. وربما كانت مشتقة أيضا كلمة أمازيغية تعني مفسد *barrater* نظر كتابي:

Légendes et contes merveilleux de la grande Kabylie, p.230, et le vers Sand à'is etc. in B. parix, 2^e fascicule, 1894.

ملية بالجنود الإسبان وبعض المنازل الخاصة وكباريات ومتاجر وبعض الأشخاص ذوي
مستويات منخفضة، وهذه هي الأمور التي تكثر رحلاتنا أثناء زيارته لهذه الجزيرة، هذه الصورة
التي لا توجد فيها حفة من تراب ولا قطرة ماء. فالعالية تنقلني من إسبانيا لمياه
الأطعمة، وكان من اللازم جلب الرمال والأحجار لبناء الحصن والمنازل الخاصة. أما داخل
القلعة، فليست العلاقة بين الإسبان والريفيين على ما يرام، ذلك لأن الأمازيغيين يشتكون من
مطالبة المتحكمين في الجزيرة والذين يتجهنون تطم ولو كلمة بالعربية أو الأمازيغية. ولحسن
الحظ، فإن العديد من الريفيين يتكلمون الإسبانية بطلاقة، بل غالبا ما يذهبون إلى إسبانيا لشراء
الأسلحة والأمتعة القطنية والصابون والسكر والشموع إلخ... وإذا ما صدقنا محمد بن الطيب،
فإن كل المنتجع المعروضة هناك تنبع بتمن بفس جدا. والإسبان مصيرون في ذلك، لأنهم بهذه
الطريقة سيتحكمون في جزء كبير من التجارة بالمنطقة. ولو كانوا أكثر لطفا ولأنها في علاقهم
بالأمازيغيين، لكنوا قد حققوا منذ زمن طويل سيطرتهم السياسية والتجارية على الساحل الريفي.

وقد قام الأمازيغيون مركزا للجمارك وأخر للحراسة على القنينة، في المكان الذي كانت
توجد فيه المدينة الهامة المعروفة في التاريخ تحت اسم بلديس. ونقول رواية محلية أن الإسبان
عندما احتلوا الجزيرة شرعوا في تدمير هذه المدينة المشهورة بواسطة المدافع. آنذاك سيؤسس
السكان في عمق القنينة، القرية الكبيرة الحالية، المسماة ساذة وسيمونون الفصاري من السيطرة
على المدينة المدمرة. وتحكي الأسطورة أيضا، بأن حصن جزيرة بلديس شيد من طرف الإسبان
في ليلة واحدة.

إن أمازيغي بني يلفت وبقوة يحقون هؤلاء المحتلين الأوروبيين. وكلما وجهوا أنظارهم
إلى الجزيرة الملعونة، تطفوا بالذبح فشتائم طليبين من الله أن يعيدهم على رعي هؤلاء الكفار
للدخلاء، الذين يودون قتلهم لأحشائهم، في البحر. وهم لا يطيقون، كما يقولون، أن تظل السفن
الأوروبية راسية، في ما يدعوونه بتدعيم، مرسى بلديس. وإذا ما طلل المقام بالسفن في هذا
المرسى، فليتها قد تتعرض لطلقات نارية من موقع الحراسة الأمازيغي.

وكانت بلديس القديمة عبارة عن مدينة كبيرة. ويمكن أن نعلم آثارها الممتدة وسط
شجيرات الصبار التي تملأ السهل. وعلى امتداد أرضي، أقام المسلمون ضريبا مخصصا
لمسدي بويحوب، وهو ولي من أولياء القرون الوسطى يحظى بالقدسية في الريف. وتبرز
صومعة عالية داخل هذه الآثار، وسط شجيرات القيقب الوحشي. وقد مكنت خسوف الأرض من
إخفاء هذا البناء عن أنظار الإسبان الذين حاولوا مرارا هدمه بمدافعهم. ولأنهم كانوا مصطربين
لإطلاق نيران مدافعهم عشوائيا فليهم لم يتمكنوا أبدا من إيصال ولو قذيفة واحدة، داخل الضريح

الشمسي من طرف ظل سدي بـ«مكوب» والأسازيفيون مقتنعون بأن ولهم أن يسمح لأية قوة خارجية من الاستيلاء على هذه الأرض المقدسة.

ولمست بانيس في المكان الوحيد بني بلفت، الذي لم يبق منه سوى الآثار، فعلى اعتقاد هذه المنطقة توجد آثار أخرى تشمل على نقوش بحروف غير معروفة لدى سكان البلد. وحسب ما هو معروف هنا، فإن آثار الماضي هناك، تسمى بنيل ديكوس Decius أو القمروود. وقد أكد لي بعضهم أن هذه الآثار عارقت القصة وهي مزخرفة بنقوش وكتابات ضخمة. ورغم تقديم غير المبرر على المرحلة الوثائقية القديمة، إلا أن الزبنيين لم يفكروا لو لم يريدوا لمس الحظ، الاثقال بتدمير هذه البقايا القديمة لمضرة لفرضت.

وتوجد بساندة المقبرة اليهودية الوحيدة في الزيف برمته، وهي بعيدة عن المدينة، على مسافة شاسعة مبلطة، إن صح التعبير، بالشواهد الحجرية *Pierres Tumulaires* التي تم جلبها بنس باهص من تيطاون (تطاون). وهي مبنية بالكتابات العبرية وجاهزة كي توضع على القبور. ويحمل إسرائيلو كعبة موتاهم إلى سفلى، مسافة ثلاثة أيام مشياً، ويتم ربط القايوت على ظهر بخل، ثم يتحرك الموكب الجنائزي مرغمقا بالمغازنية (الجنود النظاميين). ويسير أهل الميت من الفكور في الجائزة على الأقدام بملابس مبررة عن حالة حزنهم الشديد، لكن يمنع عليهم أن يلقوا راحة المسلمين بحويلهم وألبنهم.

وبالتشمال، على مرمى بندقية من سفلى، يوجد حصن متين، شيد من طرف السلطان مولاي سليمان (1795 - 1822). وما زال يتوفر على مدافع كان هذا الأمير قد أرسلها إلى الأماكن المحرسة للخطر داخل إمبراطوريته. وهذه القطع المنطقية التي تعود إلى القرن الثامن عشر، لم تعد صالحة منذ مدة. ومع ذلك، فلا زالت هناكها تهدد مرسى بانيس.

ووسط آثار هذه المدينة القديمة، وعلى رمال قشاطين، وحتى تحت ركام أوراق الصبار المنطلة، يمكن لأقدام الإنسان أن تصطدم بكل للصلب المجهورة التي كانت في وقت ما، أقواما لربة مريمة. ويرقد بعضها الذي يمكن رؤيته تحت الماء، فوق صفوف بحرية، كشاهد صامت على كوارث الماضي. وللقهويص عن لامبالاتهم، سيتهم الزبانيون إسباني *Pefion de velcz* بكونهم استأجروا أسازيفيين الساحل، هؤلاء الإخوة المزحومين، كي يثبثوا هذه النفايات الحديدية القديمة، التي لم تعد صالحة لشيء، لهم لمرضاها في أحد المتاحف.

ولأن وجود الإسبان يشكل خطرا دائما، فإن تحالفا دفاعيا سيتم عقده بين بقوة وبني بلفت وبني بوفراج. وبمقتضاء، فإن جماعة واحدة تكبر القبائل الثلاث، وهي مكونة من عشرين فردا: عشرة من بقوة وخمسة من بني بلفت وخمسة من بني بوفراج. وتوزع حقوق الجماعات

المحصلة ببايس على القبيلتين الأولى والثانية، أما أفراد بني بوفراج، فيكثفون بما يستلصقونه من مركزه بقبوينة.

بن بني بطف مستقلون، ومنذ سنوات عديدة أعظام السلطان من إرسال الهدايا التقليدية وذلك حتى يظل خدمه اتجاه الإسباني متاجما. ويظن قاضي القبيلة بسادة.

القرى الرئيسية ببني بطف

- مدينة سلفة، 800 منزل؛
 - بايس، 10 منزل؛
 - الرابيس، 10 منزل؛
 - سوي الحاج محمد، 10 منزل؛
 - نكروت (شجرة ذات ثمار صفراء)، التسمية أمازيغية، 10 منزل؛
 - الحاج صوان، 10 منزل؛
 - تالوين (المنابع) ، التسمية أمازيغية، 10 منزل؛
 - الحاج بوبكر القناع لوفاس، 20 منزلا.
- وتوجد بالقبيلة حوالي عشرين قرية أخرى.
- القرى العسكرية 6 آلاف من المشاة، عدد السكان المحتمل 30 ألف نسمة. ولا توجد أية طريق، لكن هناك مسلك في كل مكان. فتعلم القراني منتشر في كل مكان، خصوصا بمنطقة.

قبيلة بقبوينة

(الجريفة) ، (التسمية أمازيغية)

تشمل قبيلة بقبوينة كل المساحة الممتدة على شاطئ المتوسط من بايس إلى خليج iguer ayyache ouadda غرب شبه الجزيرة التي تنتهي عند رأس الموريسكي، ومن الساحل الشمالي إلى بني صيرث جنوبا. فهذه القبيلة تمتد على مسافة عشرين كيلومترا من الشرق إلى الغرب وأربعين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب. وعلى امتداد هذه المسافة لا يوجد ماء جار، لأن العيون نادرة جدا.

ومع ذلك، فإن المنطقة تتضمن حقولا شاسعة من الشجر والقرن، وأيضا الحديد من قرى. وبإستثناء بعض التجمعات الأرضية من الشمال إلى الجنوب، فإن بقوة شجر أرضنا بسيطة حيث ينمو الصبار والحقلة. ويتعلق الأمر بسهل ممتد الأطراف بشكل كبير، تفصله في بعض الأماكن مجاري شلالات قديمة، أصبحت جافة، وتعمده قطعان عديدة من الأبقار والماعز. ولا نجد السكان لأنفسهم صهاريج عتيقة داخل منازلهم وخزانات كبيرة مخفورة في الصخر أو في الأرض التي لا تكفي إيجها الماء، من أجل توفير المياه لحيواناتهم.

وعلى الشاطئ، يمارس الأهالي صيد السمك بواسطة شبك وصناديق وخرطوش من مادة متجمدة، يستخدمونها بأنفسهم؛ علما بأنهم حذرة قراصنة المضي ومنهم من يقوم حاليا بقرصنة عندما تكون القرصة موقفة. وهم يتفرون على زوارق كبيرة، لا يعرف مصدرها، تستخدم الصيد ولعبور البحر. ويطلو هؤلاء القراصنة القنوب والمراكب الشراعية الصغيرة التي تقترب كثيرا من الشاطئ، مستعملين الأشرعة أو الخنط.

وقد روى لي صاحب يخت بخاري صغير منذ بضع سنوات، كيف سولت له نفسه منلوثة زورقين ريفيين بين بانيس ورأس الموريسكي. وفي لحظة معينة، ضخت سرعة يخته؛ فقترب منه الأمازيغيون الذين كانوا يجفون بقوة، وكاد هذا السلوك المشهور أن يؤدي بحياة صاحبه، لأنه ما أن شعر القراصنة بأن المركب تطلق بسرعة أكبر، حتى أطلقوا عليه ولها من الرصاص ما يحاذل هذا المسافر الجريء.

والرجل في بقوة مشهود له بالبطولة التي لا تضاهي. فهو مهيب الجانب من طرف كل جيرة، ويرتدي جلباب سوداء قصيرة جدا وسروالا من القطن الأبيض يصل إلى ركبته وتلين مصنوعين من الحقلة. ويشد وسطه بحزام من الجلد عليه بالرصاصات والمسدسات والخناجر وهو يشبه أختي الصحاريين القبليين بهندقيته التي لا يفارقها ورأسه القوي وضخمة شعره المسترسل وراء ظهره. ورغم أنه مسلم فطر، يصلي قبلا ولا يختل إلا نادرا، فإنه بالمقابل، يطبق قواعد الضيافة بطريقة صريحة وودية. وهو لا يتوفر على مكر ودهاء العربي؛ إنه يمثل الأمازيغي الصارم الذي لا يعرف المراح ويكره النفاق والكنب. وهو قاس لحياتنا إلا أنه يظل دوما صريحا وواصحا وعظيما.

ومما لا جدال فيه، فإن قنوز المنطقة فوق كل يمتد البصر من خلاله إلى سهل المجاور والبحر، هي بمثابة متينة. فمناصعة بقوة حلقه، بأزقتها الواسعة والقذرة وحزامها الكثيف المكون من أشجار الصبار المحيطة بها من كل جانب، هي ملقى تهازل وطيلة كل القبيلة. فهناك تتم أهم المبادلات التجارية في كل السهل، بعد مغالبة طبعها. ودخل المنازل الموجودة بالمدينة وعددها

700 تقريبا، تعيش سلطنة تيجانوز 3 آلاف نسمة. ففي هذه المتروبول البقوية التي يفخر بها الأملي، يوجد كل شيء: متاجر وكلكين مغنية بالفضة ومقاهي تستهلك فيها كميات كبيرة من الشاي الإنجليزي الذي يساوي سنتيما للتجان ومطاعم تأخذ راحة سمكها المقي بخناق المارة. ويبدو وكل هذه المدينة الممتدة من طرف الموريسكيين الأندلسيين، قد بلوت خصيصا بذلك المكان المقي لمراقبة سلال الإمبراطورية، عبر مدخل الهناء المتوسطي المصيق.

ويوجد العديد من الطلبة بالمدينة. كما أن اللغة المتكولة هي تمازيغت الفالصة المنتشرة من بقوة إلى بني سعيد بالسلال، مخترفة الجنوب حتى كزنلية. إنه قلب الريف البعيد عن الخارج والذي لم يسبق له أن تكرر باللهجات المغربية الأخرى. وتمازيغت بالنسبة للعرب هي الرغبة ويدهونها لها الفلحة. وهذه الكلمة الأخيرة تطبق دون تمييز على كل اللهجات الأمازيغية. ويشير إلى الأمازيغ بالاسم العربي المشترك شلوخ ومفرده شلحي. وقد تولدت عن هذه الكلمات أخطاء شائعة تصممتها مؤلفات الأوروبيين الخاصة بالمغرب. وسنعني الاثنوغرافيا والجغرافيا والكتابة الإملائية، مرة أخرى من جهل المؤلفين الذين كتبوا صفحات طويلة حول شعب يجهلون كلا من لغته وعاداته.

وقد سجلت بعض الاختلافات اللهجية dialectales بين القبائل التي تستعمل فيها تمازيغت الفالصة. ولا تتعلق هذه التباينات إلا ببعض الكلمات المتكولة بشكل كبير. وإليك بعض الأمثلة:

الكلمات العربية	بقوة	بني ورياحل	بني سعيد	بني وثشك	بني تولين
هذا	Thiouchcha	Aitcha	Taitcha	/	/
أطفال	Ih'ramen	Ih'ramouchen	inouyba	Ih'louloumen	/
بيض	ihimedjdjarin	Thimeddarin	Thimerrarin	Thimellalin	Thichemrarin
مسحوق	Aberkan	Aberchan	Aberoud	Abertchan	Aberkan
الآن	Roukha	Rekhdhou	Rouk'a	Louk'a	Iek'kou

فرغم مظهره كبلد جاف، فإن تراب بقوة أهل بالسكان، بحيث تجد القبيلة تسعة آلاف من المشاة. كما يسمح وجود العديد من الطلبة بأوز وبالقوى الكبيرة، بزيادة الطب الشعبي. فالطلاب يكتب على فصلصات من الورق، عبارات لا يعرفها غيره. وهذا "الحجاب" الذي يباع في الحالات العصيبة بثمن باهظ يطوى داخل جيب جلدي ويتم وضعه على العضو المصاب.

ولا يكون تدخل هؤلاء الممارجين المثيرين للضيق، خوفاً ولا بسطاً على النوام، لقد رأينا الجريئات من بينهم، يقومون بعملات جراحية مؤلمة، وليس حظهم، فإن المرضى يتلقون الحجاب طواعية ويرفضون العمليات الجراحية، وبصرامة في غالب الأحيان . وفي الحقيقة، فإن الطبيب غير موجود في الزيف، ذلك أن المناخ صحي بشكل عام، ويحترق الحول (الحجاب) بواء الزيفى المريض، وأحياناً ما يحرق الإيمان الصديق بمفعوله، بعض المحجلات.

وقد سمحت مجاورة بني ورياحل الذين يحطون للموسيقى قيمة كبيرة، يجعل أهالي بقوة شغوفين بالأغنام، أو بالأحرى بالصناعات الفخمة منتشرين بكثرة وهما : قناني القصبي والطفل.

وتحتل بقوة باستقلال مطلق، فهي تدير وتقبل أبنائها الذين يديرون شؤون القبيلة، تحت المراقبة القامة لأعضاء الجماعة. وهؤلاء الأعضاء يتميزون عن الأشخاص العاديين بمجالاتهم السوداء وبشريط من شعر (وبر) الجمل، موضوع حول رؤوسهم. وقد قيل لي بأن بعض المؤلفات المكتوبة بالأمازيغية، والموجودة في بعض المكتبات، تشير إلى الأصل الروماني لأهالي بقوة، وهذا لا يمنع القبيلة من التوفر على عدد كبير من الأولياء والصلحاء. ويمكن إحصاء 110 مزاراً لها يطلق بأولياء القبيلة وعدم. أما الحيطان الصغيرة المبينة بالحجر والتي تشير إلى مرقد أحد الصالحين، فلا حصر لها.

القرى الرئيسية بقبيلة بقوة

- يفران أو يفران (الكبار) (التسمية أمازيغية)، 20 منزل.
- أنوز (الصغرى) (التسمية أمازيغية)، 700 منزل.
- تيفانيت (السمود) (التسمية أمازيغية)، 50 منزل.
- بوسكور (من له الجمل) (التسمية عربية)، 10 منزل.
- إمر حيلان وأما (الحقل السفلي لعيش)، 100 منزل.
- إمر حيلان وأما (الحقل العلوي لعيش)، 100 منزل.
- تافنسا (تافوس) وهذه الكلمة مأخوذة عن اللفظة اليونانية τῆνος، التي تعني المصباح وهي مدينة من 500 منزل، تافس أنوز في التجارة والدراسات القرآنية.
- بوججوم (من له الشعارير) (التسمية عربية)، 50 منزل.
- تافنيت (القلعة الصغيرة) (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزل.
- تيفانيت (الطبقات) (التسمية أمازيغية)، 50 منزل.
- ميدي محمد أقران (الكبير)، 50 منزل.

- سيدي صمد، سوق الإثنين الكبير، 50 منزلاً
 - إرمون (شجر الزيتون) (التسمية أمازيغية)، 500 منزل. وهذه المدينة الصغيرة
 محاطة بغابة من أشجار الزيتون. أما التجارة فمحدودة بها
 - سيدي مالك، 50 منزلاً. وفي كل يوم السبت، يقام بهذه القرية سوق مخصص للنساء
 فقط.

وهناك حوالي 20 قرية أخرى متفرقة بالقبيلة.
 القوى العسكرية تسعة آلاف من المشاة، عدد السكان المحتمل 45 ألف نسمة. السهل ممتد
 في كل مكان. وتكثف بقية كما هو مثبت في الخرائط من ثلاثة أقسام وهي: ألوز شمالاً
 وتيجنيت وإرمون جنوباً. ويحيط في هذه القبيلة العديد من المتمردين الإسبان الذين نجوا من
 المحاكم الإسبانية. وسنحدث عنهم بالتفصيل عندما نكون في ضواطة بني ورياغل.

29 قبيلة بني ورياغل

بدخولنا إلى أراضي بني ورياغل، لننتقل من سهل عار وهو سهل بقية، إلى بلد كل
 قيساط، مغطى بنبات القمح. وقد كانت المفاجأة غير سارة بالنسبة للدرويش على حدود القبيلتين،
 حيث تم سلبه أمتعة من طرف ثلاثة لوعاء، اعتقدوا أنه من بقية وخطبوه قائلين: ' Agger
 ibek'kouyin khaf sen ai netcheuch (نحن نبحث فعلاً عن أشخاص من بقية، اطلع
 ملابسك).

وبما أن الرحلة كان متردداً في نزع ملابس، أضاف قطاع الطرق قائلين:
 Hak'k sidi bou khiyar, ama our theksedh erkesoueth rekthou h'acha ma
 'nenr'itch

(وحق سيدي بوخيار، إن لم تنزع ملابسك فوراً، فلنأخذ منك بكل تأكيد)

29 - إن الأمازيغيين الذين استقرت بهم حول أصل هذه القبيلة، لم يبدون في شيء. فالبعض يرمي بأنه تاليس كلمة
 ourier'li (لم يسقط)، وآخرون يبدون بأنه جمع لكلمة er-moul (القول). (كلمة عربية ولمازيغية). أما
 الذين يقولون أنهم من (ra) فيهم ينطقونه ourier'er. والجزر رغل موجود في العريضة، لكنني إن أف
 على هذا الأصل، متأكد أن أف على الأصول السابقة.

وسمى محمد أولاهم، بحيث أن يتركوا له سوى قميصه (القشدير)، وعظماءه بعض الأهل بعد ذلك، في تلك الحلقة، سأله عن الذين ضلوا به تلك القصة، وبعد سماعه لتفسيراته، غلبوا مدة رغبة البحث عن المجهول، غير أنهم سجدوا بعد ذلك، ساجدين بأنهم لم يجدوا أحدا، ويستطيع محمد طريقته، إلى أن وصل إلى قرية كبيرة من كف منزل وهي أجدير.

إن أجدير الواقعة على جانب منصرف، تتوفر على خمسة مساجد وكان أكبرها هو المسجد الذي لجأ إليه الدرويش طالبا الضيافة والملابس. وتكفي في هذا المسجد خطبة الجمعة (وهي صلاة الجماعة التي تقام على شرف المنار)، وتعلم فواعة الأساسية لهذا البناء، حجرة الفكور، وهي جزيرة جدياء، محطة من طرف الإسبار مثل *Pedon de velez*، وذلك منذ أكثر من ثلاثة قرون. وقد ثبتت حجرة الفكور من طرف الإسبار بالمصيبة *Albucernas* (الخراسي)، وهي كلمة مستمدة من العربية مع تحويل بسيط إذ أصبحت الخراسي هي المصيبة.

وفي ساحة المسجد الكبير، تترامى كرات المدافع والقذائف التي وجهت صوب أجدير من طرف المحتلين الحاليين للمصيبة. ولم يفكر الأهل في الرد بقذائفهم الخفيفة الموجودة هنا وهناك، بالأرصفة أو خارج القرية. وتوجد بباب المسجد ثلاثة مدافع ذات فوهات مقلوبة الفم. أما المسار الممتدة وسط شجيرات القيقب الوحشي، فهي متباعدة بعضها عن بعض، ويرجع هذا الوضع إلى الشعور المدني القوي الذي يكنه الفرد من بني ورياحل لجيراله الذين يحترمون من لمطر أجدير. لكن يمكن تفسير هذا الوضع أيضا بحسب القضاء الشاسع وكراه كل ما يضيق لمبادئ المفتردة بالاستقلالية.

في الأراضي التي تقام فيها القبيلة شائعة جدا، فهي تمتد على مسافة ستين كيلومترا تقريبا من الشمال إلى الجنوب وعشرين كيلو مترا من الشرق إلى الغرب. وتوجد تسمين على يمينها وبقيوة على يسارها، وبالشمال يوجد البحر الأبيض المتوسط الذي يفرض في حق الأراضي له شكل الهلال الواقع لرسمي المجاهدون *Marsat Imjahden*، المسمى من طرف الإسبانيين: خليج المصيبة. وبالجنوب، نجد قبائل الريفية التي يمكن قراءة أسمائها على الخرائط. ذلك هو الإطير الذي يحدد بني ورياحل، الذين اشتهروا بفعل موقعهم الجغرافي، بكونهم يمثلون قدم الريفي الخالص واللغة الريفية الخالصة.

وتتوفر هذه القبيلة المنظمة على 11 قسما وهي: أجدير من جذرة، أي ما تبقى من جذور (نطل)، قسمة عربية، أيت موسى وعمر (قسمة عربية ولمازيفية)، إبرايض (المرابطون) (قسمة عربية ولمازيفية)، أيت حنيفة (قسمة عربية ولمازيفية)، أيت زيان

(التسمية عربية ولمازيغية)، أيت عبد الله (التسمية عربية ولمازيغية)، كمون (التسمية عربية)، أيت ونزار (أبناء الجبل) (التسمية لمازيغية)، مشكور (التسمية عربية)، نزامورين (أشجار الزيتون) (التسمية لمازيغية)-. وينطلق هذا التعداد من الشمال إلى الجنوب، وكل قسم من هذه الأقسام يحدد ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف بندقة، بمعنى أن مقاتلي بني ورياعل يشكلون في المجموع 40 ألف مقاتل تقريبا، مطعون جميعهم ببنائق إنجليزية وإسبانية ذات طلقات متكررة.

إن بني ورياعل قبيلة كثيرة الحركة وهي جموحة وغير قابلة للترويض indomptée et indomptable وتعيش في أوضاع قاسية. ونادرا ما تهجم القبائل المجاورة لها، غير أنها تعيش حالة حرب دافعية والقتال لأفوي Fratricide بين قسم وآخر وقرية وأخرى ومزبل وأخر. ونادرا ما يخاف الرجال منازلهم بسبب الاعتداءات المتكررة، لذلك فهم يضطرون إلى التخلي عن المعاملات التجارية والفلاحية والرعوية. ولحسن الحظ، فإن النساء هن اللواتي يعوضن الرجال، حيث يرهبن بنفلة عاقبة، الممزقة الأجناب الذين يلتون إلى القبيلة طلبا للشغل.

والورياعلي إيمان صلب لا يقبل المهانة ويتحمل بصموبة حضور المسلمين، عربا كانوا أم أمازيغ، إلى قبيلته من أجل التجارة أو الدراسة. وهو يكن كرها لغيرنا لليهودي الذي إن خطر بباله لهذا المعجم، يوما إلى هذه القبيلة المرعبة.

وقليل من الأفراد يصلون إلى سن الشيخوخة. فهؤلاء الإخوة الأعمام، يحصد بعضهم بعضا قبل أن يغزو الشيب خصائل شعرهم الطويلة. وقليل ما نجد شابا لم يشن جسده بالجراح. ويشعر المقاتل بالعار، إذا لم يكن قد أودى خمسة أو ستة أشخاص ! فالورياعلي يواجه الموت برباطة جأش، ولا يخشى الموت بالقسبة إليه شيئا. لذلك، فهو يعتبر حياة الغير لا أهمية لها، فهي مثل حياة ذبلة. وعندما يموت رب العائلة، مائة عقيقة أو طيعة، فإن موته يكون مناسبة للاحتفال تقريبا، إذ يقام أفراد عائلته مأدبة فاخرة، يدعى إليها كل الحاضرين للجنائز. ويحتفل على الخصوص، بالطلبة الذين يسبرون في الموكب الجنائزي وهم يرددون أبيات البردة، تلك القصيدة العربية في مدح الرسول.³⁰

³⁰ - ومطلع القصيدة هو :

فمن نكر جيران بني سلم ﴿﴾ مزجت نسا جرى من مقله بهم.

وقد أجزى بنس MR. Basset ترجمة جيدة لها (باريس، لوروا 1894)، وهي الترجمة التي كنا بتأجيلها بشكل عام. فنظر بهذا الخصوص:

Bulletin de géographie et d'archéologie de la province d'oran, fascicules LXII et LXIII, Juillet à Décembre, 1894.

وكمترمتين غير متساويتين، فإن هؤلاء الرجال المرعفين لا يسمحون بوجود شخص ما بالمصطفى أو بأي شكل آخر، قرب زوجاتهم، فعندما يصلاف المرأة إعدامها، وجب عليه أن يبتعد عنها دون النظر إليها، وإلا تلقى طلقات بنادق أهلها. ولهذه الغيرة ما يبررها، لأن المرأة فورياعلية جميلة جداً، وحتى الرجال أنفسهم وسمون، فهم يحلقون وجهم عن آخره، ورأسهم لوصاً، باستثناء الضفيرة الوطنية التي تسترسل نازة وراء ظهرهم وتارة على صدرهم. وتقام في كل أسبوع سبعة أسواق بالقبيلة: سوقان يوم الإثنين وولحد يوم الثلاثاء وقتل يوم الأربعاء وولحد يوم الخميس وآخر يوم السبت؛ وهذا السوق الأخير مخصص للنساء فقط.

ومع أشخاص غير متساولين مثل بني ورياعل، فإن كل تبادل وكل تجارة، لا يمكن أن يتم إلا إذا ما صنعت للتجار الغرباء ثلاثة أيام من الهدنة في الأسبوع يكون وجودهم فيها غير معرض للخطر نسبياً. وعندما تنشب معركة بالسوق، وهو ما يحدث في الغالب، فإن البراهين يسارعون بالنداء: "على الغرباء مغادرة السوق". وسلوبهم الجموع دلالة هذه الكلمات إذ يهرب الغرباء تاركين أهلي قبل يقتلون فيما بينهم بضراوة لا مثيل لها.

وهذه العادة الغريبة للأجانب، توجد أيضاً ببغودة وبقيال ريلية أخرى. ويتوفر كل قسم على قائد خاص به، منتخب من طرف الجماعة. ويتم الحصول على مصافقة السلطان شكلها على هذا الانتخاب، بحيث يتلقى بالمناسبة زيارة وهدايا الرئيس الجديد. بعدها، سيرجع هذا الأخير إلى هيلته مرفوقاً ببعض الجنود النظاميين (المغازنية) المكلفين بتحصيل الضرائب التي لم تود جزئياً أو كلياً. وسيسندل القائد حضور هؤلاء الجنود ليمارس التقلبه ويقوم بشتى أنواع الابتزاز. وما أن يعود للمغازنية من حيث أقوا، حتى يصبح القائد مجرد شخص عادي، يسهر فقط على سلامة نفسه، والملابس بني ورياعل شبيهة بتلك الموجودة ببغودة؛ إذ يرتدي الرجال والنساء ملابس صوفية، مصنوعة ومصبوغة داخل القبيلة.

ويستدعي تولد الإسمائين بصفحة الذكور، تجنيد بني ورياعل في كل شهر، لمسة حارس مكلفين بمراقبة هذه الصفحة المملونة. وتقدم الأقسام الإحدى عشر رجالها بالقتلوب؛ حيث ينفي المقتلون ثلاثين يوماً على شاطئ البحر بغياسهم وأسلحتهم وكل أفراد عائلتهم. وهم يراقبون حركات وتحركات أفراد الحامية الإسبانية، ويكونون على أهبة استعداد كل محولة إنزال قد يقوم بها الإسبان بغليخ المجاهدين. وقد سمي فرديفون خليج الصيمة بهذا الاسم، لأن آلاف الأبطال المسلمين المجاهدين سقطوا تحت ضربات الكتل. ويعتبر هذا المرفأ المروي بدماء كل هؤلاء المجاهدين، كألرض مقدسة وكمحج للزوار الأتقياء. ولقاء كل تغيير الحراس، يقدم

* ملحوظة المترجم: ينطق الأمر طهما بصيغة البردة الشهيرة للإمام المصوري

والفردون الجدد أنشأت مبيدة، على قبور المجاهدين المنفونين بالمساحل. ومن بين هذه القبور المباركة نجد: سودي الحاج سميد، سودي محمد أركان وسودي دلوود، الذين مقتوا، منذ زمان، وهم يقتلون من أجل الدفاع عن معتقداتهم. إنهم مجاهدون imjahden كما يقول الريغون الذين اختزلوا هذا الاسم المستعار من العرب. وهناك قبب صغيرة تشبه إلى المكان الذي نقل فيه هؤلاء المجاهدون إلى مثوانم الأخير.

ويتكف المركز الأمازيغي الواقع على شاطئ البحر قبالة الصخرة الإسبانية، غير بعيد عن أجدير، من بناية كبيرة هي عبارة عن تكتة بيوت عديدة ومن مسجد. وكل من التكتة والمسجد محمولان بكتبان من الرمل، تحجبهما عن أعين الأعداء المتولجين بصخرة النكور. ويتوفر الريغون على حوالي مائة من المدافع القديمة غير المستعملة. وهم يتهمون الإسبان طبعاً بتثبيت هذه الآليات غير الصالحة بواسطة إخوة مزعومين، ثم استلجأهم لهذا الغرض. ويستعملون بنفقتهم ذات الطلقات المتعددة بمهارة، حيث يطلقون الرصاص وراء كتلتهم الرملية، ذلك الحاجر الطبيعي الذي وضعه الإله الطبيب عن قصد، كما يقولون، لإبطال تأثير القذائف المنبثقة من مدافع الأعداء.

إن خليج المجاهدين المحمي من الرياح الشرقية والغربية ينتهي عند رأسين وهما: Cap des maures و quilales. والسؤال المطروح هو: هل من الممكن مستقبلاً استعمال هذه البوابة الشاسعة التي تفتح بشكل كبير على ربح الشمال، عندما تحل المحاصرة المتساعسة محل التمسب؟

وتوجد صخرة النكور، هذا المسكن البحري الرهيب، على مرمى بنفخة من المركز الأمازيغي القاتم باليابسة. ويمنع منعا كلياً على الريغين بيع أي شيء للإسبان الذين يظنون على الدول محاصرين بصغرتهم. غير أن بإمكان الأمازيغيين غير المسلمين أن يذهبوا إلى الجزيرة الصغيرة للتبضع. ولا يستقبل الريغون سوى القليلين من الجندي أو السجناء الإسبان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والذين يفضلون الحياة بالريف على البقاء بالصخرة المرعبة. ويقر أغلبهم، عبرين المسافة سباحة أو بواسطة قوارب يملكها الأهالي. وما أن تطأ قداسهم اليابسة حتى يرفعوا أكتفهم إلى السماء، مطمئنين شهادة أن لا إله إلا الله ولي محمد رسول الله، بطريقة ركيكة، وسيكون هذا الأمر كافياً لإقناعهم، إذ أن الريغين لن يعملوا قط على حمايتهم من كل اعتداء، بل سيمنحونهم بكل سرور، الملابس والمال. وسيخصص لهم منازل مريحة وحقل يطمونه بكل حرية. وإذا ما أراد أحدهم الزواج، فإن الخبر ينتشر بالقبيلة، وعلى الفور يسرع الأشخاص الأكثر

ثراء باقتراح بنقلهم كزوجات. وتقتصر الفتاة التي تم اختيارها للزواج من هذا الشخص الحديث المهد بالإسلام، والذي ستتم بتكملة تعلمه الديني.

لقد لفت في مقدمة الكتاب بأن المسلم داعية * وعلى أن أضوف: وكذلك المسلمة فكما تحدثت مع ربات أسر مسلمات ومحترمات، إلا وبأذن بطرح مسألة الدين بهدف تبرهنه على امتياز الإسلام مقارنة بالديانات الأخرى.

هي حين يرفض اليهودي نعلما دعوة الآخرين إلى اعتناق دينه، ويتخذ المسيحي موقفا سلبيا أكثر فأكثر من هذا النوع من الدعاية، فإن المسلم ظل بمثابة الدعاية المتمسك الذي ينكرنا بالقرون الهجرية الأولى. فهو مازال يعتقد وبثقة، على أن الرومي الذي اعتنق الإسلام سيخلج لجنة قبل أولئك الذين دخلوا عن الإسلام، بل وسيعمل أفضل منهم.

ونفهم الآن، لماذا يجد هؤلاء القضاة الهاربون من قشور الإسبانية بالساحل الريفي الاستقبال والحلوة من طرف الأمازيغيين المهامي الجلب في كل أرجاء الإمبراطورية الشريفة. فالمركز الإسباني الذي يتمتع في المغرب باحترام لا يحظى به البابا نفسه، يستغل بمهارة هذه الوضعية الاستثنائية، كي يمتلك مجانيا موارد لم يحظ بها حينما كان يجر قيوده كسجين أو حينما كان يقوم بدورية الحراسة وهو يوجب أرجاء القبيلة بزي الأهالي، بكامل الارتياح، حيث يستقبل بحفاوة أينما حل، ولا يحرب إلا من خلال لكتته الأجنبية. ونجد الكثير من قمرتين ببقيرة وأغلبهم فروا من Peñon de verez. كما نجد البعض منهم ببني يلفت وبني بوفراج، وهم أحرار في الذهاب أينما شاءوا، لكنهم لا يتحدثون عدة عن شاطئ البحر، حيث يمكنهم رؤية سجنهم القديم. ويذكر أن بعضهم اغتلى بفلس وبمراكش، وأن البعض الآخر اندمج في القبائل الداخلية. وقد كانت لهم ذرية بالبلد، ويجهل حلفتهم بأنهم ينحدرون من رومي كان محكوما عليه بالأنفيل الشاقة في سجن بالساحل الإفريقي. وتبدو جزيرة النكور صغيرة المساحة مثل جزيرة بانيسا وهما متشابهتان، إذ يوجد بهما الجنود والذكاكين والسجاء. ومع ذلك، توجد أماكن مضبوطة تسود فيها الخلاعة ويقول عليها الأمازيغيون أنفسهم.

ويجلب الإسبان كل شيء من بلادهم، بما في ذلك الماء الضروري لسكان هذه الصحرة الهبسة. ويقطع مركز ريفي للجمارك لهم بالقرب من مركز الحراسة على الهبسة، فتكون من البضائع الأثيرة من إسبانيا عن طريق النكور.

* ملحوظة المترجم: يستعمل المؤلف كلمة *Prêtre*، وهي أقرب إلى التصور المسيحي منها إلى التصور الإسلامي. لذلك اقترحت كلمة داعية تعريب المعنى أكثر. فنظر ملاحظتنا السابقة بهذا الخصوص.

إن بني ورياهل يملكون أرضا خصبة عميقة بمناخ غزيرة المياه. وفي الأقسام الشمالية تسمح السهول العشبية والمتوجة قليلا، للأعالي بزراعة الشعير والقمح. وتتوفر كل قرية على حزام كثيف من الحدائق والبساتين التي تنتج كل ما يمكن تصوره من فواكه وخضروات. وتوجد بهذه القبيلة التي يبلغ عدد سكانها 200 ألف نسمة تقريبا، أكثر من 200 قرية يتراوح عدد منازلها ما بين 10 و 100، ويخترقها من الجنوب إلى الشمال واد غيس (واد الطمي) الذي يصب بخلج المجاهدين تحت اسم واد الفكور. بعد أن يفقد ثلاثة أرباع مياهه التي يستغلها الأعالي المتواجدين على ضفافه، لتسقي حقولهم. ويفصل هذه المياه للخدمة لمتلن ضفاف النهر من القيع إلى البحر، بأشجار القيقن والجوز واللوز والرمان والتفاح والشمش الخ... إن هذه القبيلة الأكثر غنى على مستوى المياه والأشجار، تتوفر بها كل شيء على بساتين شاسعة وحقول ومروج تشقها المناخ المتواجدة بكثرة بالمنطقة. وبالجنوب، وتحديدا بليت وثرازة، توجد قرية جبلية صغيرة مكدسة بأشجار الزيتون. ويتعلق الأمر بجبل سيدي بوخيوار، الذي يشكل تقويع الطوي مضبة واسعة شيدت عليها قرية من 100 منزل. وهي زلوية سيدي بوخيوار التي تقتصر بحفظها على رغبات الولي القروسطي سيدي بوخيوار، سيد قبيلة بني ورياهل برمتها.

وما يضيف على جبل بوخيوار أمونه، هو على ما يبدو الكنز العظيم الذي يملكه منهم فذهب فواقع بسفحه الجنوبي. وقد كاد هذا المنجم أن يؤدي إلى أزمة دبلوماسية بين فرنسا والمغرب. فعند بيعه صفوات، سجل القاضي تارجومت، السيد الطنار وشريكه قائد أوت ودرار اللذان زعما أنهما وكيلا للقبيلة بني ورياهل، عقدا للبيع، وتم بمقتضاه تسليم المنجم إلى شركة فرنسية، سبق لها أن توصفت من عديد الشخصين بعينة من أجل القلع الذهبية. ونفقت الشركة أموالا كثيرة معتقدة بأن العملية قانونية ومربحة. وبعد أيام ظهرت بمياه خليج المجاهدين، سفينة تحمل العلم الفرنسي وعلى متنها مهندسون وعمل وكال الآليات الضرورية لاستخراج المعن. وتم إراق فورب سفينة بالعمل. باتجاه الشاطئ. غير أن بني ورياهل الذين لم يلهموا سبب هذا الغزو، من نوع جديد، لأنهم لم يكونوا على علم بالعملية، سيتصدون بصرامة للزول الفرنسيين. وسيصل الخبر إلى قبيلتي تسمان وبقيوة اللتين سترسلان على الفور مقاتلنهما. وفي أقل من 24 ساعة، كان هناك 60 ألف من الأمازيغيين المسلحين الذين هبطوا بكتلتهم الدائكة، ساحل الخليج. وقد اتخذ مظهرهم شكلا عاقيا إلى الحد الذي اضطرت معه السفينة الفرنسية إلى الرجوع بسرعة من حيث أتت.

ولما شعرت الشركة الفرنسية بأنها خدعت، رفعت شكايتهما إلى السلطان الذي سيتدخل من هذه الورطة ببراعة وبالمخيلة المعروفة لدى العرب، مشيرا إلى أن الأمر يتعلق بعملية

نصب لقرنها عنصران من الأهالي لم يفرضا أبدا من طرف الحكومة المغربية التي تعتبر هي المالكة الوحيدة للثروات المعدنية بالمغرب كله. وسعد في الأخير بمحاكمة النصابين بصراحة، وبذلك عادت الشركة بخفي حنين.

من جهةهم، فإن بني ورياحل سويتانظون من جراء عملية النصب التي قام بها قائد أيت ودرار المسمى علي بن يحيى، وسيتوجهون جماعة إلى منزله، حيث سيقومون بإحرقه ونهب ما به من أمتعة. وسيطاردون هذا المحتال الذي لجأ عند بني توزين. غير أن أهالي هذه القبيلة المتقدمة بتواعد الضيافة، سيرفضون تسليم الجاني إلى أفراد قبيلته الذين كانوا عاكفين الحزم على تطبيقه إربا إربا وسفك دمه، لأنه كذا أن يصب في دخول النصارى إلى بلدهم. أما المحتال الآخر، وهو القاضي تارجيست، فإنه لم يتعرض لأي سوء نظرا لبعد قبيلته، وسيقتل بسرعة فائقة. ولأنه لم يحرف كيف يستعمل النقود الذهبية الفرنسية التي اختلسها بجرأة، فإنه سيوظف سكرتيرا وسيعيش في رخاء، متعنا نفسه بكل الخيرات الموجودة بالقرب.

والنتيجة المثيرة في هذه القضية، هي اكتشاف السلطان لوجود منجم للذهب بقبيلة بني ورياحل، وهو ما كان يجهله من قبل. وبذريعة منع النصارى من الاستيلاء على هذا الفكر، سيبدأ حملة صغيرة من الجنود النظاميين، في النقطة التي يسهل فيها استخراج المعدن، مع منع أي واحد من الاقتراب منها.

هكذا، فإن أهالي المنطقة الذين كان يبتكفهم من قبل، المتاجرة على قشاطر بهذا المعدن الثمين، لم يعد مسموحا لهم القيام بذلك. واندرا ما تمكنوا أثناء الليل، من سرقة بعض الأحجار القيمة القيمة والتي يبيعونها بثمن بخس. وبالجانب، غير بعيد عن جبل بوجهار، نرى جبل الرصاص وهو يتوفر على منجم كبير للرصاص لا يستغله أحد.

ومن الغريب أن نجد في قبيلة عذيفة مثل بني ورياحل، كما لا يهتم إلا بالموسيقى. وينطلق الأمر بيني عروس الذين يمتنون الحرب. فالفن المتمثل في الموسيقى الألبية والغناء، يأخذ كل وقتهم. وكل مسافر بطا لرصهم، يصاب بالقسم من جراء الضجيج القطيع الناتج عن قناري القصبي والطبول التي تصاحب زعيق هؤلاء الغنّاقين المتقين لسلهم والذين يقومون بتكريب مضربة قبل أن يحرقوا الحفلات في القبائل المجاورة. وإذا ما كانت الموسيقى تلبس طباع فإن الرقص يفسدها، وهذا ما يلاحظ على الأكل عند أيت عروس الذين تعتبر نسلهم والصلوات بالرحلات ومنهكتات في نفس الوقت.

ويتكون طعام الفريز من الحنظل والحصى والقول والفواكه والسمك. أما المخللات الموسرة فمستهلكة في المناسبات الاحتفالية، اللحم المشوي أو المسلووق. وتوجد الطرقات بكثرة في القبيلة، كما تمنح الغابات بالمخازير وهناك أوى التي يطارد بها فرعا أحيانا بكاتبهم.

القرى الرئيسية ببنى ورياحيل

- أهدير، 1000 منزل
 - تافراست (قلل الصخرة / المصطبة الصغيرة) (التسمية أمازيغية)، على حافة البحر الأبيض المتوسط، 500 منزل
 - تارودانت (الحجر)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 300 منزل. ويقام كل يوم السبت بالشمال الغربي من القرية، سوق خاص بالنساء فقط.
 - أيت موسى وهر، 300 منزل، ويقام كل يوم الأربعاء، سوق بشرق القرية
 - تافراست، (الحقل الصغير)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل
 - تلافين، (القيسون)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل
 - مولاي بطوب، 50 منزل
 - إيتين، (ملكو الأرقب)، (التسمية عربية وأمازيغية)، 500 منزل
 - زاوية سيدي يوسف، (التسمية عربية)، 500 منزل
 - تيزمورين، (أشجار الزيتون)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل. وسوقها الفرويش في هذه القرية بعد الأضحي سنة 1890. ويقسم ولا خمس القرية إلى قسمين وأحيانا ما يضر مواه بناتها البسيطة.
 - الخميس، 500 منزل، يقام بها سوق الخميس.
 - كمين، (التسمية عربية)، توجد القرية فوق تل ويقام بها سوق كل يوم الأربعاء.
 - زاوية سيدي بوكهار، 100 منزل
 - مشكور، 300 منزل
 - إهلونين، (أبناء حارون)، 150 منزل.
- القرى العسكرية، 40 ألف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 200 ألف نسمة.
- السهل منموج من كل جانب. وتوجد بالقبيلة مسالك عديدة. فتعلم القراني منتشر بكثرة. وهناك أكثر من 200 قرية صغيرة لم تمكن من معرفة إسمها. وتوجد العديد من المنازل بطابق واحد.

قبيلة تمسمان

(النثر والماء) ، (التسمية امريغية)²¹

ينطلق الدرويش من أيت موسى وعمر، وهو القسم الشمالي لبني ورياغل، ويستتبع طريقاً موازياً للبحر، فليصدا قبيلة تمسمان. هكذا، سيترك وراءه السهل الشاسع للتكور الذي يمتد إلى ما وراء الحدود الشرقية، حيث سيأخذ تسمية أخرى.

ولسوء حظ الرحالة، فإنه سيقع من جديد في ورطة أخرى، فبعد أن عبر واد الحديد، وهو نهر صغير يحد كلا من بني بو دلوود وأيت موسى وعمر، تقاهى إلى سممه صوت طلقات ناربية قوية. وكان رجل من بني ورياغل يجري بسرعة ويقفز فوق التربة البستان الثقيلة التي لم يمر على سفيها وقت طويل. وعند رؤيته للدرويش، توقف مستقداً بقلبه أمام فرد من قبيلته وغمر له بحب إلى ما يناهز المائة من رجال ونساء أيت موسى وعمر، أرادوا الاستماع بهبوط الخضر (دلاج) مسروق من أحد البساتين، خلال رجوعهم من زيارة قبر الولي سيدي شعيب ومفتاح، ببني دلوود (تمسمان). ولأن حارس البستان، وهو دلوودي، أراد منهم، فقد تم جرحه بطلقة بندقية. وها هم الآن مطردون من طرف أكثر من خمسين ملكاً لبستين بني دلوود الذين قتلوا ثلاثة أفراد من بينهم. ولم يصف الرجل شيئاً، إذ من المحتمل أنه كان ذاهباً للبحث عن مساعدة وتابع جريه باتجاه حدود بني ورياغل، تاركاً الدرويش مذهلاً من جراء الطلقات النارية التي كتبت تقرب منه تدريجياً. وبرز شخص آخر، من بني ورياغل مطارد ومرعوب، بحيث مر أمام محمد دون أن ينتبه إليه. عندئذ اختبأ الرحالة داخل دحل الأشواك التي كانت تسمى جسده، غير أن القنار الثاقب للورياغلي سيكتشف مخبأه، وكاد أن يقتله كلرب، لولا أن الدرويش صاح: 'تمهل، إني من بني عروس'. ولم ينس الرجل بكلمة، بل تابع جريه. وتقرر للدرويش لصداه إثر ذلك، إلا أنه سيقع بين يدي ورياغلي آخر، سيسلبه أمتعته فوق أراضي تمسمان نفسها. وهذا الشخص الثالث من أيت موسى وعمر، وقد أوقف الدرويش زاعماً بأنه إسباني متكرر في رأي أمريغي، وأمره بإعلان شهادة أن لا إله إلا الله. وتجراً محمد في البداية، حيث خرج من مخبئه وقال للرجل: 'أعلن الشهادة بنفسك'. وبالفعل، أعلنها هذا الأخير بأنة ثم صوب بندقيته

²¹ - يلعب الأمريغيون شبه العازقين بالكلمات، حينما يتعلق الأمر بهذه القبيلة. فهم يأتون: ولين ما تمس لمان (لينا لمت - الأرض - تجد الماء). والمقصود على التلاعب الجنسي بالكلمات، يجب الربط بين الكلمة للمريوة نس وكلمة الأمريغية لمان (الماء).

وتعد قبيلة تسمى شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني ورياعل وشرقا ببني سعيد وجنوبا بالقبائل الريفية المثبتة بالخرائط. وتبلغ مساحتها 40 كيلومترا - من كل الجهات. ومثل بني ورياعل، فهي توجد كلية داخل سهل كبير، تسقيه ثلاثة أنهار صغيرة والعديد من الينابيع المائية. وفي كل مكان، تجد بساتين كبيرة، تتوفر فيها جميع فواكه الشمال الإفريقي مثل: أشجار التين واللوز والرملي والقوق والوحشي والمشمش والإجاص والتفاح والخوخ والعنب الخ... كما توجد في كل مكان، بساتين الخضروات حيث تزرع جميع الخضراوات التي لدينا في الجزائر. ولأن التين والخصر متوفرة بكثرة فإنها لا تعرض أبدا للبيع في الأسواق، بل تهدي للمحتاجين.

ونستحق تسمية هذا الاسم. فلنينا حفرنا الأرض بنوع الماء. وفي جنوب القبيلة يكون الماء عذبا، صافيا صالحا للشرب، أما في الشمال فهو عكر ومالح بعض الشيء saumâtre لذلك يتم جمع مياه الأمطار في خرافات كثيرة. ونستخدم ثلاثة أنهار وهي: واد بني عثمان، واد سيدي إدريس، واد مرغني، لسقي البساتين والحقول. كما تسمح القنوات والجداول الموضوعة بظلية بوصول مياه الأنهار والينابيع إلى أماكن بعيدة.

لذلك، لمثل المنطقة هي عبارة عن حقول خصبة مترامية الأطراف، تنتج الشعير والقمح والفلول والقمح والفاصوليا والذرة الصفراء والبطاطس التي تستورد بدورها من الجزائر أو من إسبانيا. وبفضل السهل الشاسع، تدر بين العينة والأخرى، أشجار وفرة الظلال، تكسر رتابة المنظر. وتذكرنا هذه الأرض الخصبة والمزروعة بظلية من طرف ساكنة جيدة ومسجلة، بتلك المناطق الفرنسية التي يزرع فيها كل شيء، ولا يترك أي شبر من الأرض دون زراعة. فلماذا نهضت بعيدا وتحت مناخ قتل، عن إنشاء لا نسوي ما يوجد تحت أديمنا وبجوارنا، في منطقة رائعة، يستشق فيها إنسان شمال، الهواء المنعش للمحيط والبحر الأبيض المتوسط.

وتتوفر تسمى على خمسة أقسام وهي: بني دلوود، تركوت (الصهاب) بني ثعبان، ليت مرغني (أبناء كرمة العذب)، لوشان (بنات لوى). ويوجد كل قسم 4 آلاف رجل من المشاة، أي ما مجموعه 20 ألف رجل بالنسبة للقبيلة برمتها. وتجلب وداعة أعالي تسمان والأمان السائد عندهم، العديد من الفرياء والطلبة الذين يلتقون في أسواق ومدارس القبيلة. وهناك روبا عديدة بالمنطقة، يدرس بها القرن والأحدث القديونية ويتلى "الورد" الذي يتم تلقيه بالعديد من الزوايا الموجودة بالمغرب. وأكثرها انتشارا في الريف، هي روية سيدي أحمد بن عيسى وزوية سيدي أحمد بن ناصر والزوية الدرقاوية. وتتلى ابتهاجات أتباع سيدي أحمد بنعيسى ويتم ترديدتها صباح مساء وحتى في أواخر الليل، كما يلي: " يا سيدنا يا رحيم، أقم علينا بمصرفتك. ما الذي نبتغيه من عرس حلفتنا أمامك وقت أعلم بها؟ إليك وحدك نوجه دعواتنا يا من يرانا. فكن مجيرا لنا

من كل ظن. " وضمن انتهاكات لزوايا الأخرى قتي أتوهر على نصها العربي، هناك انتهاكات رقعة لتفلي بها بعض الإخوة " الذين لم يجدوا أي حرج في كشف الأسرار المزعومة لزواياهم لأممي.

إن لزوايا الإسلامية قتي تأسست بخرض نشر الإسلام، تسمى إلى اكتساب سلطة دولية عالمية، تهيمن بواسطتها على كل شيء ويكون فيها الطغافيون عبارة عن لا شيء. لكن عليها ألا نعتقد بأن همها الوحيد سياسي. فأغلب المنتسبين المنتسبين ضمن عائلته الزوايا، هم ورعون بشكل كبير ولا يلهيهم بما يحدث على أرض الواقع، لأن هدفهم هو تحقيق الانكشاف لنظم قذري يربح فيه كل الأتراك في الديانات الأخرى، وذلك عن طريق الصلاة والصوم والزهد.

وتظهر الزاوية المسلمة من لخص. الأشياء إلى الإدارة الفرنسية في مستعمراتنا الإفريقية قشاشمة. طبعا، نحن لا زلنا متأثرين بنكريات الحديد من الجمعيات السياسية السرية التي عزت لوروبا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ساهمت مقاومة رجال الدين لكانتونيكيين إلى حد ما، في تشبيه الإخوان الجرافيين بالإخوان المسيحيين. وهذا التشبيه لم يكن مزمعا بالنسبة إليهم. فالجماعات الإسلامية التي كانت متفجرة هنا وهناك قبل سنة 1830، ستقبل دور الزراعة الذي أسند إليها بغير طمعا، من طرف الناس أنفسهم على بنية بلفة وعادات الأهلي. والحدود من هذه الجمعيات، جعلت فرنسا تنفع ثمنا باعظا مقابل هذه التصحية المزعومة بالذات وهذا التفكير المزعوم لهما. والحقيقة أن هذه الزوايا الإسلامية التي لا حصر لها والتي تعيش في صراع دائم فيما بينها، لا يمكنها تحقيق التقام مع بعضها البعض ولا أن تشكل كتلة منسجمة مهابة الجاذب. وفضلا عن ذلك، فإن المسلم ليس في حاجة للاكتساب إلى أية زاوية كي يمتد النصراني.

ولم يخطر ببال مؤسسي الزوايا الإسلامية خلق إطار سياسي. فقد كان هدفهم هو كبح الأهواء المفرطة وإرجاع الشعب الصال إلى الإيمان القديس الخالص. وإلى يومنا هذا، حينما يريد شخص طموح إشعال فتيل الثورة ضد النصارى، فإنه يقوم بذلك، بمحض إرادته، دون مساعدة فعلية من زاويته قتي تكفي في غالب الأحيان بمباركة خطوته بالدهوات والصلوات .

وما لفته الآن بخصوص الزوايا الدينية بالجزائر، يمكن أن ينطبق على شريف وطى المغرب برمته. وغالبا ما يتم الخطط عندما يتعلق الأمر بالمعالم الإسلامي، بين الزاوية الدينية المحضنة والجمعية السياسية السرية. وهذه الأخيرة توجد عند جيراننا بالمغرب. فلتحت بالطة الذين، تسمى إلى تحقيق هدف سياسي، وستكلم عن ذلك في حينه.

في وجود الإخوة، هؤلاء الأصوفون المسلمون، بشكل كبير بنمساكن، له ما يدور، هي
 هذه القبلة هناك عند كبير من " الفجاج" الضيقة التي لا يستطيع كل فرعا المتواجدين هدايتها.
 لم رقت منع الحواس والأطعمة الجيدة والموسيقى والألعاب والتيلي الطويلة التي يتم فصلها
 في تناول لكواب الشاي وسط الدخان الكثيف للكعب، تشكل التسليات المفصلة للتسليين، ورغم
 أن هناك بعض النساء والطلعات يظل موهل إلا أنه لا يتجاوز الحدود المرسومة مع ذلك.
 ويرتدي الأعلى القبلات الصوفي في الشتاء والحلب الخفيف في الصيف. أما جلابة

رجال طوبيا أسود، ويذهبون في زيهم وسلاحهم جي ورياض. غير أن الهندية ذات الطلقات
 المتكررة، لم توضع بشكل مهاتى الهندية الفانزونية (المكحلة) . وككل الفريغين المتواجدين
 بالسلط، فإن التسليين يسعون جيدا، إذ نجد الذكور من 10 إلى 15 سنة يستمعون في البحر
 صيفا وشتاء. وقد يصبح بعضهم صيدا عند بلوغه من الرشد، لأن قسما يباع كثيرا على
 قتلين وباندخل.

وسنتناول فرصة مورويا بأكثر قبائل الفريغين مرجاء، للكثف من حل هو من أكثر الحلقات
 لمتناحا من طرف الفريغين ويدعى الكرنفال³² ولا نجد شيئا له في الأجزاء الأخرى من
 المغرب، سواء لدى العرب أو لدى الأمازيغيين. وهذه الفريغين يعرفون ويمارسون المسيرة
mascarade ، إلا أنهم لا يتجهون بذلك خارج منطقتهم، لأنهم يدركون مسبقا بأن المسلمين
 الآخرين سيستقبلون بنوع من القرب هذا اللعب التهرجي الغريب. فهل يمكن اعتبار هذه اللعبة
 استمرارا للألعاب التهرجية الرومانية *saetiales* ؟

كولما كان الحال، فإن الكرنفال الفريغي الحالي، يحافظ على تقليد قديم تمتد أصوله إلى
 غابر الأزمان. ويقام هذا الطلل الغريب ثلاث مرات في السنة: عند حلول السنة الهجرية الجديدة
 وفي العيد الكبير (عيد الأضحى) والعيد الصغير (عيد الفطر).

فما أن تشرق الشمس حتى تهرع الحشود إلى الشوارع منتظرة ظهور الأشخاص الخمسة
 الذين سيقيمون بلعبة الصغيرة الوحيدة بالبلدة (وهذا الحد لا يتغير).

وفيما، سيحل صراخ الأطفال من مجيء شخص متبع على هيئة قانس. وسيجلس هذا
 الأخير فوق ركاب من زبل السمك هيء خصيصا له، منتظرا بهوء، على مقدمه المقرز، حضور
 المتقانسين، أي الأشخاص المقنعين، الآخرين الذين لن يتأخروا في المجيء. ويرتدي هذا القانس

³² - سأطرح هنا موضوعا مرجعا من قاصبة الأخلاق، ولولا أنني التزمت نفسي بمبدأ تول كل شيء، وبالكثف
 من صفات السنة والبلبة لتحب ما زل مجهولا، لكنت قد تغلقت عن وصف هذه العادات القديمة والقلة التي
 ظلت غير معروفة إلى يومنا هذا. هكذا، فإن الإكثار عراليا تضعف أحيانا لضرورة التوبة.

الحرب بللة من القماش وتكون حاملة من شبكة صيد صغيرة الحجم، كما يغلي رأسه بقية كبيرة خضراء أو حمراء مستعملة ومطبوخة بورق قلب السكر ثم تقطع من الزبلة. وهو لا يضع قناعا غير أن القناع الذي يلبس وجهه غير معروف. ومكان لثنيته توجد مسلمات من بلح البحر ويضع على وجهه لحية وشارب من الصوف. كما يمسك بيد عصا من القش وباليه الأخرى كومة من جلود الأرانب مستخدم كسجلات تحفظ بها أماكنه بللة. تلك هو الرجل الذي سيطر بإحدى أسرى الوظائف الإسكافية وهي: إصدار الأحكام على بني جنسه. وسينال الحشد نظره من قفاسي نحو الأكمة الأربعة الواقعة على القرية من الخارج والمكونة من: " باتشيخ (رب الأسرة) وزوجته والحمل واليهودي المرافق له.

والكم زي باتشيخ: فهو يرتدي أسعلا ويصنع جزاما من الحلقة حول خصره ويثقل خفيه مقربين ويكس سكة بجلود الماعز، ويضع فوق رأسه قرية بلية وعلى أذنيه ورقطين صغيرتين من شجرة القين القوي. أما الوجه فيختفي داخل قطنية مطبوعة من الدخيل ومقوية في أماكن الجيوب والفم، وعلى جبهته الفم هناك نهران لغزير حقيقي يخترقان القناع ويرمزان إلى أسنان قرحش المتع. وفوق القطنية وضع جلد القنفوذ بأشواكه، حيث يرمز إلى اللحية المنطوية. وبالجزم هناك خنجر ومسدس من الكلب *ferula communis* وبنطقة من نفس الخشب مثبته بالكتفين بواسطة حل صغير من القوم. ومن الرأس يغلي عرق حصان أو نيل بقرة كرمز لصغيرة قشر قوطنية. وحول العنق، هناك قبة من القوم مثبته بالمصمى ومسبحة تتكاف حباتها من البرقال أو القيمون. وفي الأخير، ولتتمة هذا الزي الريب، فإن القطنية خشبيا سيمرر بالإضافة إلى حبات من البانجان، إلى العضو التناسلي لهذا الشخص المضطرب.

أما زوجة باتشيخ، فمثلا شخص مثقن البنية، يلبس جسده بأكياس قديمة كملابس داخلية، وبكيس قديم وطويل مصنوع من جلد الماعز هو بمثابة فستان (ملحطة)، ويضع على صدره كرتين من القطن، وأحيانا بعض الخرق البقية المتهللة، كرمز للشين يلمسون. أما عرق الألتين فهما من حدوتي القرس. وحول العنق حلق قلادة من قواقع الحلزون المشدودة بحبل قديم. ويتشكل القناع من قطنية موهجة من الدخيل ومقوية جبة الجيوب والفم للسماح للشخص بالنظر والقتل. ومكان الأسنان وضعت حبات من القز القوي. وقد حجب الرأس برداء وسخ من الجلد، ووضعت أساور حديدية بالمصمى وأطع مقوية من الحديد حول السيقان العلوية حتى الركبة؛ أما بالرجلين فوضعت زوجة باتشيخ خفين مستعدين وممزقين (بللة) وألويها مستوق مليء بالقطران، مطبوخ بماء، يستخدم لطلاء أوتف الشركاء في اللجة.

وحدة ما يمثل ريفي ضخم القوية ونو قوة هوائية، دور الحمار، لأنه يجعل عند الانقضاء، السعد وزوجته، فوق ظهوره وسهلت جاكما على أربع مثلها بركل حارسه اليهودي القيس الذي يخط متفرعا فوق القرب، بل قد يلقى ضربة مباشرة إلى الصدر. وعلى ظهره توجد برعدة ملونة بالثوب يبرز منها القبن، وهي مثانة بحزنم. وقد غطي رأسه بجلد قيس الكبير الذي يتلق منه عودا من قلد يشكلان أنفي الحمار. ويسك بين أسنانه بلجم من الحقة. وبخبرته وضع ذيل بارز. أما بين الساقين فجدة آلة نقر سوداء لتسع فوهتها لتريجيا وحيلين من هيدجان تتأرجحان ونصطنمان في حيلة اعتزاز دامة.

أما جسد اليهودي فهو مطبخ بزي المصاير، وعليه يصر الأسفل قشمة المنظر التي لا تترك عورته بالكامل. وتتشكل جلابته من بقايا حصيرة من الحقة، وتعرض آلة من قنوم جابته، كما تعرض لخصلات الشعر الطويلة المتهدلة فوق صدغ الإسرائيليين بزغب الطلوز الطويل أو بحرف مأبوز من ذيل حيوان ملبوذ. ويوضع على وجهه جلد قيس ثم حكة بخرماد المخلوط بالخصلات الإسفنج والمصلي بطيب رائب ويهضغ قطرات من الصل لطيب القناب، مع ترك فتحات بالنسبة للعينين والشم. وهو يرافق سيده ويحمل بين يديه خفين مفلزين، وبمعيتهما عصا من القطن يستخدمها لإبعاد الكلاب التي يتم إطلاقها في أطلابه. وقد خلق بطنه صندوقا كبيرا مليئا بزئار يعرض فيه أمام الحشد السامعين أمتعته التي لا قيمة لها وغرخته ومرياه المكسرة وصناديق أعود الكبريت الفارغة والخصلات الفخر بديلا عن المسك وأوراقه فوسفة وكل قشاة القيمة التي تحمل بها بشاعة اليهودي الفريضة.

وما أن يظهر بالذبح وزوجته بباب القرية، حتى يهرع الحشد بالتجاوعهما ويسطهما أرضا. حينها يتظاهر اليهودي بالتهيب أمام منظر سديه المتفرعين في القرب. غير أن بالذبح سينهض وسيجري باتجاه الحمار رقما عصاه. وطبعا فإن الضربة التي كان من المفروض أن توجه إلى الحيوان، تستقط على رأس العبري الذي سيلوي عنقه من الأثم وسيطأ أرضا. وستطلق الضحكات من الحشد الذي سينعت الإسرائيليين بالذبح القتلهم وسيشجع الحمار وسيده، وستنبج المجموعة لسيور تحت وليل من الكلمات البذيئة، أي تحت كل ما ينضسه القاموس الريفي من كلمات دنينة ومنحطة، بحيث يطلق الحناز لهذه الكلمات بشكل تصاعدي، في جو من الصل الشبي الهستوري. وهنا يحدث المشهد الأكثر بشاعة، أو لنقل هذه المسرحية التي ينتظرها المتفرجون بقلق سبر. ذلك أن بالذبح سيظهر فجأة برهة جنسية جامحة وسيهض على رفاته. إثر ذلك، تحدث معركة بينهما، وستسقط المسكونة تحت زوجها الذي سيدبج فوقها. إن ذلك، متصرخ ومقلوم وستنبج بصف. أما بالذبح فإنه سينزع عنها القيس الذي كان بمثابة فستان،

وسيجعل منه خيمة صغيرة محاطة لا تكراج الزوجة إلى داخلها. ولأن جموحه لا يقوم، فإنه سيندفع نحو كل الجهات ماسكا بمصابيده، وسيصبح الحشد المتحضر : " ليس هناك... بل نولي . لا تحت..."

لذلك سيتفجع المهرجاني بهوى، تارة بالمؤخرتين وتارة بالوجهين وسيمطري زوجته المتشبع بروق المصابير، بالقبلات المتدوية. وفي الأخير، ستعرض المرأة القبول عند رغبة الزوج، مشرطة الحصول على مهرها كاملا وعلى الهدايا وجهز المروس. وسيصرخ بالتشبع متعبا: " لنحتكم إلى القاضي ". أثناء ذلك، سيدخل اليهودي كل ما في وسعه، رغم الصربرات التي يتلفها، ليبيع سلطته الخرسية، إلا أن سيده سيدعوه للمهر، وهو ما سوفوم به، حيث سيهجرى بتجاعه، سزق الثياب، نصف عار، تحت وابل من القروت. غير أن العمار الذي كان يسلي الأطفال بفراقه سيرفض الإتيان إلى اليهودي. وأخيرا، ستتابع المجموعة برمتها سير.

هكذا، سيتم القبول أمام القاضي الجالس فوق ركاب رطل السمك وستصل إلى السماع نصائح بنينة ومخاتات غريبة. وهذه الممارسة الكلامية ستقاطع بهنقات الجمهور الذي لم يد لمرحه حدود. ويصدر القاضي بكلام نصفه عربي ونصفه لارابي، بأن كل رجل عذبة يحترم نفسه، لا يمكنه أن يصدر حكما إلا إذا ما تلقى قطعا نقديا من فئة 100 فلس. وسيستمر بالتشبع بأن الاقتراح طبعي جدا، لذلك سيطلب كفه وسياخذ كمشة من الحمص وسيلقي بها على رأس القاضي صائحا: " أيها القاضي، اجمع فلسك... " ومن جهته، فإن القاضي سيقفص بمهارة كل عصاة، حيث يسمح لسلطانها براحته الملوطين والضعف من المتوكلين على استخدام الصبرات والقلل. إثر ذلك، سيعرض الزوجان في نفس الوقت، سبب خلافهما، عبر إشارات وتعليق بنينة تجعل الحاضرين في حالة التهمة. وبعد أن يبدأ الصلح نسبيا، سيصدر القاضي الحكم التالي: " قبل أن ترجع إلى عش الزوجة، على المرأة القلاكية أولا أن تلتقي لولة تحت سقف سعادة القاضي وذلك طبقا لمذهب ابن حصصان الشهير. " 33

وسيجعل غضب بالتشبع إلى القروة نتيجة هذا الحكم. هكذا، سيأخذ زوجته وسيركبها معا على ظهر العمار، طالبا من اليهودي ولحز مؤخرة الحيوان. غير أن هذا الأخير سيوجه إلى صدر اليهودي ركلة قوية سينقلب على إثرها وسيلقي براكبيه أرضا فوق الزبيلة. لذلك سيحدث الخلط غريب وتشابه السوفان والأثراج التي ترتفع إلى أعلى وتنفط بسرعة فوق الصدور والردوس والظهور. وهذا هو المشهد الذي يضاها، بالنسبة للربيعين، لجمال عروضنا المسرحية.

33 - وهو قلنس من نسج القفال، يذكر اسمه لتأكيد الأحكام القروية التي يصدرها طلبة الحقو بالمغرب فيما بينهم. وحصصان مستندة من قبل حصص أي ظهر في واسعة القفال، وتقال بخصوص الحقيقة أو الحق.

وهي لحظة مهيبة، سينص الجميع وقد انطلقوا بالقفازان؛ لأن المرأة فوجئت بسائل الفرج أثناء هذا الاختلاط الفطير، خصوصاً على زوجها وعلى القاضي أما اليهودي الذي كان يتعين فرصة الإبداعات، فإنه سيظل مشدوداً إلى الحصار الذي يحول له الركبات المولمة. وبين القوبة والأخرى، كل ينتم من حدود بضربات عصا يمكن أن تصرع ثورا. وسيستمر الاحتفال المنس بهذا وشكل، طوال اليوم والأيام المولمة التي توالى الحفل الديني.

لكن ما هو الفطر ضمن هذه الحفلات، هو انتهاك المقدسات الذي سيؤم به هؤلاء الإشباه الفخسة، حيث سيضطرون من شعائر الصلاة الإسلامية، بعد حلول الظلام، يفت باتشيخ فوق ركلم من الأربال، مؤدبا دور المودن حيث يتجه صوب الغرب مناديا : " يا معكم الله، لا هبوا إلى قوم دون صلاة. وكل من يصلي لا علاج له ".

بإضافة إلى مئات من الحفلات التي يستمتع بها العامة، وسيشروع القاضي باعتباره إماما، في إقامة صلاة الجماعة، لكن باتشيخ سيصلي إلى نفس الأمر وسيقفز على حول بردعة الحصار التي يربد كل واحد منهما إقامة الصلاة عليها، مما سيؤدي إلى تمزيقها إربا. عندئذ سيولي باتشيخ وجهه جهة الغرب وسيتكلم الصلاة صارخا : " لمن الله المتفرجون. اللهم لا تمنح البركة ولا الجنة لمن يذهب إلى المسجد "، في تلك الأثناء، سيتوجه القاضي صوب المرأة التي تتظاهر بالنوم وسيتهم فوقها، إلا أنها ستثور على ذلك وسينشب عراك بينهما. إثر ذلك، سيدخل باتشيخ والحصار واليهودي وقتلدا معركة مضحكة من جنود. وفي الأخير ستقام الصلاة جماعة، ظهرا لظهور وبالقذف، مع تموير لكلام القرآن بأكثر الطرق سفاقة.

إن ما أثار دهشتي أكثر، عندما سمعت بهذه الوقائع الغريبة، هي لامبالاة الناس الجنديين (ويوجد العديد منهم وسط هؤلاء المتوحشين) الذين لم يعضبوا عند مخالفتهم للمسغرية من ممارسة مبهلة، ويقصد بذلك الصلاة المقدسة من طرف كل المسلمين. لفخسية الصلاة ترجع إلى كونها أحد الأركان الخمسة الأساسية للإسلام؛ وهي ممارسة مهيبة لأن كل مسلم سيحضر في بطارحا بالقسم فوق هذا العالم الفاني، فهو لم يصبح ذلك الإنسان المعرض للقاء طهما، بل مجرد روح تغلغ الأرض لفترة ولا تقتل بما يحيط بها.

القرى الرئيسية بتمصمان

قسم بني بودلوف

- سدي بودلوف، 500 منزل.
- حديد، 50 منزل.
- سدي شعيب ومفتاح، 300 منزل، ويوجد عند مصب واد بني شعبان، ويحظى بزيارات كبيرة، لأن بهذا المكان يوجد قبر الولي القروسطي سدي شعيب ومفتاح، سيد القبيلة برمتها، وكل الأطفال والرجال قريبا يسمون شعبا Jethro .
- تاراخين، (اليابست)، (القسمية لاسيخية)، 100 منزل وتوجد شرق سدي شعيب على شاطئ البحر.
- كرايخ احمد، 100 منزل.
- تاروت، (الصغيرة الصغيرة)، (القسمية لاسيخية)، 100 منزل، وكل يوم ثلاثة، يكلم سوق كبير بالمحيط الغربي.

قسم ليت مرخين

- سدي كريس، 300 منزل، عند مصب واد مرخين وتحت القبة يوجد ضريح الولي الشهيد.
- بوخزون، (العزيز)، 300 منزل على واد مرخني الذي يسمى عند المصب، واد بوخزون.
- ليت ثامر، (الأبناء الحديدون)، (القسمية لاسيخية)، على واد سدي إريس، 300 منزل.
- سدي مسعود، 100 منزل، على واد مرخين.
- ثيقيت ودا، (القسمية المظلمة)، (القسمية عربية ولسيخية)، 500 منزل على واد مرخين. وينطقها التسمانيون أيضا: ثيقيت لولو وادا (القسمية القحبة).
- بشر تقيظ (قرية الأحد) (القسمية عربية لاسيخية)، 100 منزل وهو سوق يكلم الأحد ويقبل عليه الناس كثيرا.
- ثيقيت ناقي، (القسمية الطبا)، (القسمية عربية لاسيخية)، 500 منزل غير بعيد عن واد مرخين. وينطقها التسمانيون: ثيقيت تقيظ (القسمية القوية).

- عين كدير، 100 منزل.

قسم ترفوت

- هروضة، 50 منزلا.

- ثلثات (المازل) (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.

- يقر والمغشيس (حل المطرقة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل. وبجانب هذا

قسم يقام سوق كل يوم اثنين.

قسم بني ثعبان

- ليث طلي، 100 منزل، طلي وك ثعبان.

- لغشاب أعمار، (أعمال الشيخ)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- هلماسيين، (أهل فلس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- تالوين، (المنابع)، (التسمية أمازيغية)، 50 منزلا. وبالجانب يقام سوق كل يوم

خميس، قرب وك ثعبان.

- إيزفردو، (الأول، القديم)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزلا.

- ليث ملقطن، (أبناء الفارسين)، (التسمية أمازيغية)، 500 منزل.

- بويطوب، 500 منزل.

قسم فوشان

- عين كدير، 50 منزلا.

- إيزفردو، (الأول، القديم)، 100 منزل. وبجانب هذه القرية يقام سوق عام كل يوم

أربعاء.

وإضافة عن ذلك، تتوفر القبيلة على حوالي 40 قرية من 50 إلى 200 منزل، لم أتمكن

من معرفة أسمائها.

القوى العسكرية: 20 ألفا من المشاة، العدد المخطط للسكان: 100 ألف نسمة. وتوجد

سهول والمسالك في كل مكان. وأقيمت هناك أية قرية محصنة. التعليم القراني منتشر إلى حد

ما. القبيلة مستقلة، وتعين قبايلها بنفسها، كما ترسل من حين لآخر - بعض الهدايا إلى السلطان.

قبيلة بني توزين (التوزن)

وقبيلة تافرسيت (استصلاح الأرض)

إن ظروف قترحال، ستفجع بالتدريج إلى تحويل وجهته من البحر، باتجاه الجنوب، مطلقاً أنه سيقتلي رجالاً جندا وعائلات غريبة. ورغم أنه ليس جيولوجياً، إلا أنه سيلاحظ على القور، بأن تربة بني توريد تشبه تربة تسمال، وسيلاحظ أيضاً، دون أن يكون غارساً للأشجار، بأن هذه الأخيرة أجمل وأصلب من تلك الموجودة على الساحل. غربة بني توريد صوباء وحيلتها صلبة، وهي أرض جبلية قليلة التلال تقاوم للتربة الفتحة عن الأمطار الشتوية التي تجري على منحدرات أرض مملوكة بشكل عام.

وإذا وصل مصداً إلى بحر الملوس (الحقل العالي)، وهي تربة محاطة بحدائق كثيفة من أشجار البرتقال والمندري وقصور وكتير وقصور والكرم المشايخ (الدالية) والجوز إلخ... وسجد الرحلة حوالي خمسين طابقاً أجدياً مقيمين بالمسجد، أتوا ملته طلباً لإحسان الأمل والليل منهم من أجل الدراسة. وكان الاستقبال ودياً. وعندما علم السكان بمجيء أجدي آخر إلى المسجد أتوا بكومة لوفر من الطعام المكون من الخبز والبقلاوة (الجلبانة) والبطيخ المشوي وقولته. ولم يكن يفتقر الضيوف إلى شيء.

وتشتهر بئر الملوس بكونها عبارة عن جلمة صغيرة يتم فيها تعلم مبادئ الحساب، وهو من العلوم المستحددة لدى المغاربة. ومساحة المسجد شاسعة كما أن صومطته العالية تتجاوز قمة أعلى الأشجار. وتشغل قبيلة بني توريد مساحة قدرها أربعين كيلومتراً طولاً وعرضاً. وتتوفر على خمسة قسام وهي: بئر الملوس³⁴، بني حسان، تمارت، سيدي يحيى وتافرسيت. وبإعترافهم من كون هذه الأخيرة قبيلة قائمة بذاتها، إلا أنها تابعة لبني توزين التي تقوم بحمايتها، لأن إكثارها المحدودة وصغر حجمها، تحتم عليها البحث عن دعم، وسط الجيران الأقرباء المحيطين بها.

ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام، بما في ذلك تافرسيت، تجنيد 3 آلاف من المشاة أي

15 ألفاً بالنسبة للمجموع.

³⁴ - بئر أملاء دلالة الكلمة. ولأن ملوس اسم رجل، فلي يمكننا ترجمة الكلمة أيضاً بـ " حقل ملوس ".

فما وجد هنا داخل بلد جبلي، يحيط بالحيات القليلة، حيث تكثر أشجار الطوط، والطيور، والطياف، والبرق، والفتور، وتخرج هذه الأشجار الصغيرة من الجبال، وعلى جنبات هذه الجبال والوديان، توجد أشجار الفوكا المسعدة، والسمعة، ويحيط شجر الزيتون على الخصوص بطنية غلقة، فمن طريق القريبات ممره بمهارة، يحصل الأعلى على حيات ضخمة من الزيتون، وبالقسمه لحيوانات الغاية، فلذا نجد القرد، والظاير، وابن لوى، والقطب، والضبع، والكيد، ويرافق هذه الحيوانات، أثناء النهار، قطاع الطرق القلة الذين يكثر في المنطقة، وهو ما يعني أن الأمن في هذه المنطقة أقل مما هو عليه في بقية الأجزاء التي مررناها، وهناك قصص حول القتل تحكى في الأسس، وترعب الأطفال والنساء، بل وحتى الرجال أنفسهم، ورغم شجاعة طليقة لآلاف الرجال، فلهذه الأسباب بهذه الحركات بحث يخشون من ألف مرة أكثر من أسودس الليل.

ومن بين الأسواق الأربعة هذه تسمى توريان، على سواحل ميسر الذي يقام كل يوم خميس
بحرف قبلها كبيرا حيث تباع فيه الأبقار والماعز والحمير والجمال بالمتن. كما تسمى المتاجرة
بالحمير وزيت الزيتون والرويب والقرين والقصاي والسكر الإنجليزي والحبوب والجلابية. فكل
منتجات المنطقة تتواجد بمسوق، ويطلب قصاي والسكر والشموع والأثاث المنزلي من فارس، إذ
أن قبائل الرعب الجنوبي تنبصع من هذه العاصمة، في حين أن أهلها يساحل بشرون كل شيء
قريبا من الإسكندر.

ولقد احدث الهنائق الأوروبية تلح الجنوب تدريجيا، على مرأى ومسح من الجزائر وإيطاليا. ذلك أن مربي عديد الهندين يستأجرون سفنا صغيرة، هي في الغالب مركب شراعية، وعندما يملأ المركب من أخوة الهنائق، ينطلق دون مشاكل من أحد الموانئ المتوسطية لتجه الجزيرة الإيبيرية، أو من مصب التاميز Tamise متجها نحو المغرب. ويكون أملي قشطن، سواء كانوا موطنين مع الأوروبيين أو شركاء لهم في انتظار مجيء المركب عند نقطة معزولة بالساحل، حيث يتم إخراج حمولته الثقيلة لولا. وتوضع الهنائق والخرطوشات المقروفة بطنها داخل صناديق مهيئة وتصل إلى القارب بقوة القبطان بنفسه. وسيلان صغير من نوع خاص عن القارب هذا القارب. عندئذ يوصح صوت بالإسبانية من القشطن: "هل أنت القبطان القلاني؟". وسيدور حول بين قائد المركب والمسلمين الذين ستظهر خيالاتهم المصغرة بالكرتيج. وسيقفز واحد منهم، على ما يكون هو القائد، داخل القارب الذي سيبتد على الفور بهجمة أمتار عن القشطن. لذلك تلح الصناديق ويتم فحص وعد الهنائق والخرطوشات، وإثر ذلك يؤدي المسلم ثمن البضاعة بالنفود لربكة deniers trébuchants، ثم يرجع القارب إلى القشطن لإنزال حمولته. وتعمل

الصناديق مباشرة من طرف الأملي الذين سيختفون في ظلمة الليل، متجهين إلى منزل المهرب الرئيسي. ويرجع القارب إلى السفينة ليقفل ما تبقى من بضاعة، حتى تنتهي العملية. عندئذ تمخر السفينة قشراعية " قازية" عاب البحر، راجعة إلى الميناء الذي تطلقت منه، حيث ستجد فيه بضاعة أخرى، ويتم حملها وتسويقها. وفي تلك الأثناء، يكون الشركاء منشغلين داخل منزل المغربي، بحث قبائلي ولحسها بحذية فائقة. تلك أنهم مطالبون بإرسال المئات منها في القدر، إلى هذه القبيلة أو تلك، وإلى السوق الذي يعرف إقبالا كبيرا للأملي. وقد تباح القبائلي في عين المكان، عندما يكون البلد في حالة غرض، وبمزال الممول الرئيسي للعملية، توزع على كل شريك بعد البيع، حصته من النقود.

وقد أكد لي المهرب الرئيسي المجهز الذي قدم لي هذه التفاصيل، بأن الأرباح المجدية من هذه العملية تكون هائلة، فالمندقية التي تشتري في أوروبا بمشرين إلى ثلاثين فرنكا، تباع للمغاربة قشائلي بمائتين إلى مئة فرنكا، وإلى قبائل الداخل ما بين 120 و 150 فرنكا.

ويمكن البلد الذي يريد التعامل مباشرة مع المكان المغاربة المستقلين، دونما اهتمام بالاحتياجات القصورية لشريف (السلاطات) أن تروج بالمغرب، ما بين 500 و 600 ألف بنفلة على الأقل وملايين الطرطوشات. وبكل قبائل الريف، بالشمال كما بالجنوب، فإن النقود الفضية تظهر هي النقود المفضلة، وتأتي النقود الفرنسية في المرتبة الثانية، وبعدها النقود المسكوكة من طرف صاحب القبيلة لشريف. أما النقود الإنجليزية والإيطالية والألمانية إلخ... فهي غير معروفة.

وبتكلم إنسان بني توزير تماريخت خالصة ولا يحرف كلمة واحدة بالمربية. وهو دائم الحركة بحمده المكل Trapu. وقد تبنى شاعر محلي بجمال نساء القبيلة، حيث أصبح قببت التالي شائعا وهو:

بنات ملاح في ثلث قبيلات ﴿﴾ بني توزير تمسمان والعمات

وتخرج النساء سفرات الوجوه، وهن يتمتعن بهجرة دائمة حيث يرافقن الرجال أثناء المعارك ويتم بلشق الأعمال، إذ يحصلن ويشتغلن بالبساتين ويحطبن ويحطبن المياه من الينابيع. وهن يرتدين الحايك المصنوع من الصوف الأسود ويحطبن لكامبين بغطاء جلدي خاص بالسوقن يقوم مقام الجوارب ويتملن أحنية من الحلفة. وهن عفيفات جدا وولودات جدا، كما أن حياتهن تقسم بالجدية، حيث يكرمن وقتن لثريبة لهنقهن ويرضعنهم إلى حدود السنة الخامسة أو السادسة.

وفي أغلب الأحيان، تقام حفلات الزواج في الخريف، عندما تكون المخازن والمطابخ مليئة بالمحبوب والفاكهة. وتظل العروسة بكرا مدة سبعة أيام في بيت زوجها، وفي اليوم الثامن يتم الدخلة. ويتمك عمل الرجال في صنع القارود والرسامس الذي يباع بالأسواق.

وتحتل الدراسات القرآنية بأهمية كبرى في الزوايا الثلاث الموجودة بالقبيلة. وتتميز زاوية سيدي بوجدين³⁵ عن الزاويتين الأخرتين ببنائها الضخم ولبنائها الكبيرة. وتحت هذه الأخيرة يركد جثمان سيدي بوجدين محاطاً بقبور سبعة من أعمامه.

ويأتي الزوار من كل مناطق المغرب للتبرك بقبر هذا الولي المكرم. ومن بعد، يدر هذا الضريح فوق قمة الجبل مثل كتلة ليج، وتظهر محيطه المربعة التي تطل على البحر كل سنة.

وما يجلب زوار هذه الزاوية الشهيرة على الخصوص، هي الحمة التي ساعدت مياهها المسلطة جدا، في شفاء آلاف المرضى. وهي تتبع وسط قرية وتجري مياهها بين المنازل، مشكلة هنا وهناك، بركا عميقة يحض الشيء، تمتلئ بعدد كبير من المعطوبين الذين يتم إطلابهم وإرواءهم سحفا من طرف الزاوية إلى أن يشعروا.

فالريف غني بالمياه العذبة، خصوصا في الجبال الشاهقة بالجنوب. وتشكل هذه المياه العامل الاستراتيجي الوحيد الذي يدفع الأهالي إلى الهجرة. ويحصل الأشخاص حرارة المياه الحارة التي يمكنها أن تساق في ربع ساعة، الأجساد الفاضة للسكان الأوروبيات. وتربط الأساطير الزاوية وجود هذه الحامات، بكرامة حصلت منذ زمن بعيد. ذلك أن ولها عظيما في المصور الوسطى، وهو مولاي يعقوب، الذي كان يحب التجول بمناطق لريف على الخصوص، طلب الضيافة في إحدى القبلي. ولكي يكافئ الأهالي الكرماء على حسن ضيافتهم، لجر بلرضهم لهما سلخا وعظيما يمكنهم استخدامه للاستشفاء والنظافة عند الحاجة. وكلفت تلك هي طريقته في رد الجميل. وبذلك، فإن الحامات التي لم تكن معروفة قبل تلك الفترة، ستأخذ إسم حاتم مولاي يعقوب³⁶، وهي العبارة التي ستحتل كل حامات العالم.

لما الراوية الثانية المسماة زاوية سيدي يحيى بنني حسن، فتضم جثمان الولي المسجد سيدي أحمد بناصر. وتوجد الزاوية الثالثة بموضار، حيث يركد جثمان سيدي محمد بوزيان. وهي تعرف بإقبال العديد من الزوار، لكن بدرجة أقل مما هو عليه الحال بزاوية سيدي بوجدين.

³⁵ - أكد لي بعضهم بأن جد هذا الولي من ليه لو أمه، متوفى في موضعين مختلفين، في تارة وفي بني توفيت. وهذه الكرامة المشتملة في المصور بالمكن متحدة في نفس الوقت، مقترنة بكرة لدى سلحاء الإسلام.

³⁶ - هذه التسمية مستعمدة من طرف العرب والأمازيغ بالمغرب وبإقليم وهران.

والسفن القاذبة بالقنبلة هو الخبز الذي يصنع بدقيق القلوط الطو والعر. ويبدو أن القلوط العر يقد مرارته على النحو التالي: يتم وضعه بمغزى ويضخ باستمرار على مدى شهر كامل. وبعد هذه العملية، يجفف ويصبح حواء ثم يطحن ويصنع منه الخبز بعد ذلك. وقد كان بإمكان الأنعام الخمسة الهني توزين أن تمارس تجارة الفلين، لأن غلبتها ملوحة بهذا الخشب الثمين. لكننا لا نجد أي حثذ لها على السجل كي تبعة للأوروبيين. أما مغارة الداحل، فلا يمكنهم شراء، لأنهم لا يعرفون كيفية استغلاله، لذلك فهم لن يذهبوا قلسا واحدا كمقابل لكل غلر العالم. حكم من القنوتات تضع في هذا البلد الرقيق. ومع ذلك، فإننا نرى في بعض القبل الجبلية بالقرب منازل عطي سقيا بالقطن المقطوع على شكل قواسيد قبيحة المنظر. ويبدو أن هذه السقفة مبنية إلى حد ما، مماست تتحمل أحمالاً الوزن الثقيل للتلوج، في هذه الجبل القريبة للشافة ذات الشتاء القارس.

وإذا ما كانت القنوتات القاذبة قد ظلت غير مستغلة، فإن الطرقات بالمقابل، خضعت لاستغلال ممنهج. ففي الشتاء، عندما يكون الرجال بدون عمل ويمتد رداء شحي سويك لوى المنطقة الساكنة، يذهب هؤلاء الرجال إلى الغابة مرفوقين ببعض الأطفال وشيوخين بالكلاب التي تحرس القرية. ويتم تطويق قضاء شامع ثم يقوم الأطفال والكلاب بضجيج صاخب. لذلك تطير أسراب القمل وتهرب الأراب والأراب الوحشية Linceus في كل الاجتماعات، حيث تسقط فرسة القناصين. وتبدأ حينها مجررة فظومة، فالريفي الذي يجد التسديد بسقط طريدة عند كل طلقة. ويتم القضاء على كل الحيوانات، بما في ذلك الخنازير والقناص وقطط الوحشية والكلاب والجرذان وبنات هرس التي تولجت لسوء حظها، دلال القدرة القاتلة. وبالقرية يتم توزيع الطرقات بين أسر القناصين، دون أن يلقى الأهالي إرسال الجزء الأكبر إلى الطلبة المرحين المقربين بالمسجد.

أما الخنازير وبنات لوى والنمور التي يعتبر لحمها محرما، فترتك هناك للكلاب التي سترجع تلك اليوم إلى القرية، يهبطون منتفخة إلى حد الاتعجار وبسوقا منفجرة، وهي تخطو ببطء شديد.

القرى الرنيمية بهني توزين ونفرسيوت

- سطر لاولس ، 500 متر، وتوجد عند مصب واد سويدي يحيى الذي يزداد حجمه بالسياء المعدنية لواد بني توزين.

- قرية، 50 منزلاً، على واد بني توزين. وبالقرب من قرية، إلى الجنوب، توجد
 حامية كبيرة يقام بها سوق الثلاثاء.
 - قرية سودي بوجدين، 300 منزل.
 - تشارت، (الأطلة بالسكان)، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل،
 - سودي يحيى، 100 منزل، على ضفت واد يحمل نفس الاسم، قرب شلة رقعة من
 شجر القطن.
 - ميسور، (وادي من المطر)، (القسمية عربية أمازيغية، وهي تعريف للكلمة العربية
 مطر)، وتعتبر حامية تفرست، 100 منزل، ويقام بها سوق كبير، يوم الخميس.
 - قرية العسكرية 15 ألف من المشاة، عدد السكان الممثل 75 ألف نسمة. المنطقة
 غابوية ومنموجة. ويوجد سهل، شمال تفرست والعديد من القرى الصغيرة.

قبيلة كزنية

أصلها تسمى الزنايا بإخفاء الحرف الأول عن قصد حيث. وتعد من الشمال ومن الشرق
 بفائل ريفية هي: بني توزين، تفرست، لمطالصة، ومن الغرب والجنوب تسمى منطقة جبلة التي
 تفصل عنها في أقصى الجنوب وعلى مسلة صغيرة، عبر مزارعة، وهي تمتد على مسافة 80
 كيلومتر تقريبا من كل الجهات. وأصلها الأربعة هي: القدير (صدر المريج)، سودي بنور، أيت
 علي، أيت دلوود. ويوجد كل قسم 3 آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالنسبة لكل
 القبيلة. وقد فكر الدرويش في ولوج أصق الريف، لكنه لم يكن مطمئنا وسط المرتفعات المتشجرة
 التي كان يعبرها فلما من بني توزين إلى سودي بنور.

لقد كان يبدو كثرم وسط الأشجار الضخمة مثل: أشجار البلوط والقطن والكتوب والكمستاء
 والأرد والعرعار والصفصاف والذلب والحوو والقستق والحراج وأشجار أخرى شبيهة في
 شكلها بتلك المذكورة والتي تسمح جدوها الضخمة بإبراز تخرج المسلك الغابوي الذي يتبعه
 الدرويش.

وهذه المرة أيضا غادر بني توزين بفرض الوصول إلى قبيلة مزارعة. وكان يمشي إلى
 الأمام عازما على رؤية جبلتي أقصى الريف الجنوبي والذين لا يكف أعالي الشمال من الحديث
 عن وحشيتهم.

ولول القلطنين الذين سلقني بهم في البداية، هم الضالكون الذين كانوا يجرّون بسرعة،
هاريين على ما يبدو من الوحوش الكسرة القريبة منهم كالفهود والأسود إذ تتشرع الأسود في
الظهور عند هذه النقطة وتغشى النزول إلى السهول الشمالية الأمامية بالسكان.

وعند المساء وصل الدرويش إلى سيدي بنور، بعد أن عبر العديد من القرى التي لم يبق
فيها فترحاب المأول. وسذهب إلى المسجد الذي كان فارغا، بحيث لم يجد بداخله أي طلب ولا
أي أجنبي، بل فقط أربعة جنود عاربة وبعض الحصار القديمة فوق أرض محفورة. وسيلزوي
يركن في المسجد، سبطا رأسه بقلنسوته، منتظرا بصبر العشاء أو النوم. وسلكني هذا الأخير قبل
الأكل، وهو نوم قهيل ومريح بعد تلك المسيرة الطويلة خلال النهار. وعند الصباح مستيقظ من
نومه وسيرفع القلنسوة عن رأسه، ليجد مسطحا مليئا بكسكس الشعير، وهو ما شجره بالقبضة.
ولربما جاء أحدهم بهذا الصحن أثناء الليل، وتركه بجانبه دون أن يوقظه. وبينما هو يأكل منهم
هذا الطعام العثن الذي حطه الجوع لذونا، إذا برجال يدخلون المسجد حاملين القنانيق على أكتفهم
ويارتدون جلابات طويلة من الصوف الأسود. وسأله رجل أسمر وقصير، يبدو أنه زعيم
الجماعة: " ما هي الطريق التي سلكتها؟ " وكلفت إجابة الدرويش: " إنها الطريق المعروفة ".
وسأله الرجل ثانية: " كيف؟ " وهل سمح لك الأسود بالمرور؟ " إلا أن الدرويش المصم على
المنصرة سيجيب بحكمة قللا: " ما هو مكتوب لا بد أن يقع ". وعلى الفور سيحظى بثقة
الحضور وسيطلب منه البقاء بسيدي بنور، حيث أن ينقصه شيء. وسيقدم الدرويش للأهلي وهذا
غير محسوب العواقب، ينقل في تعليم القراءة للأطفال القرية. وهذا الالتزام غير المدروس، كان
سجور عليه القويلا نولا هروبه من القرية بعد أيام قلل، ليتابع التجوال عبر القبيلة، وبأله من
بلد جميل. فالجبال ذات القمم العالية، ترسم في سفوحها وديانا شامسة مزروعة، كما هو الشأن
في فرنسا العزيزة حيث تتوالى بساقين الخضار والفواكه المسقية بكثرة بواسطة الملبح العديد
التي تنبت بقوة من المنحدرات العميقة للأطلس.

وبتجاه الشرق، سترز الحلفة مطلة عن قرب الغاريت، هذا النهر الرملي الصحراوي
الذي حدد ملك الصحاري مسار، عبر الأراضي الخصبة للمغرب، حتى البحر الأبيض المتوسط.
وتعتبر الحلفة، كما يسميها العرب، والتي ندعوها Stipa - tenacissima، كنبات ثمين يستخدم
أكثر فأكثر وباستمرار. وهي تنبت تلقائيا في كل أفريقيا الشمالية ولا تستدعي أية عناية ولا أية
زراعة. وتوفر منطقة وهران وحدها سنويا أكثر من 200 ألف طن، لا تذهب إلى فرنسا
للأسف، بل إلى إنجلترا، حيث تعود إلينا وقد تحولت إلى ورق جيد. ولأن الصلابة يجهلون
الاستعمالات الجديدة لهذه القنبنة المعمرة، فإنهم يكتفون بالصناعات التقليدية للنعال والقصب والمبال

ومسحات الأظفار والحصى والفرايف. ويختص أهالي كزناية في صناعة الأخذية. ففي إقليم
السوق. ينتج الفراء بصنوف طويلة تضم أكثر من 500 رجل أو امرأة. يصنّفون فرق ظهورهم
شبكات كبيرة ملونة بدمق الحقة الجديد. التي تباع بأشدة بخسة للقبائل الشمال والغرب. ويضع
ربو الجنوب من فارس. وليس لديهم أي عمل تجاري مع سكان الساحل. باستثناء شراء الماشية.
الكزنايتي الذي يلتزم بيته دائما Camnier ينتظر مجيء قباعة المتجولين الذين يجلبون معهم
مستلزمات الصناعة التي يحتاجها. وهو لا يثق في العرب ويعتق اليهودي دون أن يعرفه.
ويزوي في قريته. حيث يكره الأسرار ويعيش حياة بطريركية وإلى كل يمنح حرية كبيرة
لزوجته. إذ بإمكان النساء الخروج سفرات فوجوه والمشاركة في مناسبات الجماعة. حيث
يتخطى في كثير من الأحيان ولا يتخلل عن الهندية التي تستعمل من طرفين بشكل جيد. ويضفي
ظهور لمبسون الطويل. المصنوع من الصوف والمشدود بحزام عند الوسط والبعدين العربية
الكبيرة. مطبوعا حربيا بشكل كبير.

وإهداء من من القبلة، فإن الطفل الذي كان يعيش داخل السلال دون قلم بأي شيء،
يصبح راعيا للبلر أو الماعز. تحت رعاية شخص يكرهه سنا. مكلف بتطعيمه لسرور القبيلة. ولا
يجب على الماعز والأبقار التي تربيها بطرق القبايل. أن تغامر داخلها، إلا إذا كانت
مرفوعة بحراس حديد مشوحين بكتائبهم الجريئة ذات الشعر الأصهب والتي لا تهاب الخنازير
ولا الضباع. ويحصل هذه الاحتفالات. على اليهود والأسود نكرا ما تستمتع بلحوم الأبقار أو
الماعز. لكن من المؤكد أن الخنازير الكثيرة بالمنطقة. توفر لها طعاما يلقى حاجتها.
وتحكي الأساطير قريفة أن سيدي عبد الرحمن المجدوب، ذلك الرجل الصالح وصاحب
الكلام القلائع. جاء من شواطئ المحيط الأطلسي بهدف زيارة الشرق، لكنه توقف بكزناية ورفض
الذهاب أبعد من ذلك. بعد أن تسلل من الطعام للسكان الجبل الربيعين ومن لباسهم الوسخ
المكسي دائما بشميرات الحقة. وسبوا في ظهره للشرق، لينظم هذا القول المأثور والقلائع المتعلق
بالبقال الجنوبية قريفة وتحدثا كزناية. والذي جاء فيه:

يا لطيف من بلاد الرّي وفراجه وبلاد الحفا والحفلة

ولمخ فري تراحي الماعز الكزنايتي الذي يبيع لطيحه إلى الإقليم صامعا باستمرار لزي.
لما فرا فيكسد به الأعالي الذين يدفعون حيدرهم صامعين باستمرار: فرا. وأغبراء فإن الجزء
المبني من قول المأثور والساعة. ينطبق على الكزنايتين. وبالتالي، فإن هؤلاء الذين يصنعون

أخذية للآخرين، يمشون حفاة في بلد تكثر فيه الحفلة. ويعني سودي حد الرحمن بذلك، لأن سلمى
الأخذية هؤلاء، لا يمشون أي شيء بأرجلهم.
وبدوره، فإن الدرويش الذي اشتهر من طعم كزناية ومن غلظتهم، إن بطل سوى
عشرين يوماً تقريباً بالقبيلة. وسيفوجه بعدها شرقاً، نحو أراضي لمطلصة.

القرى الرئيسية بكزناية

- سودي بنور، 100 منزل.
- الخميس، 100 منزل. وقد بنيت على قمة جبل كزناية التي ينبع منها نهران وهما: ولد
الدير وولد كزناية. وبالقربة نفسها يقام كل خميس سوق كبير وهو ما يفسر تسميته بسوق
الخميس. وهناك بالقبيلة 60 قرية ممتدة بأرجائها.
- القوى العسكرية 12 ألفاً من المشاة: عدد السكان المحتمل: 60 ألف نسمة. التعليم منعدم.
البلد جبلي وشابوي بشكل كبير والمناخ معتدل صيفاً وبارد شتاءً. وتكسو الثلوج قمم الجبال عند
شعري جابر وبنافر. والقبيلة متوحشة بشكل تام ومستقلة. وهي لا تأبه بالسلطان بلعل موقمها
الجبلي، فالجماعات هي التي تحكم فيها، إذا ما سمح لنا باستعمال لفظة حكم، في بلد تعتبر فيه
الحرية الفردية لا محدودة.

37 قبيلة لمطلصة

لم نر إلى حد الآن سوى سلطنة مستقرة بأراضيها، لا تترك منازلها وأقاربا إلا مجبرة
وتعمل على الرجوع إليها بسرعة كلما أمكن ذلك. وها نحن لأول مرة، نحط بأرجل عد
أمازيغيين رحل. ومنغادير الجبل إلى السهل، حيث توجد صحراء حقيقية وهي صحراء الغاريت.
في تبدل المناظر يحدث فجأة، دون تمهيد؛ وهو تبدل جذري يقع أمام عينيك، بفضل اليد
اللامرئية للصانع القادر الذي يحرك العوالم. وما أن نطأ قدمك آخر موجات تلال الغرب، حتى
يمتد السهل أمامك في شساعته وفي الاتساع اللامتناهي لتملكته الممل. تجد نفسك فوق أرض

37 - وهي كلمة عربية تمزجت فيما بعد ووجب كتابتها: المطلصة. لكني حافظت على النطق المحلي فيما لقاهت
الثانية التي اعتمدتها. وفي العربية الجغرافية تسمى المطلصة: "المخطلة بـ" و"المختلة تحت". وقد عرفت هذه
القبيلة بهذا الاسم، لأنها على ما يبدو، كانت مملوكة بالأعقاب الذين استقروا بها كفتاحين متمصرين.

حجرية، تكسوها الرمال، وتختفي أحيانا على مدى مساحات شاسعة، تحت أشغال خصراء من شجيرات الزفروف *Jujubier* وتحت أعشاب الحلفة الكثيفة. وعند الأفق تظهر قطعان الغزلان والنعام وكثلا أمام مشهد متحرك وأمام كثافات أسطوانية، نصفها إسمان ونصف الآخر حيوان، متقلدة ركابها وترغرف أطراف مطفها الصوفي (البرلوس) مع الرياح، وقد صوبت بذاتها منحنية بعض الشيء إلى الأمام، لإصابة الهدف. نعم، ها نحن قد وسطنا إلى ذراع من أفرع فوجش الصعراوي، إلى امتداد صحراء أجداد، عند مدخل غاريت، على سطح هذا العمر النهري الغريب، المليء بالرمل، والذي ينطلق من أحواض الصحراء ليندس عبر الحقول المزروعة، في البحر الأبيض المتوسط، ما بين بحيرة بوعرفة الملحقة والحدود الوهرانية. لتفكك وداعا للريف الحقيقي والريفين أصحاب لهجة تامازيغت الفالصة. وداعا لهواء الجبل القوي وللشج والاعتدال المناخ والأيمن القوي والصلب لسكان الجبل.

وبله من بلد غريب ولعل ! فكل شيء فيه يتسم بالجدد، الطبيعة والسكان، فالمطاطسي يتحدث الزناتية وهي لهجة أمازيغية بعيدة إلى حد ما عن تامازيغت . وهو نفسه زناتي، أي ينتمي إلى فرع آخر صانير لإخوانه الريفيين، أصحاب لغة تامازيغت والذين يسمون أنفسهم أمازيغ (جمع إمازيغن)، والمقصود بذلك الإنسان الذي يتكلم لغة تامازيغت؛ وذلك حتى يتم تمييزهم عن فرناتيين، أي الأمازيغيين الآخرين.

كما أن الحيوانات الأليفة هنا تختلف عن حيوانات المناطق المتسوجة والباردة بالريف. فالمحار والبلل اللذان ينعان في الجبل يندرن في الرمال الصحراوية ويوضهما الحصان والجمل. ففي الفضاءات المنبسطة والعلوية يجب تتوفر على السرعة، إضافة إلى البساطة والبروز.

وكفارس شجاع، فإن المطاطسي لا يفارق حصانه أبدا، متكما لا يفارق بتنهته الإنجليزية أو الإسبانية التي اقتناها من المهرين بالقشولبي الريوية. ولأنه يلف جسده بالعليك و " بوروسه " الخفيف، فإنه يبدو على هيئة عربي لولا نعله المصنوعة من الحلفة ورأسه العاري وسطته الأمازيغية. وتعتبر صناعته الفرنسية والوحيدة هي الحلفة. فهو يتقدم في السهل، ممسكا حاصدته بيده وسنبوها بزوجت. وعند كل نصف دائرة ترسمها هذه الآلة المخوفة على الأرض، تسقط الأعشاب الكثيفة التي تجمعها زوجته كشجاعة على شكل حزم صغيرة مربوطة بعناية. وعند الرجوع إلى الخيمة، يشرع الجميع في قتل الحبل وصنع الفمال والقنف والحصار والفرابيل. وتتمتع النساء بحرية كبيرة، وهن سافرات ويدعين إلى السوق رفقة الرجال ويضعن بأرجلهن نعالا من الحلفة، وهن معجبات بأنصون لكنهن لسن شرسات، بل هن مستحذات للتكاف.

إن الأسواق الثلاثة بالقبيلة مزودة بشتى أنواع البضائع. وتتم فيها تجارة الأغنام والصوف والحلقة والخيال المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف الأسود، والزرابي والقشاي والسكر الإنجليزيين والبارود والرصاص والبنادق والحب والزيء والحسل. وسيكون من الخطير التطفل وسط هؤلاء الأشخاص المسلمين الذين يتراوح عددهم ما بين 15 و20 ألف فرد دون أن يكون المرء ممميا من طرف رجل من الأهلى. ويمكن فى هذه الحالة التجول فى هذا الفضاء الشاسع السوق وهو مغطى نسبيا.

وبالغرب، نجد بعض القرى الصغيرة المنقطة على المنحدرات الأخيرة للأطلس والتي يعتبر سكانها مستقرين sédentaires. أما بقى أهلى القبيلة فيعيشون تحت الخيام ويهيمون عليهم فى كل مرة، بلحقين عن كلاً قطعانهم. وفى فصل الربيع، يصلون إلى صحراء أنجاد، أما فى الخريف فلهم يصعدون إلى الغاريت.

وتستد القبيلة على مساحة شاسعة (80 كيلومترا من كل الجهات)، وتتوفر على خمسة أقسام وهى: (البدائن، (أصحاب الأكنة)، (القسمية عربية أمازيغية)، القميس، ربيع وانا (قسم السطى)، (قسمية عربية أمازيغية)، سولمل، ككوت، (الكرويط) (قسمية عربية)، ويوجد كل قسم 4 ألف فارس، أى ما مجموعه 20 ألفا بالقسم القبيلة برمتها، يتنطون جبالا راقعة ويحصلون بنادق لأوروبية.

وبالغرب، فى الأجزاء الجبلية، يزرع القمح والشعير بشكل جيد، فى حين نظل المنطقة بالشرق قليلة وجافة، علما بأنها تفتقر من طرف نهريين مياهها مالحة، وهما واد مسون (الموصل)، (القسمية أمازيغية)، والذي تكون فيسقاته خطيرة فى بعض الأحيان وواد ملوية الكبير الذى شوه اسمه بنكاه، من طرف الكتائب الأوروبية. ويصل هذان النهران مياههما الطينية بمحاذاة الأرض المنبسطة دون منطاف، فالحين بصحوبة مسلكا بالغاريت، تراع الصحراء هذا، الذى يتقدم بصفة قوية، ساعوا ككهر أعير إلى ليصل لمواجه الرملة حتى البحر. وبالقسم يتم استغلال جمل الملح بشكل مزدوج. فهو يوفر الملح الضروري للإستهلاك وكذلك لأحجار الفرحى الجيدة.

وككل الرجل، يعتبر أهلى المنطقة لصوصا بزرعين وقطاهي طرق متدربين. وغالبا ما تحدث مناكرات بينهم وبين عرب الدرة. فلما كانوا منتصرين، فلهم يذهبون كل شيء ويبعدون الجميع.

وإذا ما كانوا مهزومين، فلهم يتحصنون بجبلهم الشاسعة، وأحيانا ما يتحالفون مع بعض قبائل الرجل بصحراء أنجاد، وهم يتسبون إلى زلوية درقلوبة (سيدي عبد القادر).

وفي إحدى الأمسيات، التقى محمد بن الطوب الذي كان متجها بجهة مضيقه، وسط دول كبير، إلى مرور قلعة من 400 إلى 500 جمل، قادم عند الأفق بمحاذاة القنطرة، وعلى الفور، ركب 300 فارس مطلقين جوامع وأغاروا على القلعة وبعد ساعتين رجعوا ومعهم القلعة بدمتها. وكانت مكونة من 500 جمل محملة بالقصوف والقمح، بقودما حوالي خمسين فرسا من بني جيل Beni Guil، الذين تم نزع سلاحهم ودفعهم كأسرى مشيا على الأقدام أمام أعينهم. • وقد قتل في المعركة عنصران من لمطافسة وآخران من بني جيل.

وتم تقسيم الجمل وحملاتها إلى خمسة أقسام، وزع كل واحد منها على قسم من القبيلة. وفي الغد، جاء الأمازيغيون المجاورون للمطافسة واستغلواهم، طالبين عند الصباح. وقد قبل أهلي لمطافسة بإطلاق سراح الأسرى لكنهم رفضوا إرجاع الغنيمة، إذ كان الأمر يتعلق بانتقام من بني جيل الذين سبق لهم سطوات من قبل، أن نهبوا قلعة لمطافسة كانت تحبر أراضيهم بطمعينة. وقد حدثت هذه الغزوة تحت أعين نهاية الذين يمكن أن يشهدوا على ذلك، عند الاقتضاء، ورجع الأسرى من حيث كانوا فرحين ببقائهم على قيد الحياة.

القرى الرئيسية بالمطافسة

- زاوية كركر، (وهو اسم علم ويعني قنطرة)، (تقسمية عربية)، 200 منزل، ويوجد وسط قرية تبع صاف وعذب، ينطق منه ولا كركر الذي يصب في واد مسون.
- (قنطرة الصغير)، (تقسمية عربية لمزابية)، 100 منزل توجد بالقسم الغربي للقبيلة، فوق تل، في آخر منحدرات جبل كزنبة.
- قوى العسكرية 20 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 100 ألف نسمة، لتطعيم منظم.
- ويتم تسهيل من كل جانب، باستثناء الغرب. الاستقلالية تامة.

قبيلة بني عمروث

(أبناء المنطقة الآهلة) ، (تقسمية عربية لمزابية)

سيروهب قنرويش في رؤية الشمال، خاضعا مرة أخرى لغزوته كرحالة وسيطار لمطافسة وهو مسجود بالمشي على الأقدام، بعد جولاته الجنوبية على ظهر الحصان والتي كان يجر على قوائم بها وراء الرجل، المتكئين باستمرار.

ومن بني توزين سيمر إلى بني صرت، متوقفاً في هذلية جلد قرية كبيرة تسمى
 إيزاورو. ويوصل في وقت كان فيه الأهالي يعيشون حالة اضطراب، حيث كانوا يتهاونون
 يحصلون للشروع في معركة ضد لكرنا، وهي قرية صغيرة غير بعيدة. ويتوجه الرحالة بهندوء
 نحو المسجد، همه الوحيد هو معرفة هل سيتعشى تلك الليلة، لأن عشر ساعات من المشي بمنطقة
 ممتوجة، فتح شهيتهم للكل. وهناك مسجد حوالي عشرين طالباً، وهم متسولون، مرحون على
 الدول، والفقراء في بيت الله ويصرخون ويضعفون ويتعبون. ولأن من القرويش لا تسمح له
 بمشاركتهم أكلهم، فإنه سينزوي بركن في المسجد. وكان يعرف بأن هؤلاء لا يتقبلون أن يأكلوا
 في التحرك داخل القرية، لطلب قوتهم اليومي. وبالفعل، بعد مرور ساعة، وصل طعام لآخر
 يتقاسمه الجميع بروح لغوية، وهو ما سيؤكد القرويش بأن الطلبة يعرفون المثلثات الميسورة
 بالقرية والأماكن المهمة التي تقدم فيها الصناعات بسقاء ودون تماطل.

وبعد أيام معدودة، سيستعد الرحالة للمغامرة لونه وسيبدأ من جديد عبور البراري، ملأ
 من قرية إلى أخرى، غير عابئين بما ينتظره في الغد، مثل عدم اهتمامه بلباسه.

إن مساحة بني صرت صغيرة (20 كيلومتراً من كل الجهات) ويقسمها جبل شاهق،
 وهو جبل بني صرت إلى جزأين متصلين تقريباً، من الشمال إلى الجنوب. وعلى جنباته تتدرج
 القرى على شكل مدرجات المسرح، وصولاً إلى السهل الذي تحيط به خضرة دقمة من أشجار
 الأرز والبلوط والريتون والصفصاف والذنب. وبالسهل، تقوم أشجار الفولكة، الغزو المستمر
 لتين الوحشي. ولا تصلح الأرض الصلبة جداً إلا لزراعة الذرة وقشعر. ذلك أن تغيير
 المزروعات على نفس الأرض كي تحافظ على خصوبتها، غير معروف في هذه المنطقة التي
 يظل فيها تقليد الأجداد، بمثابة القاعدة المثبتة من طرف الجميع. ويصلح أهالي السهل البارود
 والرسايس، أما أهالي الجبل الذين يعيشون قطعاً من الغابة، فهم تجارون ولحامون وصانعو
 القطران. ونهين كل عائلة ما تحتاجه من عظام الغنم والخل. وينمو الكرم في كل مكان، حيث
 تتسلق عروشه الأشجار المجاورة، كشجر التين والجوز والوز والخرزوف. وما بين نوفمبر وماي
 تسقط أسطر خفيفة، تساهم في سقي الأرض وملا المنابع. ويظهر الثلج لآخر دجبر، على قمة
 الجبل الرئيسي للقبيلة، أيذوب بعد ذلك عند الأيام الأولى لفصل الربيع. وهناك حقول مخصصة
 لزراعة الكيف والفشوق.

وتعتبر الجلابة الجبلية بمثابة القباس المعتاد، إضافة إلى السروال القصير الذي يصل إلى
 الركبة. ويتم فوق رأس كل واحد، ضخيرة طويلة من الشعر، تنزل حتى الخزام، من الجهة
 اليمنى للرأس المعاري والمطوق. وما أن يبلغ الطفل سنة أو سنتين، حتى يتم ثقب شحمة أذنيه

وتزينها بحفلات صغيرة من النحاس، تخضع للتلميع بحذبة كي تظل براقه. وترتدي النساء لباسا من الصوف، وعن عفيفات ويتجوزن سفرات الوجود. أما الهندية المعتملة، فهي بندقية تاغزوت فقط. ورغم أنها محدودة التأثير مقارنة بالمناطق الأخرى، حيث أن جزاها المخصص للطلقات عتيق جدا، إلا أنها تظل مرعبة مع ذلك. لقد ساهمت كما هو معلوم، في حملات الثورة الفرنسية والإمبراطورية الأولى وحصدت بدون رحمة، أرواح كتائب بكاملها ولدت إلى مذابح غطية وسط الجيوش.

وتوجد ببني عصريث أربعة كسام وهي: ليت عبد الله، ليت سعيد، ليت يخرز (أبناء الخدير)، (التسمية أمازيغية)، ليت وذرار (أبناء الجبل)، (التسمية أمازيغية)، ويوجد كل قسم ثلاثة آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالنسبة لكل القبيلة. ويمن القيادة من طرف الجماعات التي لا تعترف بلية سلطة أخرى.

ويسقى ولد بني عصريث سهل ليت يخرز وليت عبد الله. كما أن عددا كبيرا من القرى والبساتين يوجد على ضفتيه اللتين يجري الماء العذب والصالحي بينهما باستمرار.

وقد حصل الدرويش بأعرقوب على وظيفة، حيث عوض المعلم الذي أصابه مرض. وسجنني من وراء ذلك، ودون تعب، عشرين سنتينما تلاميذ عن كل تلميذ، دون أن نحسب سلات الزبيب ولتين لتي يتلقاها والتي يمكنه بيعها بالسوق. غير أن حادثا، كاد أن ينتهي بمأساة، سببته عن البيداغوجيا وعن قبيلة بني عصريث. فبينما كان ذاهبا في إحدى القبلي، إلى حلة رفاب بقرية أعرقوب ذكها، فتحت نافذة وسمع صوتا يسأله: من أنت؟ أحقته طلقة نارية رهيبة، وقد اخترقت الرصاصة جلابة الرحلة دون أن تصيبه بأذى، مما جعله يصرخ على الفور: أنا طلب. وزمجر الرجل وهو يخلق النافذة صارخا: لماذا لم تطلقها من قبل؟

ووصل الدرويش المرعوب إلى منزل الحفل، معتق للون، مرتد للفرائس، وكانت الخبطة والذاي والطبله تصدر ضجيجا قويا مرفوقا بزغاريد النساء والبهجة تعم المكان. واخترط الولد الجديد في الحفل، ملقنا بطنه بأنواع الأطعمة. وعند الفجر، وبعد قضاء الليلة وسط المحتفلين، اتعد بصفة نهائية عن هذه القبيلة التي لا تسوي فيها حياة الإنسان حبة خردل.

القرى الرئيسية ببني عصريث

- أعرقوب، (لقل)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل على ولا بني عصريث.
- قروا، (لسكين)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛

- أمزورق، (الأول)، (التسمية أمزورقة)، 100 منزل،
قرى العسكرية: 12 ألف من المشاة عند المكان المحتمل حوالي 60 ألف نسمة؛ التطعيم
القراني منتشر إلى حد ما. وهناك حوالي 60 قرية صغيرة من 10 إلى 100 منزل، موزعة على
السهل والجبل. وتوجد المسالك في كل مكان. وبالمقابل لا توجد طرق واسعة.

قبيلة بني مزدي (لبناء تفاح الصنوبر)³⁸

وهي قبيلة صغيرة تمتد مساحتها على 20 كيلومترا من كل جهات وتتوفر على ثلاثة
أنعام وهي: تيزمورين (أشجار الزيتون)، تازروت (الصغرة الصغيرة)، أولاد علي. ويوجد كل
قسم 2500 من المشاة مسلحين على الطريقة المغربية، أي ببنادق تاغروت، ورغم عددهم
القليل، فإن الأممي يحظون باحترام جيرانهم الأقوياء بفضل شجاعتهم وعري التضامن التي توجد
بينهم.

وبالشمال الغربي، في سهل الكبير لتيزمورين و تازروت، يزرع القمح والشعير،
وخصوصا الشعير الذي يعتبر الطعام الرئيسي للإنسان والحيوان. ويكسى جبل مزدي بالجنوب،
بأشجار الصنوبر الضخمة التي يباع خشبها لأهالي تاغروت، من أجل صنع مقابض البنادق.
ويستلذ سكان القبيلة فلكية الصنوبر التي يحملون إسمها، كما تزدهر عندهم تربية النحل، بشكل
كبير. ويصعب أن تجد أسرة مهما بلغ فقرها، بدون خلية نحل. ويباح فصل الأسفر اللذيذ بفاس
حيث اكتسب شهرة كبيرة، ويتم نقله في جرات ضخمة على ظهر الحمير أو البغال. ولا يختلف
هؤلاء الجباليون الريفيون في شيء، عن جيرانهم بني عسوت. فلهيهم نفس لزي ونفس الأسلحة
والعادات واللغة.

وهم أكثر عرلة من بني عسوت ولا يحبون السفر، كما لا يريدون استقبال الأجانب .
ولأن محمد بن الطيب وجد في هذه القبيلة مجموعة من طلبة الجوالين مثله والراغبين في
معرفة البلاد أكثر، فإنه سافر بني مزدي وسيمود مرة أخرى إلى مساجد كزنلية وبني توزين
وتالرميت. واستغرق المجموعة لمرحة بأراضي تمصان، حيث سلبخذ كل واحد وجهته.

³⁸ - يتمزيشت يسمى الصنوبر ثلاثة وتفاح الصنوبر مزدي.

القرى الرئيسية ببني مزموي

- **تيزمورين**، (أشجار الزيتون)، 100 منزل، وتوجد سهل راقع مغطى بأشجار الزيتون، وتتضمن القبيلة 50 قرية صغيرة، يوجد أغلبها على ضفتي واد تيزمورين الذي يسمى باسم القبيلة.

تقوى العسكرية 7500 من المشاة، عدد السكان المحتمل 37500 نسمة، التخطيط القراني محدود. الأرض متموجة. الاستقلالية تامة.

قبيلة بني ويشك

(أولاد الاستشاق) ، (التسمية عربية أمازيغية).

سيفارق القرويش لأصقاهم التسماتيين ليخوض باتجاه الجنوب الشرقي. ولون محطة بلراضي بني ويشك ستكون هي قرية تالوين الكبيرة التي تحيط بها شجيرات كثيفة من التين الوحشي. وبالمسجد مسجد الرحالة حوالي عشرين طالبا يقروون جهرا آيات من القرآن. ومع غروب الشمس، توقفوا عن القراءة وعلقوا ألواحهم بالحائط دون أن يكتفوا أنفسهم عطاء مسح الكتابة العربية البارزة بحروف مائلة. وسياخذون قفف متوجهين إلى أزقة القرية، حيث سيوقفون عند كل منزل صائحين: " المعروف هـ". وسيرجعون إلى المسجد بعد أن امتلأت القفف بشتى الأطعمة، من كسكس ولحم وفواكه وصل ويطبخ الخضار (دلاح) وبيض مسلوق وسك ورؤوس الأغنام المشوية والحلويات والزبدة ويطبخ اللحم بالبطاطس. وباختصار كل ما طبخته سيدات تالوين من أجل المشاء. وينت هذا الطبخ من المأكولات المتنوعة، من طرف الطلبة المغاربة - " المخطوط "، (وهي تسمية عربية). وبشكل المشاء الطعام الوقور الوحيد بالنسبة للطلاب الذي يكتبني عند مغاور الصباح بكسرة خبز يضمها بمرح وهو يفكر في مأنية المساء. وبعد أن نال محمد نصيبه من المخطوط، نخل في سبات عميق، في نفس الوقت الذي ظل فيه لأصقاهم الجدد يلعبون بالأيدي لو يروي بعضهم لبعض الآخر حكايات غريبة. وعند الفجر نهض من نومه وغادر المسجد بهدوء، حيث وجد نفسه بالقفلة بعد ساعة خطوة.

وتحتل قبيلة بني ويشك مساحة صغيرة (20 كيلومتر من كل الجهات) وتتضمن لربعة أقسام وهي: تالوين (الملتاح) (التسمية أمازيغية)، ربيع تاج (الربيع الأعلى)، (التسمية عربية أمازيغية)، آيت سلام (التسمية عربية أمازيغية)، ربيع الميت (التسمية عربية). ويجند كل قسم

2000 من المشاة مسلحين ببنادق ذات طلقات متكررة تم شراؤها من المهربين الإسبان. وتغطي القنات العالية، القسم الجنوبية، وفي الشمال يغطي السهل تحت خضرة بسقين الخضروالقوى المسقية بواد بني ولشك. ويتغير اسم هذا الواد في المياه الصلبة والمالحة بالأسماك، قبل أن يصل إلى حدود بني سعود وتمسكن. حيث يصبح اسمه واد سودي صالح؛ وسيحمل إلى البحر، شرق سودي الدريس، ما تبقى فيه من مياه.

وتغطي أشجار الزيتون الكثيرة التي تقاوم الزحف المستمر لأشجار السيل، زيتونا راما يتم تحويله إلى زيت بعصره تحت رحى ضخمة، بدقية إلى حد ما. وبشكل قريب الفجج عن الكروم الحديدة التي تتساق قسم أعلى الأشجار، أحد الموارد الرئيسية للأهالي، إلى جانب الصل. كما تسمح تربية الماعز والأبقار لمالكي القطعان الكبيرة، بوفرة العيش.

لذلك، فإن الفلاحين الكبار هم في غالبيتهم متعددو الزوجات، على عكس العرف السائد لدى الريفيين الذين يكتفون عادة بامرأة واحدة. والشيء المثير للاستعراب، هو أن الاسترقاق غير موجود أيضا في الريف ولا يمكن أن نرجع ذلك إلى حساسية أمازيغينا الشماليين، بل يجب أن نرجعه حسب اعتقادي، إلى سببين محددين وهما: بعد الصحراء الذي يجعل ثمن القيد باهظا جدا، وكثافة السكا الريفيين، التي تعتبر كافية للقيام بالأشغال الفلاحية والمنزلية.

ويلبس سكان بني ولشك الجلابة في الشتاء والحايك في الصيف. ورغم جمال المرأة، فإنها تهمل في الملابس الغنية، لفائدة الغلام المسال. ولا تهتم المرأة كثيرا بالحقول؛ بل تجمع فقط الحطب وتأتي بالماء من المنابع وتنهيه طعام الفلاحين والمصانين وأطفالها الكثيرين الذين لا تتوقف رغبتهم في الأكل.

القرى الرئيسية ببني ولشك

- تالويلث، (النظة الصغيرة)، (القسمية أمازيغية)، 300 منزل على واد سودي صالح.
 - تالويون، (المنابع)، (القسمية أمازيغية)، 300 منزل؛ يقام بها سوق كبير يوم السبت.
- ويقبل أهالي هذه القرية بوجود موظف محربي، يسمى قائد الريف.
- القوى العسكرية 8 آلاف من المشاة. عدد السكان المحتمل 40 ألف نسمة. القبيلة مستقلة، وتهتم أحيانا بعض الهدايا إلى السلطات. لتطويع القراني محدود.

قبيلة بني سعيد

لم يكن الدرويش الذي يتجول بدون هدف محدد ويعبر الريف بنفس الطمأنينة التي نعيش بها الجزائر، مجبرا كباقي المسلمين على انتظار موكب أو قافلة للمرور من بلد إلى آخر. فأسفله كانت تساي جيشا ومظهره الخفيف كان يحميه لفصل من حمالة القفلة له، ومعرفته بالأمازيغية والعربية كانت لفصل ألف مرة من كل الترخيصات (الترماقات) وجوازات السفر الحقيقية.

وعلى عكس الرأي القائل في أوروبا، فإن الانتماء إلى زاوية إسلامية يتضمن من السبلات أكثر من الإيجابيات، خصوصا عندما ينطلق الأمر بعبور منطقة خطيرة كالمغرب. وهذا هو رأي الدرويش وبصر الرحالة المسلمين الذين رددوا على مسمي العبارة التالي: « في الغرب (المغرب)، العربيان عليه لسان الله »، وهم يقصدون بذلك أن الأسماك نفسها تعتبر زوايا بمرض الرحالة الذي يرتديها إلى الخطر.

وإثره، فإن نموذج الأمان سيكون هو التجول في الإمبراطورية العثمانية بدون لباس، بمعنى أن يكون المرء عاريا كما ولدته أمه. والملاحظ، أن سلطة الرءاء هاته، لا تغطي من التعرف بعد على اللغتين العربية والأمازيغية اللتين لا يمكن لأي أوروبي إلى حد الآن أن يدعي معرفتهما. قد غادر محمد تاليلوت (الغزالي الصغير) في الوقت الذي لم تعد فيه أسفله تغطي جسده، وبذل أن يمنحه أهلي بني ولشك القساة ثوبا فلبهم كانوا يظنون خلسة إلى لطاره ولم يظفوا رغبهم في اقتراحها منه.

لذلك، لم يهتم أحد بذعله في ليلة من الليالي متوجعا بلباح الكلاب التي كانت تودع طي طريقتها هذا الجوار الذي كانت ستمزقه إربا لو تمكنت من الخروج من المنزل. فالكلاب في هذا البلد المتوحش، هو من الخطورة بمكان، لأنه يظل جالما باستمرار. وهذا هو الوضع الحالي بالنسبة لكل كلاب المغاربة، فهذه الحيوانات الهنسة تضطر لأن تقف من الفضلات، فهي تنتظر اللحظة التي يذبح فيها السيد المنزل ليوثر في الحقل المجاور أو وراء الحائط، وبعد انتهائها من هذا الطعام الفظيخ، ترجع إلى مكانها، في انتظار خروج عضو آخر من الأسرة. وهذا الصوم الدائم بضائع من هياجها ووحشيتها. وويل للعريب الذي يسمح لها بأن تلعق جسده، فهي إن تعضه فحسب، بل ستقرسه وتمصر دمه إذا لم يأت أحد لإنقاذه. وقد كشف لي رفيق يوما، عن بطة سلاه أو بالأحرى ما تبقى منها، قائلا بأن الكلب الذي سبب له هذه العامة، قصم بعضه ولحده رطلا من اللحم، ألهمه على القور أمام أعين الضحية، إن لم نقل إنه لزرده في عملية بلع سريعة.

سيواجه القرويش إذن صوب الشمال، تاركاً بني واشك وراءه خط مستقيم دون منحرجات ودون حواجز، انطلاقاً من تالوايت. وهذا الولد المستقيم هو عبارة عن شريط خطي تضيقه سماء صافية، تتخذ القرويش مرشداً له، بحيث كان يسير على خطته ببطء مصححاً أحياناً لدوي طليقة بندقية أت من بعيد. ولم يكن راغباً في لقاء السكان، لأنه كان يحلم بأنه من السهولة تتلقى رصاصة أثناء المرور فيلا قرب المزارع والقرى الصغيرة.

وعند الفجر وصل إلى تازاوين، وهي قرية كبيرة تكترج مثل منحرجات المصحح، على جانب نل. لقد حل ببني سعيد، وهي قبيلة بحرية ساحلية بتسمان غرباً وبقلعة شرقاً وبني واشك وبني بويحيى جنوباً. وتمتد على مساحة 20 كيلومتراً طولاً وعرضاً، كما تتوغل على أربعة أقسام وهي: أيت أحمد، أيت عمر، أيت علي، أمزوج، (قصة الجبل)، (التسمية أمازيغية)، ويجند كل قسم 4 ألف رجل من المشاة المسلحين بهنداق حديثة تم شراؤها من المهربين الإسبان.

ولأراضي بني سعيد رميلة وأيضاً صفرية ومجنبة ولا يوجد سكان على الساحل. وتقسم القبيلة إلى شطرين يمحان بالقرى بفعل اختراق جبل بني سعيد لها. وهو عبارة عن تلال متعظمة تمتد على خط مستقيم من الغرب إلى الشرق. أما السهل فهو جانب تماماً، إذ لا توجد به مطبخ ولا قنار، باستثناء ود سيدي صالح بالغرب والذي لا يبقى للأسف، سوى جزء ضئيل من المنطقة، لأن مجراه مستقيم وليس منحرجاً. وعلى امتداد هذه المساحة الشاسعة لا توجد أشجار، بل هناك فقط الحلفة وبحر متموج من حقول القمح والشعير يمتد نحو الأفق خلال فصل الربيع. وكان من اللازم على كل منزل بناء خزان أو خزانين بشكل جيد وتبليط أرضيتها بالخرف. ومن تازاوين سير محمد إلى زقزوا، وقد أطلقت هذه التسمية على مجموعة من القرى الصغيرة جنوب القبيلة متتالية من الشرق إلى الغرب. وسكن زقزوا الوسطى هم من الشرفاء الذين يعيشون في رخاء، بفضل إحصائيات الأهالي الوريثين. وغير بعيد عن هذه القرية الكبيرة، تظهر قرية بطيوة التي يبدو أن أمازيغي أغزو (بطيوة) ينحدرون منها. وهو ما يؤكدته الأهالي أنفسهم، وما يؤكدته أيضاً سكان بني سعيد الذين يتكون إلى وهران للإشتغال في الفلاحة لدى المصمرين.

وأثناء مقامه ببطيوة، كان محمد يلتزم الفرصة للحديث عن الإخوة الجزائريين الذين جعلهم " مكتوبهم " للأسف، تحت سلطة النصارى.. ومنذ سنين عديدة، ظلت العدواة قائمة بين بني سعيد وبني بويحيى. ولا يمر شهر دون أن يؤدي تطفل هذه القبيلة الأخيرة داخل القرى الجنوبية لبني سعيد، إلى النمل. ورغم أنهم أقل بأساً، إلا أنهم يقاومون بشجاعة وينتهي بهم الأمر، بفضل اتحادهم، إلى طرد أعدائهم الشرسين باتجاه الجنوب. وترجع هذه العدواة القديمة إلى سبب نقله. ففي أحد الأيام وبينما كانت بعض نساء بني بويحيى يقمن بزيارة قبر الولي سيدي عيسى، إذا بهن

يسمعن كلمات بذيلة تقوه بها رجل من بني سعيد ، حيث جاء على لسان هذا السائل عديم الحياء ما يلي: " هاها.. إنك لا زلت صغيرت.. ألا تخشين من مكروه؟ ما رأيك في أن..؟. هذا بالإضافة إلى العديد من المحادثات التي يتفنن الناس العديمو التربية، في قولها بهللك. ولأن سيدي عيسى كان مكلفا مقدسا، فإنه من البديهي أن تعمل الشرائع الإلهية والإنسانية على معالجة المندسين. وعند رجوع النساء إلى بيوتهن، اشتكين إلى أهلن وأخبرن القاريين بالإهانة الفظيمة التي سببها لهن السعدي. وعلى الفور نظمت حملة كبيرة، من طرف رجال بني بويحيى الأقوياء والبلقي القساوة الذين قاموا بخزو بني سعيد، ناهيين ومبيدين كل شيء، حيث استولوا على المواشي والفرش مخازن الحبوب وأحرقوا المساكن. وبعد مجهودات جبارة، تمكنت قبيلة بني سعيد المهرومة، من نحر أعدائها خارج حدودها. غير أن الصراع الأبدي سيتكرر كل سنة، مع تكاوب في النصر والهزيمة، حيث أن كل طرف كان يدافع عن كل شبر من أراضيه.

وبحينا عن مسرح الحرب، يزول سكان ثلاثة خلجان صغيرة وهي: مرسى سيدي حسان، مرسى سيدي أحضري ومرسى سيدي عيسى، مهنة الصيد والملاحة الساحلية والقرصنة. وتضمحل قواربهم لهذه الأصناف مجتمعة .

تخلوا معي صيدا واقفا أمامكم. ألا يبدو لكم مسالما، منهمكا في عمله، هادئا عندما يأتي شبكته وسط أسراب السمك؟ في الواقع، علينا ألا ننظر بالمظهر. فعينه الحادتك أبصرتا مركبا شراعي في الأفق. وعلى الفور سيغير رفاقه بواسطة الصياد، وينضمون إليه بسرعة بواسطة قواربهم . وفجأة سيصبح الصياد المسالم، قائد أسطول صغير escadre، لأنه أول من رأى الغنيمه غير المنتظرة. وإذا كان المركب المشار إليه كبير الحجم، فإن القرصنة أن يجدوا شيئا من المجهود الذي بذلوه في التجنيف.

أما إذا كان الأمر يتعلق بسفينة أوروبية صغيرة أو بقارب من قوارب ريفي الشاطئ أو بزورق ناكه وسط المياه، فإن أسطحنا لن يترددوا في مطارحته. وويل للنصارى إن هم سقطوا في قبضتهم، إذ يتم نهبهم بهرودة دم، وأحيانا ما يساهم إعلان الشهادة، في إنقاذ حياة الأوروبيين الذين تم أسرهم من طرف هؤلاء المتوحشين.

أما الملاحة الساحلية فتتمثل في نقل المسافرين إلى تطالون (تطون) وطنجة ومليبية. والمهنة الوحيدة بالنسبة لأهالي الداخل هي القلاحة. وهم يستخدمون الحقة بكل تأكيد، لكن فقط من أجل صنع نعال عديمة القيمة أو الحبال.

ويوجد بالقبيلة سوقان: سوق الجمعة يزقوا وسوق الإثنين بأمروج. وهناك تباع كميات كبيرة من الشاي والسكر الإنجليزي والتي يتم جلبها من فارس. وقد أكد لي بعضهم بأن قلب

السكر من أربعة إلى خمسة كيلو غرامات لا يسوي أكثر من فركين لها التجارية لهؤلاء الإنجليز ! إذ كيف يبيعون بشتن بطن، مادة باهظة الثمن في أوروبا؟ إنني أعظم بأن التهريب الإنجليزي يدخل إلى المغرب كمية هائلة من البضائع. ومع ذلك، حتى ولو كانت هذه البضائع مهربة، فإننا نتساءل كيف يمكن أن نتاج بهذه الأثمان البهيسة³⁹.. لماذا لم نشأ من جانبنا أسواق حرة بنمور Nemours وندرومة واللاصفية وتلمسان وعلى طول كل حدودنا الوهرانية، في كل مكان توجد فيه قرية أو قبيلة وحيث يمكننا أن نقوم معاملات تجارية ؟ إنها ستكون ضربة مميّنة تجارية جديدا لما وراء المانش..

إن الطعام ، وإن كان أفضل من طعام الجنوب الريفي، ليس لهذا مع ذلك، إذ يتكون دوما من القمح (كسكس الشعير مخلوط بالقول) وخبز الشعير الخشن وغير المطبوخ بشكل جيد. ويرتدي الرجال جلابية من الصوف ذات خطوط صغيرة بيضاء وسوداء. أما النساء المتألفات إلى حد ما، فلا يتحجبن. وهن مولعات بالأكواب القطنية، الإسبانية والإنجليزية، التي يصفن منها القصبة ذات أكمال قصيرة. وهن يهوين الاستحمام بشاطئ البحر. قرب سيدي عيسى وبعضهن يجهن السباحة. كما أن وضعيتهن الأسرية لا تثير الحسد مثلما لا تثير الشفقة. فهي نفس الوضعية التي حددها القرال في كل بلاد الإسلام، أي أنها مقبولة بشكل عام وذات ارتباط وثيق بنمط عيش المسلمين، وعلى أية حال، فإن المعاملات لا يشككون من هذه الوضعية وليس هناك داع للتغيير وضع اجتماعي رغم ثفرته، ما دام يتضمن على مستويات عديدة جوانب أفضل من نظامنا. فبينما أصبحت الأسرة عندنا عرضة للتمكك، حيث يجر كل طرف الحبل إلى جهته، ولم يعد هناك تقريبا ، أي امتثال للسلطة الأبوية ما دام النموذج فقط السائد هو العزوبة أو تحديد النسل، فإن المعاملة المسلمة ظلت إلى حد الآن أبوية، مثلما كان عليه الأمر في الزمن الثوراتي، أي قوية ومتحدة ومتراصة حول رئيسها الموجد الذي تعتبر مجرد إشارة منه، بمثابة أمر مطاع على الفور.

ولا تعتقدوا بأن المرأة لم تكتسب في الوسط الإسلامي وضعا لمسمى من الوضع المحدد دينيا. واستحضر هنا شهادة بعض المسلمين أنفسهم الذين أحاط بهم بالقول: " لماذا لا تصرحون أبدا بالحقيقة ؟ لماذا لا تعلمون عن ما هو حقيقي وما اكتشفته مرات عديدة، وأقصد السيدات المطلقة لزوجاتكم داخل المنزل؟³⁹ لماذا تتركون كل هؤلاء الرعايا السطة الجاهلين يتحدثون من وراء ظهوركم، وهم الذين لا يعرفون ولو كلمة واحدة بالعربية أو بالأمازيغية. ومع ذلك فهم

³⁹ -) بما أنني أكتب من أجل الضجة، فهل من الضروري أن أؤكد الخول المثقة التي تقروني، بأن هذه استثناءات لهذه القاعدة، وقد يوجد لدى كل الأعراق وفي كل عائلات العالم أزواج سيّون وزوجات سيّات جدا؟

يستمدون معلومات من مجتمعهم، من الأوغاد أصحاب الشائبة ومن ماسحي الأحنية في الساعات الصومية؟ *

ولست مطلبا بالبحث بعيدا عن سلطة حول السلطة المطلقة التي تمارسها المملكات على أزواجهن المتواضعين داخل المنزل والمتجعين خارجه. لتأخذ إذا ما سمعتم، مثال الدرويش. فقد افتخر أُمامي بكونه يسيطر بيد من حديد على الأرملة التي تزوجها بعد وصوله إلى وهران بفترة قصيرة وبواسطة بعض الأصدقاء. وقال ، لفتي كنت شاهدا في العديد من المرات على وضع الدرويش المثور للشفقة، أمام زوجته العربية التي كانت تأخذ منه كل مغزاته، فلما غدا، لتوزعها على أبنائها الثلاثة من زوجها الأول. وفي إحدى المرات، رأيتها تشد بغناق محمد بيدها المتشجبتين. فقد كانت ممسكة بتلابيب جلابته، طلبة منه فرنكين لشراء القهوة والسكر اللذين حرمت منهما منذ يومين على حد قولها. وكانت تكذب طبعاً، لأن الدرويش كان يمددا بكل المال الذي يكسبه. أما داخل المنزل، فقد كان الأمر قطعاً، إذ أن الأطفال الثلاثة المسمى لتربية والمأزرين من طرف أمهم ، لم يكونوا مطمئنين لأوامر محمد الذين يعتبرونه مجرد دخول عليهم. وفي أحد الأيام، رفع هذا الأخير يده لضرب أحد هؤلاء الأطفال القطميين، لكنه تراجع مرهوبا أمام لظافر الأم الموجهة صوب عينيه. ولأن البنيس كان يعلم بأنني مطلع على مصافقه الزوجية، فقد روى لي مشاكله وأخبرني بأنه قرر الهروب من وهران وترك هذه الأرملة المثقة هناك. ونظراً لأنني متمسك ببقاء كتابي حول المغرب فقد أشرت له خير نصيحة بقولي: ' ألم تسمع لها قهقري، قبل أن تقدم على زواجك الأخير (لأنه تزوج من قبل ثلاث أو أربع مرات)، بالحكمة العربية حول الأرملة والتي تقول:

نوصيك لا تلغز الهجعة ﴿﴾ ولو كان خدما مشموم

كنت تلطم خدعة الرجالة ﴿﴾ وهي تقول الله يرحم المرحوم *

ويمكنني أن أفكر بسهولة أسماء أخرى لأزواج مسلمين، خاضعين بالمطلق لزوجاتهم القلوتى يفعلن بهم ما يشأن . فمن خلال أسفاري إلى تونس وعبر قلايينا الجغرافية الثلاث، التقيت في العديد من الأحيان، عربا وأمازيغيين يحبون زوجاتهم ويحترمونهن بشكل كبير، حيث لا يتخذون أي قرار دون مشاورتهن، وهم مخلصون لهن ويعتقون بهن ويطلقون بصراحة لأصدقائهم المحميمين، بأنهم يفضلون زوجاتهم على أطفالهم. ونحن نعتقد عكس ذلك في أوروبا، لأنه لا أحد من بين المستعربين رفع صوته لمواجهة هذا الخطأ. ظو تمكن الكتاب الأوروبيون

الذين وضعوا مؤلفات حول العرب والأمازيغ، دون العلم بلغتهم ولا بملاباتهم، من تلك في الأخطاء الطيبة التي ارتكبوها، لسارحوا بحرق القصص المتبقية، المتداولة في المكتبات. وللأسف، فإن المستشرقين⁴⁰ قد سمحوا للجهالة بالسيطرة على هذا المجال المنطق بالمعاداة العربية وعيشت فيه كما أرادوا، بحيث لم يبق لهم بالمرصاد، أي معارض ولا أي نقد مستمكن، يظهر لهم خراهم. ويزداد هذا الشرر استحالاً كل يوم. فهؤلاء الأشخاص غير المسؤولين الذين شجعهم الصمت المتعمد للمتخصصين، بالتشجيع باستمرار لغفلتهم المغلفة بجمال جوفاء رقيقة ومؤثرة. أما الجمهور الأوروبي الطيب، فإنه يتبع هذه الجرعات حول المغرب والجزائر وتونس والمنطق الإسلامية الأخرى. وأنا أعلم، بأن القسطنطين سيطر على التركم من القرعات التي يتجاوز فيها الائتلاف مع الأخطاء. وأنتم أيها الكتّاب الأوروبيون الذين تريدون الحديث عن العرب والأمازيغ وعن بلادهم، بشكل دقيق، اتبعوا هذه النصيحة: تعلموا أولاً لغتهم الصعبة بشكل لا يصدق، وبعد ذلك، اكتبوا عنهم، وما ستجزيونه سيكون جيداً.

إن قبيلة بني سحيد تمتاز بقرية الماعز والأغنام وقبائل التي تنباح في الأسواق مقابل نقود فرنسية وإسبانية. ولا يطرح أي مشكل بخصوص هذه النقود، فهي قابل على صلاتها، سواء كانت قطعاً فضية أو ذهبية، مثقوبة أو مزورة؛ المهم أنها تفضل على النقود المغربية. وتوفر الأجراف الموجودة على شاطئ البحر صفورا روحية جيدة، يصنع منها الأواني رخي، يصنعونها بعد ذلك إلى كل الساحل الغربي حتى نواحي تيطلون (تطوان). وتوجد مستودعات كبيرة لهذه الرخي بالسفارات الطبيعية لهذه الأجراف.

وداخل المنزل، تعتبر الدواجن ملكية للنساء. وعن يمين الدجاج فقط. أما القبط والإوز والديك الرومي والسمكة، فهي غير معروفة. وينطبق هذا الأمر على الريف برمته. ويجري الدجاج في كل مكان بفناء المنزل بلحفاً عن طعمه وسط فضلات المواشي. كما تستكثر ربة البيت بما تحصله من بيعها لمنتجات هذه الدواجن وتشتري بذلك مواد زينتها (مشط، مرآة، خنخال، أساور، عطور).

وبالمثل أيضاً تربي القنطريون تملأ بطنها، ليس بالأطعمة القليلة التي لن يقدمها لها أحد أبداً، ولكن من خلال صيدها فنشيط القنطريون والسمكيات والمصايد إلخ... وفي الريف برمته، خصوصاً عند بني سحيد وتسمان والعمية، تقام بمناسبة الوحدة⁴¹ أو حفلات الزواج، مهرات

⁴⁰ - تكلم هنا عن أولئك الذين يمارسون اللغة العربية وأدبها. مسجون هم القبايل، تكلم على قديم، مكهرون جا في مواليدهم.

⁴¹ - وهي حفلة إسبانية، تقام على شرف أولياء المنطقة.

لبنية، متبوعة بألعاب شعبية بالفرنسية ، لكنها تتم بدون جدار. فبعد عشاء غامر مكون من اللحم المطبوخ بزيت تحرق اللحم بسبب التوابل القوية الموجودة بها بكثرة، يختار النساء والأطفال والرجال والشيوخ مكافأ ملائمة خارج القرية، هو عبارة عن حفل للمناورة، يسمح للمتعارفين بالتحرك كما يشاؤون.

وسيجلس النساء والأطفال وعازفو الفاي ولقاروا الطبل، القرفساء على خطين متوازيين، ووسط جنين الصغين ستوقد نار تضئ المشهد. وتبدأ النساء، الفتيات والمجوزات، بإشاد أشعار أمازيغية ترتجل في قالب الأحياز لهذه المناسبة. وتجيء نغمات الفاي وأصوات الطبول بضجيج يوقظ الميت من نومه كما يقال. وفجأة تتوقف الموسيقى ويرتجل الموسيقيون بدورهم أشعارا. وعندما يفتنون من آخر بيت، يستأنفون من جديد القفح في قصباتهم والصرير بقوة على الطبول المصنوعة من جلد الحمير. وعند الفجر، يوزع " المسمن " و " القريد " وبعد هذه القوجة الخفيفة يتهاوى المحاربون لمركبة وهمية، فيشكلون دائرة كبيرة ويهمل عشرون رجلا من الجهتين، المتقابلتين للدائرة، عشرة من كل جهة، ويتقدمون باتجاه بعضهم البعض. ويحدث الالتقام في مركز الدائرة بالذات ، وهنا يرفع صوت صالما: *Aouith ithid ! Aouith ithid !* (*ايفراخ*) *a ifrakh* (*لعلوه.. لعلوه.. لها الأطفال*)⁴². وتستبدل الكلمات الأخيرة وسط رشقات جماعية من عشرين بندقة، صرير نواقلها نحو الأرض، مما سيؤدي إلى تطاير هبار كليل. وفي الوقت الذي يرجع فيه المحاربون إلى أماكنهم، تتصاعد زخرفات النساء الحادة وتقرع الطبول مساهمة في تحريك وجدان الحضور.

وستتقدم عشرون بندقة أخرى وسط الساحة لتقوم بنفس العملية بحيث سيستمر نفس المشهد حتى وسط النهار، باعثة لدى المتفرجين والفاعلين حماسا يصل إلى حد الهياج.

القرى القرويسية ببني سعيد

- تيفازيون (الضعاف)، (القسمية أمازيغية)، 100 منزل، على المنحدر الشمالي لجبل بني سعيد وتوجد بها شجيرات القين الوحشي بوفرة.
- سيدي حسن، 100 منزل، على البحر الأبيض المتوسط؛
- سيدي محمد والحضري، خليج صغير، 100 منزل؛

⁴² - المقصود بكلمة لعلوه هو الهارودا وهو حنكر بلغة تمازيغية.

- مهدي عيسى، 50 منزلًا، دلف الخلوخ، يومه الزوار بكثرة، وهناك قبر باسم سيدي عيسى موجود بمضلي صغيرة وسط القرية. ويخترق هذه الأخيرة جدول صغير هو ولد سيدي عيسى الذي يلقي في البحر كمية قليلة من المواد.

- زقزوا القنطارية (الخضراء القنطارية)، (التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل.

- زقزوا القوقاية (الخضراء القوقاية)، (التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل بالشرق.

- بطوا (القنطرة)، (التسمية أمازيغية)، 20 منزلًا، جنوب زقزوا.

- سوق الاثنين، هو مكان تبيع غير مسكون ، تجتمع فيه كل يوم اثنين عشود عائلة ويهر واد الكرت شرق السوق، مشكلا على مجرى مستقيم، حدودا طبيعية بين بني سعيد والحية. وتوجد أكثر من 200 قرية على منحدر جبل بني سعيد.

قرى العسكرية: 12 ألفا من المشاة، عدد السكان المحتمل 80 ألف نسمة. سهل شاسع، باستثناء جبل بني سعيد القليل الارتفاع. التحصين القريفي محدود. القبيلة مستقلة، لكنها تقبل مع ذلك تولد مثل المظنون بزقزوا ، نظرا لقربها من الاسبان المتواجدين بطنجة.

وهذا الشخص الذي لا يتوفر على أية سلطة، يمنح نفسه مع ذلك، لقب قائد الذي لا جدوى من ورائه وكان إسم هذا الشخص أثناء مرور الدروبش بزقزوا، هو الحاج العربي بولشكي.

43 **قبيلة بني بويحيى** **(التسمية عربية أمازيغية)**

كانت ربح قنطاري تهب بغوء، مسامة في دبول القنوج فوق الرمال الحارقة القاربت التاسع، هذا القنوج الذي بنيت في مثل هذه الصحاري. وهناك رجل واحد تجرأ وغادر زقزوا في جو كهذا تركا البحر وراءه ليخوض في الجنوب بخطوات كبيرة. فهذا البئيس أن يكون عرسة للاعتداء، لأن أسنانه باقية ورأسه عاز ورجليه حافيتان. وكانت الشمس الإفريقية الحارقة ترسل أشعتها القارية على رأسه الحديدى. ومع ذلك، فقد ظل يتقدم إلى الأمام، غير أنه يبرن

⁴³ - بالنسبة لأماليخت وكل اللهجات الأمازيغية الأخرى، فإن الألف المتصورة التي تنتهي بها أسماء الأعلام العربية، تتحول في الغالب إلى ياء، مثلا موسى بالنسبة لموسى ويحيى بالنسبة ليحيى.

السماء ولا بأحزاق السهل وعند حدود بني سعيد، قرب سوق الفخيس، مستقر الحيث الثالثة
للدرويش من بني سعيد، هو في حشر جيد تسفل فريح ورأسها إلى الأمام وتثير ربيعة رحلية بسبب
مرحلتها الجذونية وسموكت هذه الجهاد على بعد خطوات منه، بعد أن شد لجلتها من طرف
رائحتها. عندئذ غطيت شمس طويل القامة الدرويش، من فوق ركبته ومحركاً عصا طويلة
مطوية، متحدثاً تلمارياً:

أهلاً.. هل أنت من بني سعيد؟

• كلا، أنا من بني وائل.

• ذلك تكذب، فأنت من بني سعيد.

دأب الشخص بمصاه المطوقة، متظاهراً بطبع الجوال الذي لم يتوقف عن ترديد: "أنا
أنت سعيداً، أنا طلق جئت هنا الدراسة". وسأله الرجل بعد أن توقف عن جس حظه بمصاه:

• طيب، قل لنا، هل تنوي قبيلة بني سعيد مهاجمة قريبتنا؟

• طبعاً لا، فأنت تعرفون مثلي أن بني سعيد يثقونكم. أما الذي يمكن أن يؤلاه قريبتنا

فبأساء أن يطوئه أمام حياتكم؟

والآن هؤلاء القريسي لم يطمئنا إلى تولدهم بأعداء القبيلة لدخل أراضي العدو، فأنهم
عدوا من حيث أنوا. وركب محمد وراء واحد من بين هؤلاء القريسي لتطعم الطريق، ليعود
الجميع إلى القرية الموجودة على مسافة قريبة، جنوب سوق الفخيس. وللاحتفاء بوصول الجوال
الذي ادعى بأنه حقم كبير، تم ذبح خروف وطبخه في العديد من الدور وأكله عن آخره.
وسلمى الرجال ليلتهم في القراء وهم يشربون الشاي ويحفظون فيما بينهم. ولأن محمد بن
الطبيب كان قليل الكلام، فبقه كافي يكتفي بالإنصات وبالملاحظة والفتنم وكان موضوع الحديث
يحلل بالذوات وبالعمليات الجريئة التي يشهدها أسماها شعر الصبيان.

وعند منتصف الليل خلد الجميع إلى النوم؛ وتم إدخال الدرويش إلى خيمة واسعة، قسمت
إلى جزأين بواسطة الحصى الطويلة التي تستخدمها. وفي جهة تلام الأسرة مجتمعة بصف طويل،
سيشغل الدرويش أحد أطرافه، وفي جهة أخرى تتواجد الجهاد التي كملت أرجلها والجمال
المرغصة التي شددت أرجلها بشكافة من الصوف. وبالساحة التي تحيط بها مائة خيمة بالقنطرة،
توجد الخراف والماعز والأبقار التي تجتر بهدوء تحت ضوء النجوم. وقد تتحرك أحياناً بهدوء
وبشكل جماعي أمام نهج حوالي مائة من الكلاب التي تغير من كل الجهات عند سماعها لأصوات
بنات أو من الحادة أو لأصوات الضجاج المتصاعدة. إن ذلك تتعرض الخراف والماعز والأبقار لمضات
الكلاب الباحثة عن مكان لها وسط القطيع، وتكرو الخيمة وتكوس وهي في حالة رعب على

الرجل الناعمين. وبالرغم من هذه الحجة، فإن الدرويش كان يستمر في شغفه مطمئنا، لأنه متعود على ما هو أصعب من ذلك.

وظل محمد يومين عند استقلاله الجدد، ثم تطلق متجولا في البلاد، بغضا في الدولوير، رانكا الحصان، مشركا في غزوات جريئة بدافع الفضول، ممسكا كفارس غير محنك بعرف حصان الصحراء " شارب الريح" الذي يلتم التضاءات الشاسعة مريما كالبرق ودون كلل. وكاستراتيجي جيد، فإن الدرويش أقم موقعا فرنوسي بالكرك، وهي زاوية مخصصة لسبدي محمد بن قنور، ومنها كان ينطلق نحو المناطق الأخرى ثم يعود إليها لاسترجاع قواه وأخذ قسم من الرحلة في هذا المكان المضيق.

توجد الآن بقبيلة بني بويحي، وهي قبيلة كبيرة من الرجل توجد بجنوب قلعة. مساحتها 40 كيلومترا طولا وعرضا وتتضمن خمسة كسام وهي: إغولن (للصوم) بالشمال، (التسمية عربية أمازيغية)، والفارث (الحافة) بالوسط (التسمية عربية) والتي تنقسم بدورها إلى قسمين وهما: الفارث وبني لعمدا الكرك (الحجر) (التسمية أمازيغية)، ربع وادا (القسم السفلي) بالجنوب (التسمية عربية أمازيغية) .

ويجد كل قسم 5 آلاف فارس.

وإذا ما استتبنا جهة الغرب، حيث يوجد خط طويل من القتال يمتد من الشمال إلى الجنوب ويمتدول بعض الشيء نحو الغرب، ابتداء من الوسط، حيث يسمى تارة جبل بني بويحي وتارة جبل الكرك، فإن المنطقة برمتها هي عبارة عن سهل شاسع مكسي بالشج والحقلة، يقطعه واد الكرك الذي يحمل قطرات من المياه إلى البحر الأبيض المتوسط، غرب قلعة. ويتوج جبل الكرك ببقلها غابة لم يبق منها إلا الأثر بفعل الحرائق والرعي وقطع الأشجار الذي يتم بدون حد ولا تعقل.

وقد غرت الحافة المنحدرات الأولى للقتال. وتساهم هذه البنية التي تعترق كل سنة، في تكلل الأشجار التي تشكل الواجهة الأمامية للغابات الموجودة بقمة الجبل. ويستعمل بني بويحي الحافة بطريقة أصيلة، حيث يصنعون منها خياما كبيرة ومقوية جدا. وهل من الضروري التأكيد بأن الأحذية والحبال والحصائر وممسحات الأقدام والشباك والتربال المستخدم لطهي الكسكس، مصنوعة جميعها من الحافة؟ لكن صحراء الفارث لا تتضمن الحافة فقط، فهناك حقول صالحة لرعاية الشعير وحتى القمح. لكن الثروة الرئيسية للرجل تتمثل في مواشهم. فتربية الأغنام والحياد تسمح لهم بتحصيل مكاسب هامة، إذ أن الصوف الأسود والأبيض المتميز بجودته، ورغم

ثمنه البخر (50 سنتيما فقط للجرة 10000) هو بالنسبة إليهم مصدر ربح مؤكد أكثر من محاصيل الحبوب.

طبعا في القنرات، هذه الفزاع الطرية الصحراء، قد جنت ريفي بني بويحيى رحلا. ورغم أن عاداتهم مغيرة لعادات إخوانهم بالشمال والغرب، إلا أنهم حافظوا على لهجة تاملزيغت الطعنة تقريبا. وهم يرتدون أيضا الجلابة الرصادية في فترات الراحة، لكن ما أن يستطروا جيدهم حتى يرتدوا الحلباء الأخف والأقل مضيقية. ذلك لأن الأكمام القصيرة والضيقة للجلابة تمنعهم من استعمال مضطهم القشبي بمهارتهم المعهودة. والمضطام هو سلاح خطير، يمسك الرجل من عنقه أو ثيابه أو كعبه ويرفعه وقد حبست أنفاسه أمام غناطه الجالس فوق سرج الحمير. وفضلا عن المضطام الخطير، فإن الفارس مسلح بسيف ومسدس وبندقية. ويحتمل هذه الأخيرة ضد الغرباء الذين يريد القبض عليهم أو قتلهم. أما المضطام فهو مخصص أساسا لأمر أهلي لقبائل الأحرى، المتحاربة فيما بينها باستمرار.

ويركب الفرد من بني بويحيى حصانا مسرجا بشكل رائع على الطريقة العربية، وهو يبدو برأسه العاري ونسيته الكثة ورجليه وساقيه العاريين كمتوحش يتخلص مظهره مع الحملي الذهبية والفضية التي تزيين القمام والمرج. ويهشق متابعه الخيلان والقمام دون أمل في الإيقاع بها، بل للاستمتاع فقط بمسابقة الفرج وطلع هذه الحيوانات المسالمة حتى قهر. ورغم كل المضايقات التي تتعرض لها من طرف الإنسان، فإنها ترجع إلى ماواها بالربوع الطافية المفضلة لديها.

وتبدو علامات النعمة على أهالي بني بويحيى، وهو ما يمكن تلمسه من خلال ملابسهم الفاخرة والحملي الذهبية والفضية التي يتفخرون عليها. أما النساء فهن جميلات إلى حد ما، لا يتحجبن أبدا وليس متزومات. وهن يشاركن الرجال أحيانهم كرفقات ولا يتصنعن الحجة بل فهن يقمن لأكثر من واحد، دروسا في الحكمة والحسن السلوك. لكن عيون الصغير الذي يشتركن فيه مع الرجال، هو عشقون للشاي، وتعديدا للشاي المطلى بشكل بشير الفتيان. فليتمكن أربعة رجال وأربع نساء أن يرتشفوا في أسية واحدة حوالي ثلاثين كلبا من الشاي لكل واحد، مستهلكين بذلك قلبا من السكر دفعة واحدة.

وتوجد بالقبيلة أربعة أسواق وهي: سوق الجمعة بقسم بخيان وسوق الإثنين بالكرت وسوق الثلاثاء بربع ودا وسوق الخميس.

وتباع البضائع هناك بأثمان بخسة، حيث تؤدي مبالغ زهيدة مقابل جبال من الصوف المجتر من ظهور كبش قنرات الضخمة.

ويتعالف بني بويحيى مع قبائل صحراء انجاد. وحيلما يتقرر القولم بغزوة من طرف القباد الخمسة أو ستة بالقبائل المتعاقبة، فإن كل قسم يقدم العدد اللازم من الرجال، وكل من أحجم عن القولم بذلك، سيتعرض لفريضة من 100 إلى 150 فرنكا. وتوزع الضريبة بين كل قبائل المشاركة في الحملة. وبطبيعة الحال فإن القباد يحظون ببعض الامتيازات أثناء عملية التوزيع.

القرى الرئيسية ببني بويحيى

- القوت (الحجر)، 100 منزل؛
- سوق الخميس، 10 منازل؛
- سوق الجمعة، 20 منزلا.
- القرى العسكرية: 25 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 125 ألف نسمة؛ الصحراء مكمسة بالحطلة والشوح. يتم تعلم القرآن بحسن الشيء تحت الخيام. ويوجد بالقبيلة لطبخ هائل من الأغنام.

قبيلة قمية⁴⁴

(تصغير لقلعة) ، (التسمية عربية أمازيغية)

تطلقا من قرية الجمعة إلى الحدود الجنوبية لقلعة يمتد السهل دون وجود أية شجرة ولا لأي نوار ولا لأي منزل. وفجأة تبرز تلال بني بويحور العارية والمكونة لجدار ممتد من الشرق إلى الغرب سيجر القارات (الخاريت) على التوجه يمينا نحو كبدانة وطريفة، وما أن يخرق واد كرت أراضي قلعة حتى تمتلئ ضفافه بالقرى. وإن يعود أمانا ذلك الغدير الصغير بدون اسم، الذي كان يتفادى التسرب داخل الشقوق الجافة للقارات، فهو يجري الآن فوق أرض آبل جفالا، منتعشا بمياه الينابيع التي يلتقي بها في مجراه. وتتوالى الحقول المزروعة بدون تقطاع، متناوبة مع كتل الصبار وبساتين الخضار والفواكه التي تستمد حياتها من مياه النهر. ومنال الأرض ، فإن السكلى سيتغيرون هم أيضا . وإن يموتوا شبيبين يسكن الصحراء.

⁴⁴ - لا تستطيع الحروف الفرنسية، نقل التعلق الحقيقي لبعض الحروف العربية والأمازيغية، فكلمة قلعة مثلا، لا يستطيع الحلق غير المتمرس أن ينطقها كما يجب. فإذا كانت العين مألوفة لديك ، فليطرحها القبة، وفي حالة العكس تطرحها قلالة Guelare.

إن القميين الأتداء الذين ما زالت طبيعتهم أقرب إلى الفوحش يحثرون مع ذلك أنسا مهذين نسبيا، بحيث يتولون الصلوة في لريف برسته على المستوى للتسلح الديني وعلى مستوى الحضاري. ولأنهم كانوا مرارا إلى الجزائر، وخصوصا إلى محافظة وهران، فإنهم لاحظوا كيف أن القنصاري، وتجنيدا الفرنسيين، يتفرون على مزاجا ليست لديهم، وهم يحثرون بذلك صراحة. كما أن القرب من طباية جعلهم واعين بأن القنصاري ليسوا، كما يعتقد الربيون الآخرون، أنسا لا أهمية لهم. ومع ذلك فلهذه ثقافة بأنه لا توجد في الدنيا أية قوة قادرة على مواجهتهم في إقليمهم الصغير. وسيكون هذا الاعتزاز بالنفس، المبالغ فيه إلى حد القلامقول، سببا في ضياعهم. فهم سيتفنون في رفض مساعدة جيرانهم ضد الأسبان الذين كانوا في نزاع مستمر معهم ؛ بل سيحترون بأنه لو توفرت لهم بعض السفن لكافوا قد احتلوا إسبانيا. ويبدو أن جهل الربلي يتجاوز هنا كل الحدود الممكنة. فكل الربيين يقولون لي بأن دول القنصاري تؤدي لجزيرة لسلطان القسطنطينية. وهم يشاطرون في ذلك ، رأي كل مسلمي العلم. والأمر لطريف لديهم هو تأكيدهم على أن فرنسا غير قادرة على إخضاع الريف. وهذا شرف تعطي به فرنسا دول غيرها من القوى الأوروبية. وبالفعل، فهم يزعمون بأن قبيلتين لو ثلاث قبائل ريفية، تكفي لهزم إنجلترا لو ألمانيا شر هزيمة !

وقد لاحظت مرارا كيف أن القميين يأخذون عنا كل مساولنا ويتركون جانبنا مزليانا. فبعد أشهر من الإقامة عند المعمريين الفرنسيين بالجزائر، يستهويهم الخمر فوشربونه حتى القمالة وينغمسون في الملذات وينقلون في ذلك ككل المسلمين غير الورعين. فالصلاة والصيام وكل الممارسات والمواظب الأخلاقية الجميلة الصادرة عن القرآن، تصبح موضوعات لسخرية دائمة من طرف هؤلاء الأشخاص ذوي النفوس القوية.

لكن حذاري من هذا المسلم المنحرف! فمع تقدمه في العمر، يتقبل ويريد التوبة والتكفير عن الأثام والذنوب التي ارتكبها وخالف بها دينه. فما الذي يمكنه فعله لتهدئة الله تعالى؟ ما هو القربان الذي يمكنه أن يقدمه كتكفير عن إثامه؟ ليس هناك ما هو أفضل بالنسبة لهذا الإله الضيور من قدم القناني للروعي الذي مسؤول سلفنا تحت سيف المذهب القالب الذي تحول بفعل الظروف إلى حبر مكلف بالأصلاحي. فالمسلم الذي لا يلتزم بتعاليم دينه هو إنسان خطير وحثير، يلزم الاحتياط منه. غير أن مواطنينا غالبا ما ينسون هذه الحقيقة، معتقدين أن المسلم الذي يشاركنا بذلتنا هو أفضل من المسلم الذي يتبع تعاليم القرآن. وهذا خطأ كبير وشنيع، بل يمكن اعتباره سببا في كل الخيانات والاعتقالات التي تعرض لها مستوطنونا غير المجريين، منذ احتلال الجزائر.

إن محمد بن الطوب بذلكه العملي والقيته الصلبة، ثم يصفق أي شخص في المغرب، فقد كان يعلم بأن المسلمين الورع غير محتاطون منه مطلقا محتاطون من أي معلم غريب. كما كان يعلم بأن عليه التهيب من المسلمين غير الورعين. إنك لم يرتبط بأي كان ، بما في ذلك المرتدين أو ثلاث نساء اللواتي تزوجهن صنفه وطقهن أو تخلى عنهن بنفس اللامبالاة ملصقا لنداء التحوال لفتان.

وسنجد الآن على ضفت ود الكرت. حيث غادر بني بويحيى متوجها نحو الشمال خلال النهار ومتوقفا بالقرب للمحكمة لتدبر أثناء الليل. وسوصل إلى أسائر، وهي قرية كبيرة تضم 300 منزل من طابق واحد، توجد قرب النهر على سهل رملي شاسع حيث ينمو الشعير والقمح وقتين فوحشي. وكان بعض الرجال جالسين بباب المسجد مرتدين للجلابة السوداء واضعين يدايهم بين أرجلهم ويتناقشون في أمورهم بتمازيغت مطاطة بعض الشيء عن تمازيغت سكان الريف الأوسط. ولم ينتبه أحد إلى الدرويش الذي سهر أمام المجموعة متمتعا بسرعة عبارة : " السلام عليكم " لينخل إلى المسجد حيث وجد هناك حوالي عشرين شابا، بعضهم يتلو آيات قرآنية بصوت عال والبعض الآخر يخط لمصفا أو يرفع جوارب أو يرتق جلابة. والملاحظ أن مهنة الخياطة في القرى المغربية وفي الريف، مشتركة من طرف الطلبة. وهو عمل جميل يضاف إلى مهام أخرى ، كمحضور الجنائز وصنع الأحذية. ولا يقتني سكان القرية بأنظمة الطالب وليرثه وتزويده باللباس، بل يكلفه بكل أصال الخياطة التي يحتاج إليها أفراد الأسرة ويمنحه أجرا وبعض الهدايا مقابل ذلك.

وينتمي كل الطلبة الخياطيين بطنجة، إلى قبيلة شمره الجبلية، وبالمقابل فإن الطلبة القطين لا يمارسون هذه المهنة، بل إنهم يتكربون. خارج ساعات الدراسة، على القرابية أو يساعدون أبائهم في أشغال الحقول.

وطعما، فإن الدرويش سيستقبل من طرف الطلبة المهتمين فقط بمعرفة القبيلة التي سيملاون فيها بطونهم بشكل جيد. وسيقدم العشاء المكون من البصل والسمك والبيض المسلوق والفردة والقمح. ويستحق خبز الشعير وحده، وقفة خلسة بسبب حجمه الذي يساوي ذراعا، طولاً وعرضا، والذي يسميه القطينون أنيكول Ancygoul . وهو يذكل بالبيض المطبوخ بالزيت والقوم الذي يضاف إليه القفل الذي. وفي كل منزل يستهلك الشاي الشديد الحلاوة بكثرة ويرتشف الطلبة في المساجد كمية كبيرة منه.

وبعد استراحة دلت يومين أو ثلاثة، غادر الدرويش أسامر متجولا عبر القرى التي يقضي بها ليلته ومكتشفا بذلك، هذه القبيلة الهاتجة والرائجة في رمي كل إسباني ملولية في البحر.

وتنتد قلعة على مسافة 20 كيلومتر من الشمال إلى الجنوب و 40 كيلومترا من الشرق إلى الغرب. وتحتوي على سبعة أسام وهي: بني شكير (أبناء الشكر)، (القسمية عربية أمازيغية)، فرخانة (الصخر)، (القسمية عربية أمازيغية)، بني بوغمرن (أبناء أصحاب المراق)، (القسمية عربية أمازيغية)، بني بوغمر (أبناء الضم)، (القسمية عربية أمازيغية)، بني سيدال (أبناء الحواجر) (القسمية عربية أمازيغية)، بني بوبارور (أبناء صاحب الخراف وقديده) (تحويل الكلمة العربية فرور)، مزوجا (قمة الجبل الصخرية) (القسمية عربية أمازيغية). ويحضر قسم بني شكير من أكبر الأقسام مساحة وأكثرها سكانا. كما أن الأراضي في هذا القسم، أكثر خصوبة وأشجارا وأشجارا سقيا. ويساهم ود بني شكير الذي يصب في البحر قرب ملولية تحت اسم ود فرخانة، في الحفاظ على الخضرة القليلة الموجودة بهذه الأرض الصغيرة المعجبة إلى حد ما، وذلك بفضل المنابع المائية التي تكادى مجراء. وتحضر مزوجا بدون منزع، فرع الشمالي الأخير القلوت (الفاريت) الذي سيمتد عبره خط من الأراضي القاطنة والمرية، باتجاه الغرب حتى البحيرة المائية أبو عرفة. وإذا ما استثنينا بني شكير الذين نجد لديهم بعض الغابات الصغيرة المتوجة قسم وجنات الجبال، فإن الأقسام الأخرى محرومة من الخضرة، إذ أن ثلثها جرداء متكتلة بفعل مياه المطر ومكتلة بتأثير أشعة الشمس الحارقة. وحدها شجيرة القيقب الوحشي تقاوم بنجاح الأرض القاطنة والحرارة الملتصبة للشمس. وهي توجد في كل مكان، حول المنازل والقرى، حيث تنمو في أماكن لا يصلها الإنسان، وتقدم للجميع وخصوصا الفقراء، لأكبتها الحمراء الحلوة والشفافة. ففي كل المناطق الفقيرة بشمال إفريقيا، نجد علاقات بأكملها تستسلم للكسل وتتحدى الجوع، مائة بطونها على مدى شهور عديدة بالقيح الوحشي. غير أن المحظون من كل الأزمنة والأمكنة لم يحترموا قوت الفقير هذا، إذ أن الضرورات المزعومة للدفاع والهجوم، أدت إلى مسح غابات كاملة من الصبار. وهذه كارثة لا تعرض خطأ سياسي شنيع وقسوة مجافية، تجعل غالبية السكان الجائعين، يشعرون لمدة طويلة، بالحدس تجاه الفاقمين.

وبفضل القديسون بناء مسكنهم فوق الأماكن العالية، لكي يطلوا على الأراضي المحيطة بهم. وتتضمن أغلب قتال قرى عديدة، منها ما هو مطلق بقسمها ومنها ما هو موجود بمنحدراتها. ولا تتوفر المساجد على صوامع، وهي تتميز عن المنازل بالعلم الأبيض المعروف فوق عمود تم تثبيته وسط ساحة بيت الله.

إن مجاورة أراضي قلمية للغريت، أدت إلى عدم خصوبتها. وكلما سلحت القرصة
لأمازيغي المنطقة بتحدى هذا الوحش الصحراوي الذي يبتلع كل شيء، فإلهم يقومون بذلك.
لهذا، فإن المرء يندعش عند رؤية حقول الشعير وبساتين الخضار، فوق أراضي كانت منذ قرون
خلت، عبارة عن صحاري، ولربما كانت مغمورة بمياه البحر الأبيض المتوسط.

وبالفعل، فإن شيوخ قلمية يقدمون تفسيراً لتكون الأراضي المنبسطة التي تحيط بجبلهم
من مصب واد الكرت إلى مرسى مزوجا، جاعلة الأماكن العالية في الوسط، لهم يحكون بأنه في
الأزمان السحيقة، كان البحر يغمر كل السهول، مستقيماً لهم جبل الوسط التي كانت عبارة عن
جزر متناثرة وسط المياه. وكان الإسبان قد سيطروا في هذا الزمن الصديق على هذه الجزر قبل
سجى الفريغين أنفسهم. ثم بعد ذلك، انصهرت مياه البحر إلى حدود مليلية تاركة وراءها، على
السهل، أرضاً مالحة عند سفح جبل بني شوكر. هكذا تشكلت حاري، هي بحيرة بوعرف المساء
أيضاً بحر مزوجا أو سبخة بوعسرن (بحيرة بوعسرن المالحة). ولا يمكنها أن تفرغ من مياهها
الآن، لأن أعمالها توجد تحت مستوى البحر. وفي القديم، كانت هناك مساحة أرضية شاسعة، هي
بمثابة محبر، تفصل البحيرة عن البحر. وقد استقرت فوقها عائلات بأكملها، منها، من يسكن تحت
الخيام، ومنها من يعيش داخل المنازل بقرى صغيرة، وكان الجميع يشتغل بمشآت الملح الذي
يصدر ويباع إلى القبائل الريفية الأخرى، كما كان الجميع يمارس الصيد في مياه البحيرة الملحية
بالسمك. ولم ينته أحد إلى أن البحر يفوق تدريجياً تلك الأرض المتواجدة بين البحيرة والبحر.

وفي إحدى الليالي، وكان ذلك منذ خمس أو ست سنوات، وقع أول قتلحام لمياه البحر،
تحت بروقي ورعود العاصمة. فقد اندفع البحر بأواجه القمائية صوب الأرض المحاصرة بينه
وبين البحيرة، مما أدخل الرعب في قلوب هؤلاء المساكين المشتغلين بالملح وجرأت المياه
الرجال والنساء والأطفال والمواشي، مثل فئات من الخشب وقلعت الخيام وتلاصبت بها فوق
الموج، حيث انتشرت كأحزمة من الصوف الأسود أو كجداريات قلعة فوق هذه المنصات
المتحركة. وقد غرقت من جراء ذلك ثلاثة نولوير كانت هي الأقرب إلى البحر. وظل منسوب
المياه يتصاعد مدة أربعة أيام وليالي مما أدى بالأمواج إلى قتلحام البحيرة التي سيرتفع منسوب
مياهها فجأة بعدة أمتار، مدمرة كل ما يوجد على ضفافها من مساكن ومنشآت للملح.

هكذا، استخفني الأرض التي كانت موجودة بين البحيرة والبحر وستظل تحت الماء مدة
سنتين. لكن، منذ حوالي ثلاث أو أربع سنوات، بدأت هذه الأرض تظهر من جديد، بفعل تراجع
البحر. وقد أصبح المكان صالحاً الآن للمرور وعملت قوافل كبدقة وطريقة إلى استعمال طريق
مليلية القديمة التي تجنبهم بدورة كبيرة حول السبخة. ومثل كل الأسماء العربية والأمازيغية

بالمغرب، لأن اسم هذه الأخيرة قد شوه من طرف الأوروبيين. ولهذا فتمت أعلاء، فتصمفت
ثلاث قتي اشتهرت بها البحيرة. وأشهرها هي سبعة يعرف لأن قلع يحيط بها من كل
جانب.

وقد حصلت الدرويش مظفرة صغيرة بالمعبر الضيق الذي يفصل البحر الأبيض المتوسط
عن بحيرة بوعرف، إذ كل من معها نحو سوق الأحد بمزوجة رفقة طاقب من الكلية؛ وكذا قد غادرا
فرقة معا، ويسيران بطمانينة على شاطئ البحر. وعند نقطة يلتقي فيها هذا الأخير مع البحيرة
القريبة، وجدا رجلا ممددا على بطنه. وكلفت جلابته نظيفة وحول عنقه كانت هناك مسبعة
وبحزامه حبة ملينة بالخرطوش وبالقرب منه بندقيته. وكلفت كل المظاهر تشير إلى أن الرجل
ناقم أو أنه تعرض لصربة شمس. ولأنهما كانا ككل المخربة، حزين من هذا الغريب لانهما
اختبا بحفرة موجودة على تل، وشرعا في مخاطبة الشخص من بعيد. لكنهما لم يلقيا أي جواب
ولم تصدر عن الرجل أية حركة. لذلك، سيقربان منه ويناديان بصوت عال بل ويسيران على
رعيه بالحصى، حيث أصابا الهدف مرتين أو ثلاث مرات. لكن الأمر لم يحررك سلكا. ومن
المؤكد أن الرجل كان ميتا. وهذا من حسن حظ الطاقبين. فهناك بندقية ولباس وربما ذهب
لصاحبها. وكان من اللازم الاقتراب من الرجل للتأكد من كل ذلك. ولأن الدرويش غير جريء
بطبعمه، فقد تقدم مرتعدا وهو يمشي فوق الرمال المغطاة بالدماء وشراف صديقه في تفشيش الميت
وسيم فحص كل المخبئية المعروفة لدى الربيعين، من القنوس وغطاء رأس وأذنية؛ لكنهما لم
يجدا ولو سفتوما واحدا. ولربما سبقهم آخرون وقاموا بنفس العملية قتي يقومان بها الآن. ولأن
الطاقبي لم يجد مالا فقد قرر نزع ملابس الميت. غير أن الدرويش اعترض على ذلك، مستكرا
كيف سمحت له نفسه بتجريد ميت من ملابسه. فالأمر لا يطلق! وبما كل من الجائر أخذ البندقية
والخرطوش، فإنه لا يجوز من باقي الأشياء. وعندما بلغ بحمل البندقية الجديدة من صنع
إسباني، وفي الوقت الذي كان فيه مرافقه يقلب الجثة للفك حزام الخرطوش، سمعا أصواتا آتية من
بعد، فتركا كل شيء ملتفتين صوب مصدر الصوت. وكفى هناك حوالي عشرين رجلا قدامين
من الشرق لربما من كبدانة، وكانوا يمشون بمحاذاة الشاطئ ويتحدثون بحماسة مسكين بنادقهم
بحذر. ولأن الدرويش ورفيقه المرعوبين معا، اعتقدا بأن هؤلاء الأشخاص سيتهمونهما بقتل
الرجل، فقد ظلا واقفين بدون حراك، متحدين وضعية ذليلة، في انتظار ما سحدث. واقترب
الأشخاص منهما، وبظفرة سريعة أدركوا بأن الرجلين طاقبين مسلمين. هكذا، مسلمون عليهما
وسيدار محمد والطاقبي بالإجابة بأدب على الأسئلة المطروحة، مع المباعدة في إظهار علامات
الاحترام. بيد أن الأشخاص الغرباء لم يحدوا ذلك أي اهتمام وتهجوا صوب الجثة قتي تعرفوا

عليها، صلتحين بنصب: " لقد اغتال القاصيون بين قريقتنا حذو. لكن سجدون ! لهم يريدون منعنا من الوصول إلى ملابذة. حسنا! إننا نعرف ما سقطه! " وإثر ذلك، رفعوا حذو المسكين . كاشفين عن صدره الذي اغترقه الرصاص ومزقه من كل الجهات. ورددوا بحزن: " أيها القاصير، ألم تجد بيننا ولو شخصا ولحدا يرفقك في الطريق، عندما دهمت وحده لولاء، عابرا أرض الأعداء؟ وما نص الآن عرضة لسفيرة كل لو غدا قلعة ".

وحملوا القلعة على ظهر البطة فقتل جلوبها معهم. وبعد أن ربطوها جينا بحبال الحلقة وأخذوا بتنقية الميت، خاطبوا الطاقين قائلين: " نحن من كيدقة، رافقونا لتكروا بعض الآيات القرآنية على أيديا المسكين، أثناء السير ". غير أن محمدا ومرافقه سيكتزلان، مبرزين مؤلفهما بضرورة التحليما دون تكلم، بسوق الأحد بمزوجا. وذهب الكهنيون إلى حال سيولهم، أما الصديقان فتصفا الصعداء واستمرا في السير بمحاذاة البحيرة، فرحين بأن ما أصابهما من هذه المغامرة، هو شيء من الخوف فقط.

إن بحيرة بوعرف هي عبارة عن طبقة مائية طولها 12 كيلومترا وعرضها 7 لو 8 كيلومتر. وشلطلي من حولها عار، حيث تكتشف العين شطا شامعا منحدرنا بعض الشيء، رساء ذهبية ولامعة، ذات انعكاس معدني. وقد تمكنت بعض النباتات القصيرة والأشغال الصغيرة ونبتة المستنقعات بتثبيت جذورها في هذا " القنق " الأصفر الذي تحركه أدنى هبة ربح. وتوجد به آلاف المحار والقوقع الوحيدة الصمام الملتقة بشكل حلزوني والممترجة بالزبد (Os de seiche ou sepie). وكلها شاهدة على الغزو الأخير لمياه البحر. والسبغة صيفة في الوسط وأحيانا ما تقوم العواصف برفع أمواج قصيرة ترتطم بالشاطئ. كما أن رياح الشتاء تنفع مياه المتوسط في بعض الجهات، فتصل إلى البحيرة، مانعة بذلك كل حركة على المعبر المتولد بينهما. وفي أقصى جنوب بوعرف توجد كتلة هائلة من الملح الخام في حجم جبل، تملح ثروتها لكل من يريد أن يستغلها. وقد ثارتني هذه البحيرة وما زالت تتلذذني إلى حد الآن، وسأملت بشأها كل القاصير الذين رأوها والذين كان بإمكانهم إسقاطي معلومات حولها. ولذا ما كنت لأفراستهم صحبة، فإنه لا أحد غامر سباحة أو على ظهر مركب، فوق مياه بوعرف اللامعة والتي وإن كانت غير صيفة قرب الشاطئ، إلا أنها تشكل في الوسط حوضا يصل عمقه ما بين 15 و 20 مترا.⁴⁵

⁴⁵ - إن الحديث المولم الذي رواه لي شاهد عيان قلمي هذه الأيام، هو خير برهان على حق السبغة. ففي حرب ملابذة الأخيرة وجد فارس إسباني نفسه معزولا عن كتتيته ومحصرا من طرف الأمازيغيين قبالة البحيرة. ولأنه لم يجد أي منفذ عدا السطح الهادي أبو حرق، فقه قنق بانهاجه مستكدا بأن مياهه ليست صوفة.

ويمكن اقرب البحيرة من البحر أن يجعل منها مستقبلا ميناها طبيعيا راقما لو بيزرت
أخرى، لكنها أكبر بخمسين مرة من الميناء الجزائري، حيث يمكنها أن تكون مرسى آمنة لمئات
السفن الكبيرة.

وكذا اعتبر محمد ومرافقه بأنه من الحكمة عدم الاقتراب من كهفاته، لذلك طافا حول
السبعة وقررا قضاء الليل بسوق الجمعة في أقصى الشمال الغربي من بوعرف. ويسمى هذا
السوق ثائرة سوق مزوجا وثائرة أخرى سوق الجمعة. وهو مركز عالم للمعاملات التجارية يقع
بالسهل قرب البحيرة وسط القهبة إن صح التعبير. ويوجد بسوق خارج القرية، ويمكن التعرف
عليه بفضل لغة صغيرة تصمي خوردة بتر margelle. ويأتي آلاف الزبائن إلى سوق الجمعة من
مناطق نائية أحيانا، حاملين منتوجاتهم معهم. كما تكثر البضائع الإسبانية التي تم جلبها من مليلية،
مثل السكر والقشاي والخرطوشات والبنلق والبلرود والشموع والمصابيح الفلزية (يسمى
الزبغون البترول بالغاز ويستخدمونه للإضاءة) والسكاكين والكلاوس والقفلات. أما منتوجات البلد
فهي تبرز من خلال ركلم هائل من الألبسة الجديدة أو القديمة المعروضة للبيع وجبال من
الصوف والعديد من الأغنام والأهملر والصمير والبنلق والقليل من الجيد. وبالمقابل، يحرص
الكثير من الحضر والقرين والقرية والريبي والقسطي والحبوب. كما يقدم الجزائرون بالهواء
الطلق، شرائح من لحم القتر والظم، محمولة على ثلاث عصي مشدودة من فوق بحبل ومثبتة
على الأرض. وعلى عكس ما هو مألوف في جبلت الربيف الأخرى، فإن النساء القبعيات يتجولن
بحرية في الأسواق ويتاجرن ويشترين ما يحتمن إليه ويتجولن سافرات الوجوه بمشية حازمة.
وهن يحتكرن بيع البيض والدجاج والطيست المصنوعة من الطين (الزلايف) - وهذه صناعة
محلية - وصحون الخزف المستوردة من إسبانيا والقدور والمواد الطينية المصنوعة بالقهبة.
ويضع تاجر الأتواب والأدوية معروستهم تحت خيام من الكتان أو بدائل بيوت صغيرة مبنية
بالحجر والبليس. وتحيط هذه الخيام والبيوت الصغيرة بالسوق مكونة دائرة شبه كاملة.

ويصف الزبغون مشوهين لمتبعة الملبسة التي سطح أمام أعينهم، غير مصمون على إبقاء هذا الرجل
برصاصة فرصة وهو الذي سموت بعد قليل. ولأن الإسباني اعتد بأنه تخلص من أعدائه الزبغين فإنه استمر في
دفع جوفه إلى الأمام، طما بأن الماء وصل إلى قسرج مما أدى إلى وقوع المصن. وهذا يبرز الصيوان منظر مؤثر.
أحيانا كل القارس المدجج بالسلاح يشتت بقوة بحرف المصن، تلكميا للفرق في البلوغ، كان الصيوان يغتلي داخل
الماء بليل الصل الثقيل، ومعه القارس. وكان الأمازيغيون والجرس ومططين وكثين أمام رعب المشهد، مترايين
الحل القهلي. وبعد ثولي محدودة ظهر الفريفل. ويرد القارس وهو يحيط ربة الحصل في حلق ياقس. ثم عرفت
الكتلة من جديد، تتركبة على سطح المياه بحس القموجات التي وصلت على القسطي قرب أرجل الزبغين الصمدين.
وبعد يومين، استقي فميرة بالجتين على رمل القسطي. وكان القارس ما يزال متكئا برغبة حصفة.

ويمكننا أن نكون فكرة عن قيمة كل هذه المتوجات من خلال الأمانة التالية: دجاجة: 50 سنتهما، القيس: ليرة القيصرة الواحدة، وهذا القيس باهظ إلى حد ما، نظرا لتواجد ليسان الميزن واليهود الذين يستهلكونه بكثرة. خروف جيد: 5 فرنكات؛ بقرة حلب جيدة: 50 فرنكا؛ بندقية إسبانية 50 فرنكا، قلب السكر من أربعة لترات: فرنك وخمسون سنتهما. وإجمالا فإن الأمانة تكبر أكثر ارتفاعا مما هو عليه فكل في قبائل الفريف الأخرى. ولعل السبب في هذا الغلاء هو الصلوف، يرجع إلى وجود الجمرك السلطانية قرب مليلية وإلى بيع المتوجات سوريا إلى الإسبان وتواجد المشاة الميزنيين بحماية سلوان والذين يتلون بانتظام للتبضع من سوق مزوجا. وليس هناك مكان أفضل من سوق الجمعة لملحظة معلمي الجنس من القبيلة. فالرجل يرتدي جلابة ذات خطوط بيضاء وسوداء في فصل الشتاء ويطلق رأسه عن آخره ويغلبه كثرة تقريبا بـ "شائبة" حمراء، تحيط بها من القاعدة عصاة فضية. وفي الصيف ي عوض الحائك الجلابة. في القصب يتجول طيلة اليوم، حافي القدمين، متوشحا ببندقته وقد وضع جعبة الخرطوشات حول حزامه؛ ويتجانب أطراف الحديث بكثرة مع الآخرين ويشرب الشاي ولا يشتري إلا الشيء القليل. كما أنه يستطلع الأخبار من إخوانه في القلة، القاصمين من القبائل الأخرى أو من الجزائر أو من إسبانيا.

أما المرأة، فإنها ترتدي ملابس كثيفة من الصوف وتشي عارية الرأس حيث يسمع رنين خلاخلها وأسلورها. ويبرز على صدرها عقدان أو ثلاث وقد تم تزئينهما بنقود فضية أو نحاسية. وللأسف، لا نرى سوى النساء اللواتي تقدم بهن العمر واللاتي لم يجد جملهن قنابل بشر الرهبات. أما النساء الجميلات جدا، فيمكن في المنزل حبيسات جنرقه، بنفس الصرامة التي تحبس بها المسلمات في المدن الجزائرية.

وكان موضوع الحديث الفرنسي ذلك اليوم في السوق، هو قتل الكبداني الذي وجد الدرويش بمحور بوعرف. فقد كان هذا القيس قلما من مليلية التي غادرها معه خمسة بنال محملة بالبنادق الإسبانية والخرطوشات والسكر والشاي والبتروول (الفاز). وقد اعتقد بأن أحدا لن يراه إذا ما سافر ليلا. لكنه كل متبوعا بخمسة قطاع طرق من القوية، أوقفوه بأسبق مكان بالمعبر التالي:

- ترك لنا البغال واتج بجلدك وإلا قتلك.

- وأجابه الكبداني وهو يمسك البندقية على كتفه: كلا، وسأقتلكم أو أقتل حثلي.

وشرع في إطلاق النار لكنه لم يصب أحد منهم؛ لما كان على القصوص إلا أن يصقوه على القور وأخذوا معهم القبال تاركين ضيعتهم قرب بندقيته التي لم يحملوها معهم، خشية قصاص لمرهم بسبب العلامات الخاصة التي يضعها أمازيغيو الريف على أسلحتهم.

وقد عرف الجناة تقريبا. لكن لم يفكر أحدا في إلقاء القبض عليهم، بما في ذلك القائد نفسه. أولسا في باد الخيرات الذي ينهشه القلة والقصوص والأوغاد؟ في الأسواق السبعة لقمية بصبح "براهون" على القور؛ "نلاحظ التجار الغرباء والمتعاملون معنا بالسلام والأمن" وهي المعاملة المتبعة في كل المراكز التجارية بالمغرب، وإن كان كل واحد منهم هذا الالتزام المزعوم بطريقته. من جهة أخرى، سمعن "البراح" بأن عقوبات قاسية ستطبق على الإخوة المرينيين الذين قد يفرهم بيع الحبوب وقطاعني لإسبانيي مليلية.

وبشكل عام، يتم الالتزام بهذه القوسية، لأن الحق الذين تجاه "قرومي" والخوف من التخريب الوحشي الذي تؤدي إليه خيانة من هذا النوع، يدفعون كل من يريد إعطاء الأولوية لمصلحته على حب الوطن، إلى التفكير قبل الإقدام على فعلته.

وتتوزع أسواق لقمية على الشكل التالي:

- 1 - سوق الجمعة بمزوجا؛
- 2 - سوق الأحد بمزوجا وبزغنة؛
- 3 - سوق الخميس بني بوعمر؛
- 4 - سوق الثلاثاء بني بوعمر؛
- 5 و 6 - سوق الثلاثاء وسوق الأربعاء بني شوكر وسط القبيلة؛
- 7 - سوق الإثنين بفرخانة، خير بيد عن مليلية.

وهذه هي القبيلة الوحيدة بالريف التي قبلت وجود الجود المخزنين؛ حيث يسكن فرسان الحكوم ووكلاء الجمارك السلطانية، بدار المخزن قبالة مليلية. ومهمة رئيس الفرقة المخزنية ليست إدارية، بل تتمثل في منع الأمازيغيين من مهاجمة الإسبانيين. ويحمل قياد المندوبون المعينون من طرف السلطان على اقتطاع الضرائب وخصوصا ضريبة الحرب، من القاطنين بالمساكن الذين تروى جويهم، كلما قاموا بهجوم على مليلية. ولا توجد بالقبيلة سلطة قضائية ولا إدارية؛ بل يسمح للريفيين بالاعتقال فيما بينهم وبضرب بعضهم بعضا وبالمسرفة، لذلك شأنهم، المهم ألا يهاجموا السجن القشتالي. وذلك ما يطلبه السلطان الذي كان يريد العيش بسلام مع إسبانيا.

وهناك حوالي 500 فارس نذلاني كوسي بقصبة فرخانة وألف من العشاة بقصبة بوعرو
 المسماة أيضا بقصبة سلون. وهؤلاء الجنود الحفاة بملابس مرقعة، ليس لهم أي عمل؛ فهم لا
 يقومون بمناورات أو بتدريب، بل يقضون أوقاتهم في رثق أسلحتهم ولا يتحركون إلا للذهب
 الأهلي أو لتفقد أولاد رؤسائهم وأولاد الخوادم الذين يرثونهم. وكجنود حقيقيين فإنهم
 يترهبون بالشخص العابر الذي يعتقدون بأنه يحمل الذهب. وبعد ذهابه، يقتسمون الغنيمة مع قائد
 الحملة ولرؤسائهم. وقد كرر القلميون على مسلمي في كثير من الأحيان، بأن جنود السلطان
 هم سبب البلاء الذي يحصل بقبيلتهم. فهؤلاء الجنود يعيشون بالبلد ويقطعون كل سنة، جزءا
 كبيرا من المحاصيل الزراعية ومن المواشي. ورغم جشع موظفي الضرائب والجيش، فإن الغنى
 النسبي لبعض الأسر، يسمح لها بالبقاء بالبلد وعدم الذهاب إلى هرات بحثا عن عمل. ومع ذلك،
 فإن غالبية الأسر تبحث إينا بفرد أو فردين منها للاشتغال حيث يرجع هؤلاء العمال إلى منازلهم
 وقد كسبوا قدرا هائلا من المال. يكفي للسماح لهم بالمعيشة عدة شهور دون أن يملأوا شيئا.

وإذا ما كان الإسباني معقونا، فإن السلطان ليس أحسن حالا منه، لأن أجداده متهمون ببيع
 سجون الشاطلي الريفي للتصاري. وتحكي الأسطورة أنه منذ قرون خلت، وعندما سلم
 الإمبراطور الخائن مدينة مليلية إلى الكفار، تسحب سكان القرى الخمس الواقعة في محيط
 المدينة، أسلم القوافلين الجنداء بل إن أهالي قرطين من هاته القرى سيحتلون على السلطان
 وسيهاجرون إلى سبتة حيث سيحظون بحسن الاستقبال من طرف الإسبان الذين سيعيشون معهم
 في ود وانسجام، إلى يومنا هذا. ولم يؤثر الغياب والهدم في لباسهم الأصلي. كما أن لغة
 تاملزيغت الأصلية التي يتكلمها إخوانهم في الريف، ما زالت متداولة وسط هذه العلاقات المهمة
 التي يتحضر المرادها دوما على الوطن المفقود. وبسهولة التعرف في سبتة، على قلمي الصغير الذي
 يقطونه، كما يستخدم المسجد البسيط لهذا القلمي، لتقائهم ولتعليم أبنائهم. والحقيقة، يجب أن
 نضيف بأن السلطان قدم لهؤلاء الأبطال تعويضا عن الأراضي التي سلمها للأجانب، مما سمح
 لهم بشراء ممتلكات يقطنونها حاليًا بالمدينة الإسبانية.

ويسمى الريميون مليلية : ثمريرت، أما بالعربية فتطلق كما هي: مليلية. وتعني ثمريرت
 بالأمازيغية المكان الذي يتم فيه اللقاء. وهو إسم الفعل الريفي emrir (القلي) والذي يصبح
 melil عند الزولوا، حيث تتحول اللام إلى راء في اللغة القلمية وذلك طبقا للقواعد الصوتية
 الثابتة لهذه اللغة ويحول التمسلميون اللام إلى دج : dj مثل: idjdji (الفتاة). كما يبي
 ورياغل فيحولونها إلى دال ، مثلا: idli (الفتاة). وعندما يحدد أهالي قلمية موعدا بمليلية فإنهم
 يقولون annemrir g themrirth (سنلتقي بثمريرت أي بمليلية). وأحيانا يشار إلى المدينة

بهذين اللفظين وهما: jnada (محسك) من الجذر العربي جندأ و Er-mjahden (المجاهدون) .

وتعتبر مليلية مركزا تجاريا هاما بالنسبة للريفيين . ولا يمنع دخول إليها إلا على الأهالي المسلحين . لذلك لا تفتحي بشوارعها إلا بالمسلمين الذين لا يحملون بنادق ولا خناجر وعند حلول الليل تسد المدينة أبوابها . لذلك يحلول الأمازيغيون إنهاء كل مشترياتهم خلال النهار للرجوع إلى منازلهم قبل غروب الشمس ، إذ من الخطورة يمكن ، عبور الزيف في الظلام . ويشتكي الأمازيغيون والعرب من السلوكات الجافة والقفلة لأسواق المدينة . فالإسبانيون من الطبقة الدنيا يضربون بكثرة . وعندما يبرون بالقرب من أصدقائهم المسلمين ، يصرون عن قصد ضمرطات قوية وسط الشارع . تصمم الجو وتركم الأتوف يرواها للكرية ، وهو ما يهبط لريفي الذي يمقت هذا الدوي الممزق .

ومن جهته ، فإن محمدا لم تفته زيارة مليلية . ولأنه دخل المدينة بدون نفوذ ، فإنه مفاجا عندما حان وقت الغذاء . بعدم وجود أي مسجد يستضاف فيه ويتم بداخله إسكات عساكر بطنه الجائع . لذلك اضطر أبيع مظلة صغيرة بظسين لإسباني ، وكان يستغفها للتأثير على أهالي القنابل وإدعائهم ، بحيث كانوا يصرون هذا الشخص المندوب ، مختلفا عن غيره بسبب أطواره الغربية . وقد ساعدته قطعة الخبز الأسباني المستدير والتي سبيلتهما لكاء سوره ، على التخفيف من جوعه . وكانت تلك أول مرة يشتري فيها شيئا بالمغرب .

وقد أكد لي بأنه نسي لكاء مقامه الطويل بالمساجد الشريفة ، هذه الكلمة المملة وهي : اشترى (بالعربية) وساغ (بالأمازيغية) ، غير أن مدينة أوروبية تكلفت بتذكيره بها .

وغير بعيد عن مليلية ، يبرز فوق تل ، قبر الولي الصالح لفتحية ، سيدي ورياش .⁴⁰ ويتعلق الأمر بشخصية شعبية من القرن السابع الهجري ، أسلمه من أولاد ورياش المقيمين بنواحي سبدو . وقد تميز هذا الولي الشاب منذ نعومة أظفاره ، بصلاحه وتقواه وكرمه لكل ما هو غير إسلامي . وعاش كزاهد يحرر النواوير واليوادي والقرى ، حيث كل يحظى باستقبال حماسي من طرف الأهالي المتمسكين والمحبين نوما بالأولياء ، سواء كانوا حقيقيين أم مزيفين . وما أن بلغ سن العشرين حتى اجتاز المضيق لوجد نفسه وسط المورسكيين الإسبان ، وقد نامض الانحلال الخلقي العام لهؤلاء المسلمين الذين تشبهوا بالحضارة الغربية وتمردوا على رخاء العيش . ولأن أحدا لم

⁴⁰ - ورياش هي كلمة عربية تترجم وتعني ذلك الذي يقوم بتفارت باليد والمطبخ للغداء على شخص . وهي مشتقة من الفعل العربي ريش أو رش (العربية المغربية الجزائرية) . ملحوظة المترجم : ربما قصد الكاتب لعل لشار .

بعد أي اهتمام فإليه سيعود إلى منطقة، قبل أن يلزوي وسط الريف، تلك المعسكر المحصن ضد كل الجبهات. واستقبل بالقبيل في كل مكان، غير أن أهالي القلعة كانوا أكثر اعتقاداً به، لذلك اختار هذه القبيلة وبنى لنفسه صومعة سيطر فيها عن قنوقه. وهذه الصومعة هي التي ستصبح فيما بعد. وبمستقاء الكرامات المتعددة التي تأسسها الأساطير إليه، وهي كرامات مماثلة لما نجده عند مدعي المعجزات thaumaturges في كل الأديان، فإني لم أتمكن من جمع معلومات أخرى عن هذا المتعصب الغريب الذي يصعب كتابة سيرة حياته.

ويبدو أن بعض الجنود الإسبانيين لمسوا قبره سنة 1893، وقد أكد العديد من الريفيين أن هؤلاء الجنود جازوا للبحث عن الماء بفتح سيدي وريثش. اشجراً أحدهم وتبول داخل المزمار عبر شقوق الباب.

وكان ذلك انتهاكاً صناعياً من خطورته كون الماء الذي يغرب من أراضي القلعة دون ترخيص، كان يستخدم لصنع الملاط الذي تستعمله إسبانيا لتشييد حصنها الجديد، قلعة سيدي وريثش على أرض متنازع عليها. وفي ذلك اليوم، دوت رصاصات الريفيين في أجواء المنطقة. ونحن نعرف أحداث مليلية ونعرف الصعوبة التي واجهتها الحكومة الإسبانية لنهر هذا الشعب الصليبي الذي كان يقتل من أجل دينه ودينه بدون مدافع ولا خطط حربية، حيث يصارع كل واحد على طريقة أبطال هومروس غير خاضع لأي رئيس وراعياً مهما كان الثمن في نهر الكافر أو كسب الشهادة. وتوجد في حملة مليلية بقية خيلها هامة، إلا أن التاريخ التقدها إلى الأبد. ولست متوفراً في الوضعية الحالية، على الوثائق الكافية لتوضيح أصاق هذه المأساة الريفية. وسأكتفي بذكر ملحمة بطولية لا تصدق، قام بها ثلاثة قلعين سباحة، وسط ظلام الليل.

فمنذ بضعة أيام، كانت سفينة حربية فرنسية ترسو على بعد كيلومترين من الشاطئ، وكانت تنذر حق الأهالي بإرسالها كل مساء، لأتوار كهربائية على المنطقة. وما أن يسلط الضوء على مكان تولد المجموعات حتى تنبهم فذائف المدافع. وفي البداية لم يتحرك الريفيون الذين كانوا غير واعين بالخطر، وكفوا بهزؤون وتصدر عنهم إشارات عديمة الاحترام تجاه العاكس الشمع والذي كان يسمى عندهم بالمصباح الكبير (الغزل). غير أن موت بعض إخوانهم الذين حصنتهم القذائف الرهيبة، جعلتهم مقتنعين بأنه لا مجال للسخرية من هذا الابتكار الحديث للمصباح الكهربائي. هكذا، سيقفون اجتماعاً فيما بينهم للتشاور، متسائلين عما يمكن فعله لتعطيل هذا المصباح المنطلق. وتقدم ثلاثة سباحين أثرياء، مقترحين الذهاب سباحة إلى السفينة لإتلاف المصباح. وتمت مباركة خطورة هؤلاء المجاهدين ورفقت لكف الضراعة إلى الله من أجل سلامتهم. وبالفعل، دخلوا البحر عراة، حاملين معهم بنادقهم الإسبانية وبعض الخرطوشات.

وقد ربطوها على رؤوسهم فوق ركن من الأتواب التي وضعت لتجيب الأسلحة والبارود قبل.
واستمروا في السباحة بشجاعة، دون ضجيج تحت ظلال الليل، مقررين تدرجها من فوحش الذي
تكتسب كلفته السواء على صفحة بحر هادئ تماماً. وعلى ما يبدو قبل جميع بحارة السفينة كانوا
قد خلدوا إلى النوم، باستثناء ضابطين أو ثلاثة ضباط، كانوا متواجدين قرب الماكس يرسون من
خلاله أضواء مليرة على كل الجهات. ونجح الصالحون في نسق سلاسل المرساة، انزلوا على
ظهر السفينة. وفجأة سمع دوي ثلاث طلقات في سمت الليل، كانت نهجته تحطيم الماكس
وإصابة ضابطين بجروح خطيرة. وكثر الزمبون سعدا إلى البحر، عاكفين بسرعة على النشاطين.
وكان الانفعال على أشده فوق السفينة ولم يخطر ببال أحد إزق الزوارق لمنظمة هؤلاء
الجرميين. وتم إطلاق نيران البنادق بشكل عشوائي على سطح الماء، غير أن الأمازيغيين الثلاثة،
المحميين من طرف الظلمة، سوصلون سالمين إلى البر. وأترككم تتصورون مقدار الاحترام الذي
سوحظ به هؤلاء المفلتون داخل قبيعتهم، بعد صلبتهم هناك.

وإذا ما رجعنا إلى القرويش ، فلن فرحته كانت عارمة، عندما وجد بضريح سيدي
وريش حوالي عشرين عدولها أكثر إثارة للشفقة منه. وأظن بأن هذه الطائفة غير معروفة في
الجزائر إذ يبدو أنها متواجدة في المغرب فقط واليهودي هو جوال متسول، مغبول بفعل الكيف.
ويتجول عاري الرأس حاملا في يده حربة، كما يرتدي بعض الأسماك تخفي حورته بالكاد ويضع
مسبحة بحقه ومحفظة صغيرة بجانبه، ملينة بالكيف وبدخلها طيون طيني صغير. وهو يزور
مختلف الأولياء ويقتات من الأطعمة التي يأتي بها قزوار الأوغياء، إلى قبور الصلحاء، بل يقدم
لنفسه كعكس لهذه الأضرحة، صائما أحيانا، بمصر الطوبى التي يهديها إلى الجمهور الحاضرا
وهو يظل مشدوها باستمرار، بفعل دخل الكيف. إنه باختصار كسول مغرب، يمارس أحقر المهن
وهي: طفيلي الأضرحة.

وفي قرية العصرة ببني بوبغر، سلاحظ الأهالي بأن محمدا يتهاون في أداء صلواته،
بل لا يتوضأ سواء عند إقامته في الحالات النادرة على الصلاة أو عند تلاوته للقرآن وللأحاديث
النبوية. لقد كان يعتقد سكان البلدة ولكن بما أنه كان أجنبيا، فإن هؤلاء السكان سيحتقون بأنه
يهودي، وهكذا سيتعرض للشتن وسيتلقى الاهانات ، إلا أنه سيتحملها دون شكوى.

وبعد أن أعياه التعرض لأذى هؤلاء الهداة، أعلن في أحد الأيام للفتية وللطلبة عن عزمه
على الرحيل. وظن بعض السطة بأنه يحمل معه نقودا، فتبعوه خارج القرية حاملين مسدساتهم
معهم. وفجأة اعترضوا طريقه وأبروه بظلع سلابسه. فرد عليهم محمد قائلا: " لنذهب بعيدا،
فلازلنا قريبين جدا من الدور السكنية ". وقبل هؤلاء السطة الاقتراح، وأثناء السير تمكن الرحلة،

رغم أنه المعتنق عليه، من رمي محفظته بخل صغير، وكانت تحتوي على حوائث ثلاثين فرنكا كتبها عن طريق صنع الأحذية. ولما رأى هؤلاء الأوغاد بأن المسئلة قد بدت، استمروا بضحياتهم وجردوه من كل أمتعة، بحيث لم يتركوا له سوى قميصه القطني (الكندورة). وكانوا يرغبون في نقوده بالأسلح، ولما لم يجدوها احتاجوا وطلبوا منه، تحت تهديد مسناتهم، بأن يظهر لهم أين ألقى محفظته. وأقسم الدرويش بحق سيدي وريش بأنه من أكثر الناس حوزا، وإثر ذلك أطلق سراحه.

وبقرية القموس التي لها إليها، منحه الأعالي بعض الأمتعة، وبعد أيام قليلة، تسلل بغير شهود إلى المكان الذي رمى فيه محفظته فتي سجدما هناك، ملجأ لم يمسها أحد.

إن اليهود يوجدون بكثرة بقية القسوة، وهم يسكنون بالقرى الصغيرة ويمارسون مختلف المهن. فهم صانعو أحذية وإسكافيون وصانعو ألوان وصناعة وصانعو أدوات ولا يوجد أي فلاح بينهم. وهم يكترون منازل سكانهم، لأنهم لا يستطيعون امتلاك مسكن لهم، سواء بقعة أو خارجها. ويتضمن عقد الإيجار بندا غريبا وهو أن كراء منزل ليهودي، يقوم إلى الأبد، والمالك وحده الحق في طرد المقتري الذي لا يمكنه أن يتخطى عن المنزل من تلقاء نفسه ولا أن يطلب بأي إصلاح لمسكنه. ولكل يهودي مسلمة الذي يعتبر سيدي له.

ويسافر الاسرائيليون القليون لقضاء أغراضهم، حيث يكون إلى وهران وطنجة وإشباهيا وإلى أي مكان يرغبون في الذهاب إليه؛ وهذا دليل ساطع على تمتعهم بحرية كبيرة. وهم لا يشعرون بالتماسة ما داموا يرجعون بطمأنينة إلى بيوتهم. ويحترفون بأن الأمازيغيين لا يملكونهم لهذا سوء. وقد سمح الاتصال القديم العهد، بتهنئة الأحفاد العرقية، مجبرا المسلمين على قبول هؤلاء الرحل الملمين الذين يتكلمون لغتهم ويرتدون نفس زيهم، ولا يتميزون عنهم إلا بخصلات شعرهم الطويلة التي تنموج بشكل لولبي فوق صدغهم حتى الفك الأسفل.

إن سيدي وريش هو سيد القبيلة لكن هذه الأخيرة تتوفر أيضا على أولياء آخرين مجهلين أيضا. لنذكر فقط من بين أشهرهم: سيدي بوسجر بيلي بويرفر، سيدي محمد بن عبد الله بمزرجا، سيدي الحاج سعيد بيلي شير.

ولثناء زيارة قبور هؤلاء الأولياء، يضيح الحاج والأهلام والماعز والأبقار. وهذه الأضحية ليست مقدمة كقرابين لأولياء كما نعتقد في أوروبا، إذ أن الأمر يتعلق بصداقة من أجل الفقراء، تمنح لوجه الله. ويأتي هؤلاء المساكين إلى مثل هذه "الوعيدات"، لملأ بطونهم بالكعكس واللحم والطويات ثم يعودون من حيث أتوا وهم على استعداد لمعاودة الكرة من جديد.

كلما سلحت الفرصة. ويخشى الأميون، المؤمنون بالشعوذة، هؤلاء الأولياء. لذلك تراهم يتضرعون على قولي فور تولدهم بضريحه ويهمسون بالدعوات والتوسلات.

إن الطالب الذي يحوش في الخلق بالقرب من الأضرحة، وهي بنايات مجاورة للمسجد أو للمقبرة، يتكلم مع قولي الصالح ويشرح بنوع من الحميمية تجاهه، معتبرا إياه كقريب عظيم وطيب ومتساهل. لكن يقال بأن الصلحاء ينقصون أحيانا من الإهانات التي يتعرضون لها. وتعتبر العلة التي وقعت لمحمد بن الطوب غير دليل على ذلك.

لقد كان الدرويش مقبلا بضريح سيدي بوضير منذ حوالي شهر يتلقى الدروس ويهرح ويتعارك مع رفاقه الطلبة داخل الضريح ويجري ويصرخ غير أنه بأي شيء. وبانفصاله، كان يلتمسه وأخوه ينتهك حرمة قبر سيدي بني بويغور. وفي إحدى الليالي الدافئة للخريف، خرج ليقتسم الهواء وسط شجيرات القيقب الوحشي الكثيرة والمحيطة بقبر قولي. ولجأة أصابه الرعب من جراء أمر غارق لم يكن يتوقعه. فعلى بعد عشرين خطوة وراء ظهره، برز جمل ضخم وبقيته بندقية، وانفجرت باتجاه الدرويش وهو يصرخ بصوت رهيب. ولشدة رعبه، انطلق محمد جاريا كالسهم بين مسالك الشجيرات الشوكية فلفزا فوق قبور بني بويغور الذين اختاروا مقبرتهم بالقرب من ضريح ولبيهم. وكان الجمل يطارد الجوارح ويصدر أصواتا خشنة متتالية، تشير على أن غضبه قد بلغ حده الأقصى. وأخيرا وبعد أن طاف مئات المرات حول مقامات شجيرات القيقب الوحشي، وجد محمد بن الطوب نفسه، نون أن يذري كفه، أمام مبنى الضريح الذي دخله بسرعة، مطلقا الباب وراءه. وقد كان محظوظا بفعله ذلك. فلو تأخر دقيقة واحدة، لكان الحيوان يحتاج قد مزقه إربا. وظل الحيوان يقرع الباب الخشبي ببندقيته، وهنا حدثت المعجزة، حيث صدرت عنه كلمة عربية وهي: افتح. وعند سماعه لهذه الكلمة، خر الدرويش أرضا بالقرب من رفاقه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

وقد أجاب على الأسئلة الموجهة إليه، وهو شاحب اللون، متطلع الأنفاس، مرتعد الفرائص، قائلا بأنه كان عرضة للمطاردة حتى وصل إلى باب الضريح. وأعلن الطلبة بأنهم لم يروا ولم يسمعوا أحدا، وبأن ذلك نام الدرويش وهو على تلك الحالة من الانكسار. وعند منتصف الليل رأى في المنام، سيدي بوضير نفسه الذي غلبه بالحريية الدارجة قتلا: "لو كان تعلمون تلعب كما لعبت في القبة، نرسيك إلى ثلث الخلق".

ولما بزغ نور الصباح قام محمد من النوم، وعلى غير عفته اغتسل وأدى الصلاة لمدة طويلة. وفي المساء، خرج في نفس توقفت البارحة ونذهب إلى المكان الذي ظهر فيه الحيوان الرعيب وبدأ يصرخ بأعلى صوته: "لها الجمل، أنت الذي طردتني البارحة، انظر الآن...".

ويبدو أن سيدى بوسحر كان قد جدا، لأنه لم يقرر التحول مرة ثانية لترويب القروش. ولبتداء من تلك اليوم، أصبح هذا الأخير يكن أكبر الاحترام لكل الأولياء ولأضرحتهم. إن المسلمين الأفارقة وخصوصا المتعلمين منهم، يدرون في أحلامهم أشياء غريبة. فغلبها ما يتراءى لهم أولياء وأقرباء، بل وحتى الرسول محمد (ص) الذي لا ييخذ عليهم بنصائحه أو تنبيهاته. ويساهم الإيمان العميق للمسلمين في إثارة خلائهم الدماغية ويجعلهم في حالة مستديمة من الارتجاج العصبي الذي يتجاوز حدود الإدراك. وسواء كانوا قدامين أو مستيقظين، فإن خيالهم تنتشط بحملهم إلى مجال الخوارق داخل عوالم راقية، وفي المناطق الساحرة للعالم الأخرى الذي نقى منه نحن الأوروبيون، بسبب جفاف الفكر الوضعي والعملية الحديث، هذا الفكر العملي أكثر من اللازم ربما.

وقد بنت لي مطاردة الجمل أمرا لا يصدق وأردت للتأكد عما إذا لم يكن القروش ضحية حلوسة أو حلم مزعج. وقدشن محمد كثيرا من إحلامي وعدم تصديقي متسائلا: ألا يقوم الأولياء بالمعجزات ولو بعد مماتهم؟

والخلاصة التي توصلت إليها من جراء هذه الرؤيا الغريبة ومن جراء رؤى أخرى حكيت لي من طرف أتباع الرسول محمد (ص)، هي أن المسلمين وخصوصا الورعين منهم، يمرضون لهلوسات خاصة ولاضطرابات دماغية مميزة لا علاقة لها بأي شكل من أشكال الجنون. والمثير في حالتهم، هو السير المنتظم والمستمر لهلوساتهم التي لا يحصل فيها لقطاع، بل نظل قائمة لديهم مدى الحياة. فهي قد تولدت لديهم منذ نعومة أظفارهم تحت تأثير اعتقاد قوي جدا وهو: الإيمان القيني! وهي لا تتوقف بالنسبة لغالبية المسلمين إلا بعد الموت.

وعلى مستوى آخر، يحضر شرف المرأة بقلبية، أمرا بالغ الجدية. وسيتأكد ذلك من خلال الحكاية التي سأسردها بعد قليل. وقد رواها لي شاهد عيان، وهو طالب ريفي شهم، طرده حقد زوجة أبيه من منزل هذا الأخير. وهو شريف بن شريف، وبفصل زرع كروم المصمريين المهراتيين بدل العيش دون عمل، تحت سيطرة المرأة الشريرة التي تكبر كل شيء، وحدها في البيت. وهذا الطالب الذي ألح على عدم ذكر اسمه في هذا الكتاب، علمني لغة تمازيغت، وهو معروف لدى قداميين الذين يقروونه ويحترمونه كطالب وكشريف.

وينين له أحد أصدقائي، وهو ضابط صف في البحرية، يعمل حاليا بسفينة الأميرال بودل baudin، ببقائه على قيد الحياة. وهذا البحار مهتم باللغة العربية بشكل كبير، وهو أمر نادر. وثناء زيارة الأسطول البحري الأخيرة لوهزان، سارع بالذهاب إلى حي الأهالي لتعلم الحديث باللغة العربية وكان قد تعرف على صاحبنا الريفى، الذي كان للإشارة، يتحدث العربية بصعوبة.

والقاء تجولهما بالأزقة الوسغة لدى المسلمين، حوالي الحادية عشر ليلا، حاصرهما أربعة لصوص يرتدون المملطف ويحملون الهراوات وذلك بغرض سلبهما ما معهما. وقد دفع الشريف بهمسلة عن مرافقه الذي كانت معرفته به محدودة. رغم أن إغراقه في العلة رددوا على مسلمته: " أتركنا نسلب هذا النصراني الكلب ما يملكه، وسنقتسم معك ما أخفاه"، إلا أنه رفض العرض وواجه بشجاعة ضربات عصي هؤلاء اللصوص وتمكن من تخطيص الفرنسي من بين أيديهم. وعندما سيقرا مواطني هذه المظور، وقد كان منذ عدة أيام، يتابع دروسي بانتظام، بكرسي العربية بوعزان، فإنه سيعترف بسهولة على هذا الريفي القريب الذي سلفه الكلمة الآن، ليروي لنا بلهجة تامازيغت الفالسة⁴⁷، المشهد الهمجي التالي، المؤثر بشكل كبير وعلى كل المستويات .

وهذا كل ما هناك. لكنني أعلم بأن سديقي باصي Basset مدير المدرسة العليا للأداب بالجزائر، يهيء صلا حول النحو والمصمم المقارن للهجات كلبية وبني ورياحل وبقيوة وتمسان وبني سعيد وبني زلشن، مرهوقا بالنصوص. وأخيرا هناك يظهر غلاف هذا الكتاب إعلان عن مؤلف بعنوان: " بحث حول تصاريفات والحكايات الشعبية بالريف"، وكان من الممكن صدوره لولا اشتغالاتي الحالية. من جهة أخرى، فإنني تقدمت كثيرا في إنجاز " المعجم الفرنسي - الريفي". وعندما ستعشر هذه الأعمال، فإن لهجات الريف، ستخضع لنفس مصير هذا البلد المتوحش الذي مازال مجهولا والذي أصبحت بعض ملامحه تظهر الآن بفضل تصريحات الدرويش والرحالة المسلمين الآخرين.

⁴⁷ - بل اللهجات الأمازيغية معروفة بشكل أقل أو غير معروفة تماما. والباحثون الذين تطرقوا لهذا الموضوع، لجزوا الأصل التميمية التالية:

- Hanothou, *Grammaire Kabyle, un conte en thumazir'ih de Galiya*.

- R.Basset :

+ *Manuel Kabyle*

+ *Note de lexicographie Berbère*. Le 1^{er} chapitre, de la 1^{re} série, est consacré au Galiyen, dans les séries suivantes, les dialectes du Rif sont pris comme point de comparaison.

+ *Loqman Berbère*, plusieurs fables en tamsamanien.

+ *Etudes sur les dialectes Berbères. Notes grammaticales sur différents dialectes Rifains*.

+ *Les Noms des métaux et des couleurs en Berbère*.

- Oueden Feldt, *Einheitlung und verbreitung der Berber vilkerung in Maroco*; s'est occupé aussi des dialectes du Rif

- Missions évangélique de Londres ? Les Évangiles de St Matthieu et de St Jean en galiyen.

Rih' Kakh en

Ijoum goumgaz yemrech onflm taked

Iecht en tem'art temrech

Di dehar in at- sid'ar

Di thek'bitt in k'eraiyin

Ij oemouggas, eitour'a

Ij oungouargaz ⁴⁸ yemrech R'ares

Ijjen rāyarnat; larr ed r'arer

Tharja oungouaman ⁴⁹. lehd'a

I tsessou rāyarnat enni

Thous ed

R'ares ijjen temr'art temrech

Ek'kimen aya Ked'onya. lehd'a

Itek'k'out s eddou ijjen

Ouarthou

Iezan ithen

Ij outharras; ysekhar Khaf

Sen ethr'onyyith.

Moumen d

Khaf sen loud'an at't'as.

Thamghart

فيها حكاية ⁴⁸

رجل متزوج بوخت مع

امراة متزوجة

بقرية بني سيدال

بقبيلة القلعين

في السنة الماضية كان هناك

رجل متزوج. وكان له

بستان، وضع فيه

قناة الماء. وبدأ

يسقي هذا البستان

وأنت

بالقرب منه امراة متزوجة

وجلسا معا. وشرع

في موالعتها تحت

شجرة التين

ورآها

رجل، وأثار حولهما

الصيحات (نادى على كل الناس)

ولتتبع

ضدهما الحيد من الناس، وامراة

48 - اختارت كتابة هذا النص بهذه الطريقة، حتى أصلي لمجيء الأدب الفرنسي، فكرة دقيقة حول لغة وأسلوب
الريفين.

ملحوظة المترجم: بنوري سألناظ على تركيب اللغة الأمازيغية الريفية كما وردت في النص وكما ترجمها
مولييرين إلى الفرنسية. ولن أضعها لتركيب اللغة العربية.

49 - من الحركات الأنفية voyelles nasales، توجد بلغة تمازيغية وهو ما ينطبق على oun التي يصعب النطق
بها فعلا، لكن يمكن التوصل إلى ذلك بصبر وفك.

50 - الحركة الموجودة فوق حرف التون (n) يجب أن تنطق (gn) مثل: montagne.

Tarouer. Ed'farenteth arbà en
loudan, car'lateth s thaspounia ⁵¹
R'arsen as addia s
Thashoutt ⁵²
Oujjateth d'i barra
ed'rinteth
S'ijj ouh'ach.
Arghaz enni, thauia , yarouer
R'ar ijjen taddart tekhrn
Yek'k'en khafe thasounarth
nouarn
An,
Ed' farent id' yaoud'an, ettazren
Aouarn an, echathents
Erbaroud'
Arami loud'ef thaddarth, yebd'a
Yachchathithen d. ranta,
Zeg icht tebouarjet yaar'a
D'nisen sebà.
Bed'an youd'an enni
ettaryen
Akh terak'k'a. k'eddaàn
tih'anta
Entezak'k'a, arami kaß
Snouk'k'eben. Louiyen d
tizizoun
D'i ther'aracin.

هربت وتبعها أربعة
أقرب، وقتلوا بواسطة التبنقي
وشقوا لها بطنها بالسيف
وتركوها بالخارج في العراء
وغطوها
بحافيه.
والرجل هذا، أيضا هرب
باتجاه منزل خير مسكون
وأطلق عليه الباب الخلفية،
هو
وطارده الناس وجروا
وراءه هو، وضربوه هو
بالبرود (أطلقوا عليه قنار).
وعندما نكل إلى الدار شرع
في ضربهم، هو أيضا (أطلق قنار
عليهم)
من النافذة وقتل
من بينهم سبعة
وشرع هؤلاء الناس في الصعود
على السطح، ونزحوا روفه
السطح، إلى أن ألقوا فوقه
ثقلها و حملوا القتل
في الخلايا

⁵¹ - كلمة thaspounia (بنطية) تابل كلمة espagnol، منطوقة باللغة الفرنسية. ويحول التحوون للاح الموجود
في آخر الكلمة إلى تاء أو طاء (T).

⁵² - مأخوذة من الكلمة الإسبانية espada

Farrer'en khañs thizizouna.
 Ek'k'eden
 Timessi d'i theounmadh
 oungouari
 Bed'an set't'aren khañs thimessi
 Akhkhann
 Enni lechchour s thizizouna
 d'ed Dekhan.
 Thizizouna ettemounent kh ouargaz
 Enni, zañfent d'ain.
 Jed'ouer ouar
 Itouiri ouar ad' ijjen a errih'ath
 Bed'an ylou'd'aa
 Net't'ouen d khañs zi thezek'k'a.
 Et't'fent. ek'k'aruen as lissen
 R'ar d'effar. Essoufer'ent id
 R'abarra, r'ad'erent r'ar
 themmon Arth.
 Bed'an ek'k'arer
 As ath àmmis :
 " - etta d'ergerait ennech àin
 Khat'er echchek ouar lfahmen
 Areddif ennech. Etteged
 Eràib d'i tharouna àmmich "
 Nitheni ek'k'aren
 As ammon, aitheni etk'eçcen
 Dais s ermonas
 H'add itk'eçcith
 Zi thekherkhamin en fassen

ورموا عليه النحل وأنشطوا
 القنر في حزم الحلقة.
 وبدؤوا يرمونه بالقنر
 والبيت
 هذا، امتلأ بالنحل
 وبالنمل
 والنحل هجم على هذا الرجل
 وفرسه
 وأصبح هو
 لا يرى شيئا (بسبب النحل)
 وشرع القنر
 في القفز عليه من السطح
 وأنسكوا به، وربطوا له اليدين
 من الخواصر. وأخرجوه هو
 إلى الخارج، وأنشطوه هو
 على الأرض
 وشرحوا يقولون
 له أبناء عمه (أبناء القبيلة) :
 " هذا هو جزائك أنت ، لأن
 أنت، لست ذكيا
 رأسك أنت (أنت بلود) أنت رميت
 القبيب على أبناء عمك أنت".
 وهم قالوا
 له ذلك، وهم يقطعون
 لأضامه بالمسكينين
 واحد قطع
 له المعصمين وواحد

H'add itk'ecceith zi ther' ammar
Enr'adden, h'add itk'ecceith
Zi ther'arent.

Netta iddar ad, ouar lar'ouyyou.
Ouar isionir.

Tek'eccent Taula zeg Fadden,
bed'an tek'ecceit dais
S ermonas zi àra m kour
Amehan arami ouar dais k'ah
Ek'k'imen id'ammen, K'ecceit as
Ahrouer ennes, eggin asitha
Ouk'emmonm.

Ious ed ijjen zeg ath àmmis,
Yekkez d takhed'mechth, yegg
Ast d'l thit' , ik'erna As ted
Iàouad'as itbennedhuit, ik'erna
As t ed amekchour.

Netta iddar ad' , isah'rath.
Rikhdenn rouh'en. Yioniyen
D timessi, farrer enteth khañ
Arani yaoungoua.
Rikhdenni ouryen taddarth ennes
Hed menteth, seh'ark'enteth.
Rih' ouaïj oufia d'l thaddart
N ouenni, k'ah. ouenn ioufi

بتر له من المرفقين
فتراعين، وولد بتر له
من الكتف.

وهو حي مزال، ثم يترك
ولم يلق شيئا.

وقطعوا له أيضا من الركبتيين
وشرعوا في تقطيعه من الدفئل
بواسطة السكاكين، من كل الجهات
حتى يدنخله، ثم يترك
أي دم. وقطعوا له
إبرهولة وضوءه
دفئل فيه ⁵³

وجاء ولد من بين أبناء صه
وأخرج سكينا وأدخله
في عين ونزعها منها
وقام بنفس الشيء مع الأخرى، ومنها
نزعها مثلما يخرج
حزونا من القوقعة.

وهو حي مزال، يمشي
عنقذ ذهبوا ، وجازوا
بالنار وسكبوا فوقه
إلى أن شوي.

عنقذ صعدوا إلى دره
وهموها وأحرقوها.
والأشياء التي وجنوها دفئل در
هذا الشخص كلها، فلاذی وجد

⁵³ - قُرأت هذه القطاعة مرات عديدة من طرف الرعيين، أثناء الأحداث الأخيرة بمليلية. قد شوت جثث اليهود
الإسبان القساء بهذه الطريقة المبروتة، عند سكن فرجة والسطة الأسبانيين من الإسكاهم.

Chan, h'achcheth iechsit,
 Ettour'a r'ares thratha en
 Tzarfin en imendi echria d
 Imendi enni marra, endarent
 R'a barra zeddaant. Owar th
 louyen, r'er in ous r'ar leddi
 Cha, r'er lmezrad'ith yioniyen.
 Thammouarth ennea, thezzenz
 it tak'bilt ik'eriya
 Far'k'enteth akh techouchai
 Ennen.⁵⁴

شيئا لم يمتنع عن لذه.
 وكان له ثلاثة
 مغارق من الشعر، ولغوا
 هذا الشعر كله ورموه
 بالخارج ونثروه (في كل الجهات)
 ولا أحد لذه، فقط ذلك الذي
 لا يملك شيئا، فقط الفقراء
 الذين لغنوه. وحمله هو
 باعته قبيلة القنعين
 وقسموه (أي ثمن البيع) على قرودوس
 بينهم

وبسبب هذا التعذيب الفظيع، فإن هناك قليل وقليل جدا من القريشيين الذين يستويهم
 الإخلال بالحياة الزوجية. ذلك أن القرب القريبهم سيكونون هم أول من يجرهم؛ وإذا لم يقوموا
 بذلك، فسيعرضون هم أنفسهم لأفطع الممارسات الانتقامية.
 ويعمل شبان الذين هم في عاقبتهم رعاة الماعز أو الأغنام أو الأبقار على تجاوز
 مساواة العزوبية وذلك بإشباع رغبتهم الجنسية في الحقل، عبر النهوض إلى الحيوانات التي
 يرعونها. وتتم الأمور بهذا الشكل في الجزائر والمغرب وفي كل البلدان العربية والأمازيغية.
 وهذا السلوك المقبول ومسلم به ومسموح به ومعروف لدى الجميع.
 ويتم قتلهم بشقه في المجتمعات الإسلامية الراقية، كموضوع للسطرية والضحك.
 وبقرعهم من لى الأشخاص الورعين في الإسلام يلطون هذه الأهواء الشديدة لدى
 المسلمين الشباب المازيين، إلا أنهم يجدون الأعداء لهذه الحيوانات، صلبين أمام الجميع، بأن
 المساكنة من غير زواج concubinage والزنى والبقاء، هي جرائم أفطع وانتهاك للقوانين
 الإلهية والإنسانية بشكل أكبر.

⁵⁴ - أحفظ في صلي العقول، وعولاه: " بحث في لهجة تامازيغت وحكايات القرب الشعبية "، بالملاحظات التي
 كان من الممكن أن أقوم بها هنا، حول النحر والاشفاق القوي.

ورغم الاختلاط الكبير بين أفرادها، فإن أخلاق العقائد القومية تظل سليمة. وتعتبر الأم هي سيدة الدار، وقد رأينا من قبل كيف أن زوجة الأب تنيق الأمورين لربيعها حتى ولو كان رائدا. فالأزواج الذين يسودون بالخارج يكونون وديعين داخل المنزل. والمرأة بدورها تصبح كقنا صعيقا ما أن تتجاوز أسوار مسكنها. وتقتضي العادة أن تدير وجهها إذا ما رآها هريب. وهي نادرا ما تخرج إذا كانت جميلة، وتعيش في منزلها منتظرة باستمرار اللحظة التي تزور فيها ليوبيها، وهذه الزيارة لا تتم إلا مرة أو مرتين في السنة، إذا كان المنزلان متباعدين.

وقد حاولت البعثة الرسولية mission apostolique لبريطانيا العظمى، مدفوعة بحملات ديني لا تخفى نواحيه السياسية، دعوة سكان الريف إلى المسيحية. ولأنها تفوقت من تعرض مبشرين، الذين سيعرفون على الفور بسبب لكنهم البريطانية، للذبح من طرف أهلي البلد المتوحش، فإنها حاولت تجاوز هذه المشكلة بترجمة إنجيلي القديسين مرقس ويوحنا إلى لغة تاماريخت.

وإنكم كيف استقبل الريفيون هذين المتنوعين للثقافة الإنجليزية. ففي أحد الأيام، ذهب الشريف قشاب الذي روى لنا، قصة التعذيب الرعب المتعلق بالزنى، إلى مغليمة لشراء بعض الحاميات. وهناك، التقى في زاوية أحد الأرقعة، مع رومي أشقر ضخم الجثة، تبرز ضخمته العالية صفا من الأسنان القويمة. وبشكل غريزي اتخذ الريفى وضعا دفاعيا لكن الأوروبي لم يثأر بذلك ودرس في يد الأمازيغي عشرات الكتب الصغيرة، ناعيا نداء لقراءتها وتوزيعها فيما بعد على أبناء ملته.

وعند وصوله إلى المنزل، أدخل الحمار إلى الإسطبل وبادر بفتح أحد هذه الكتيبات التي لم يفهم منها شيئا، كما سيحترف لي بذلك. وفي الليل رجع أبوه، وهو فقيه، إلى المنزل. وقد تم إخباره بما وقع، فانتظر الانتهاء من تناول العشاء ليرى ما تتضمنه هذه الكتيبات الغريبة. ولأنه أدرك من الأسطر الأولى بأن الأمر يتعلق بديانة غير دينه، فقد أصابه نوبة هياج وصاح بالعربية: "لمن دين والديهم الكافرين".

وعلى الفور، وضع كومة من الحطب بفناء المنزل وأشعل نارا عظيمة. وعندما صعد القهب عليها وأضاء المحيطان الأربعة للدار، مثل ضوء النهار، مخترقا كثافة ظلمة الليل، لقي لفتة بهديا الإنجليز، في تلك النار الحامية، وهو يرفقها بأفطاح اللعنات. وبينما كانت عملية إحراق كتب القديسين تتم بتلك الطريقة المأذجة، كان إخوة وأخوات الطلاب الثمانية، يرقسون حول حطب المحرقة وهم يرددون قول الأب. "لمن دين والديهم الكافرين".

وهذا هو المصير المحتوم لكل المحاولات الهادفة إلى تحويل المسلمين عن دينهم. فمن الجدل دعوتهم للتخلي عن إيمان آبائهم، هذا الإيمان الراسخ الذي لا تنقسم عراه. فكيف وصل بنا الجهل بمعتقداتهم إلى هذه الدرجة من القوم؟ ألا ترون على قممهم، بأنه كلما تقنى أو تكلم الإسلام مع المسيحية، كلما كان هو الرابح؟ ويمكننا في هذا الإطار أن نتذكر حشدا من المرتكبين المسيحيين الذين أصبحوا مسلمين، لكنني لا أعرف مسلما ولما تخلى عن دينه لينقلب إلى صف عبدة المسيح.

إن شبه جزيرة قلعة تشبه مغروطا نقصاء، تعلوه ثلاثة نقوءات متباينة الأشكال، اثنين منها يمثلان عند الأطراف رأس العجوز بالغرب ورأس الشوكات الثلاث بالشرق. وبشكل هذان الطرفان، القنطريون الشماليين الأبعد في الريف.

وهناك خيبران يسوقان شبه الجزيرة هلقه وهما: واد الكرت الذي ينبع من رلوية سيدي محمد بن قنور وواد بني شيكر الذي يوجد كلية داخل القسم الذي يحمل نفس الاسم.

القرى الرئيسية بقلعة

قسم بني شيكر

- إهزقن، (الأعزاء، المكرمون)، (القسمية عربية أمازيغية)، ما بين رأس العجوز ورأس الشوكات الثلاث، على شاطئ البحر. يوجد بها حوالي 50 منزلا ويمارس سكان الصيد والفلاحة، وخصوصا الصيد.
- أيت سلفال، (أبناء المروج المصطنعة)، (القسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل، قرب واد بني شيكر. وبالجانب يوجد سوق الثلاثاء.
- ثاقوليت، (القمة الصغيرة)، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- أيت فكتال، 100 منزل.
- سيدي الحاج سعيد، 100 منزل.
- إعدونن، (عبدة الله)، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- الأريعاء، 500 منزل، يوجد بها سوق الأربعاء الكبير.

قسم فرخقة

- أيت موسى، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- جنافة، (المسكر)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل قرب وادي بني شيكر الذي يأخذ انطلاقا من هذا الموقع. اسم واد فرخانة.
- فرخانة، (التبان الصغار)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهو خليج صغير يسمى بنوع من المبالغة مرسى فرخانة، ويوجد بالشمال قرب مليلية.
- الفلقة، 100 منزل، جنوب مليلية.
- القنطور، (الراصد)، (التسمية عربية)، وهو ميناء يقع على البحر، 100 منزل.

قسم بني بولقار

- تيزي، (عمر جبلي)، (التسمية أمازيغية)، وهي قرية كبيرة وسط قتال، قرب شبه جزيرة كلبية، 300 منزل. وتتضمن مجموعة من القرى الصغيرة.
- عزيزقان، (الأجزاء)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، عبارة عن قرى صغيرة مجتمعة.
- زرورة، (الشقنة)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي مجموعة من القرى الصغيرة المبنية فوق أراضي متوجة وصخرية.
- حيلتان، (المطولون)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وتشمل خمس أو ست قرى متقاربة فيما بينها.
- بلجوق، (سمك القد)، (التسمية عربية أمازيغية)، 30 منزلا.
- تيمزغرينت، (شرفة المسطح)، (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا، قرب البحر.
- لولاء الحصن، 20 منزلا، على واد بولقار وبحلولب هذه القرية الصغيرة يوجد سوق الثلاثاء.
- توفاصوخ، (القربوس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلا، قرب البحر.
- بوحمرزة، 100 منزل، على واد بولقار، وقد اعتقل الدرويش بعد الأضحية سنة 1889، بهذه القرية.
- مرسى بولقار، خليج صغير.
- بني بوشقاري، (أبناء لب التصوحية أو الذي يمتلك بناتق تطوانية)، (التسمية عربية أمازيغية)، وهي قرية صغيرة على شاطئ البحر.
- لاسطر، (المكان المشمس)، (التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي قرية مهمة.

- شمالة، (المربعة في السابق)، (أو هبلد الذي ينتج أحسن أصناف شجر الزيتون، المسمى أشمال)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.⁵⁵
- تلافية، (الرعي)، (التسمية عربية أمازيغية)، مشتقة من الكلمة العربية غزالة، 50 منزلا.
- مهيقتن، (المهن من فصيلة addar nasomaculatus وتجمع أيضا مهيات)، 100 منزل.
- لواند صبر، 10 منزل؛
- بوهوي، (العاجز)، (التسمية عربية)⁵⁶، 100 منزل، غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواند الكرت الذي يسمى انطلاقا من هذا الموقع واد بولفار.
- إغيل ومضفر، (القلة الملتوية)، (التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل؛
- ليت علي، 100 منزل؛
- إجوانون، (الرواوا)، (التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

قسم بني سيدال

- ليت سيدار، (بني سيدال بالعربية)، في هذه القرية وقعت المأساة التي رويناها أعلاه، 200 منزل.
- يمن أوليسين⁵⁷، 300 منزل، أهم مركز ببني سيدال ويوجد به مسجد وزاوية ومجموعة من الطلبة .
- إجوانون، (الزواوا)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل.

⁵⁵ - انظر كتابي: " لسطير وحكايات رائعة من القبايل الكبرى"، الفكرى ثالث المكية 23، وهذا البيت :
thalak'k amth ouchemlal ، والملاحظة المتعلقة بهذه الكلمة الأخيرة

⁵⁶ - يمكن أن تعني أبا حواء أو المكان الذي وجدت فيه حواء. وتبرز أسطورة القصة هذا المعنى لكتابي، إذ يحكي في الزيف، أن لم البشرية استرعت فترة بهو حوى أثناء مرورها بقلعة. ومن هنا جاءت تسمية القرية.

⁵⁷ - تقرا يلسين. وهو عنوان السورة 36 من القرآن وتعبأ كما يلي: " يمن والقرآن الحكيم". وقد حاول شارح هذا الكتاب الرباعي شرح معنى هذين العرفين لكن بدون جدوى.

قسم بني بويافرور (بني بويافر)

- سيدي بوسيرا ، وهذا نعت مبالغ فيه إذا ما تذكرنا غضبه الشديد على محمد بن الطيب .
- وهو سيد بني بويافرور ويحظى قبره بزيارات مكثفة ، 100 منزل ،
- زغنغن ، قرية هامة من 500 منزل ، على الضفة اليمنى لواد الكرت ،
- القزوية ، 100 منزل ، على واد الكرت ،
- القصارة ، (الصعوبة) ، (التسمية عربية) ، 100 منزل ،
- سوق الخميس ، 300 منزل ، وهو سوق هام ،
- ثلاثة ، وهو سوق الثلاثاء الكبير ، 500 منزل .

قسم مزوجا

- سيدي موسى ، في الطرف الشمالي لبحيرة بوعرف ، 100 منزل ،
- مرسى بوعرف ، وهو شرم صغير يفصله عن القرية السابقة ، ممر رملي ضيق يقع بين السهبة والبحر .
- ثاقوبين ، (المنابع) ، (التسمية أمازيغية) ، غير بعيدة عن بوعرق ، 100 منزل .
- الجمعة ، 100 منزل ،
- بزاغنا ، 300 منزل ، جنوب سوق الأحد .
- قصبة سلون ، يفر فيها واد بوعرف الصغير ، الماء الضروري للحامية المغربية .

قسم بني بوخمرون

- بوخمرون ، 50 منزلا ، غير بعيدة عن منابع نهر صغير ، وهو واد سيدي موسى الذي يصب بالناضور . وقد أُلغِي أقاليم هذا القسم بوجود أطلال هامة أشرت إليها بالخريطة ، ويسمونها ikhraben iroumien (أطلال النصارى) . ولربما كانت تشكل آثار مدينة قديمة ، نسي اسمها في البلد .
- ويوجد عدد كبير من القرى الصغيرة التي تتكون من ثلاثة أو أربعة منازل فقط وخصوصا بقسم بني شوكر الكبير .
- القرى العسكرية : 22 ألفا من المشاة ، عدد السكان المحتمل 110 ألف نسمة ، لتعليم القراني منتشر بشكل كبير .

وتعتبر ملوية بمثابة المستودع الكبير الذي لا يتوضع منه القطيعون وحدهم، بل كل أهلي
الريف الشرقي والدمرة حتى فجيج، وكل الجزء الشرقي من جباله. ولا يمكن مناقشة هذه
المنطقة الخطيرة إلا بخلق أسواق حرة على طول حدودنا مع المغرب. ونأمل أن تقوم الحكومة
عاجلاً بضرورة خلق مثل هذه الأسواق.

قبيلة كبدانة

(أصحاب الأقفدة) ، (التسمية عربية أمازيغية) .

توجد كبدانة داخل صحراء القارث (القاريت)، وهي قبيلة زناتية تتحدث لهجة أمازيغية
تسمى الزناتية . ولا يتوقف القارث عن الاستدراج رغم وجود مجرى مائي من أكثر المجاري أهمية
على الشاطئ الإفريقي للمتوسط بعد النيل، وهو نهر ملوية⁵⁸ الذي يجتازه دون أن يحصره،
متوقفاً فقط أمام شساعة البحر، بأسطى بكبرياء وأمام الصلغة الزرقاء ، مصبه الذي يمتد على
خمسين كيلومتراً، وهو مصب سترامي الأطراف، يمتد من بحيرة بوعرف إلى الحدود التونسية.
وقبل مغادرة القبة للتوجه إلى قبيلة كبدانة، لرأى محمد بله من الأفضل أن يتحدث مع
التجار الكبدانيين الذين التقى بهم بسوق الجمعة لمزوجا، حيث أتوا لبيع الشعير والماز والظلم.
وقد تعرف عليهم بسهولة من خلال جلابتهم الرمادية ولغتهم الزناتية المختلفة كثيراً عن تماريفت.
وجلس يجيبهم فوق تليس " مقلوب مليء بالشعير، ليبدأ الحديث معهم.

وبعد أن تكلموا عن أشياء مختلفة، أعلن القبول عن رغبته قائلاً: " أنا طلق، أريد أن
أرتفعكم، كي أدرس القرآن على يد فقهاءكم الذين يقال عنهم كل خير". وأجابه هؤلاء الناس
الطيبون: " مرحباً بك، في موطن الإسلام"⁵⁹. وبما أن الوقت كان ظهراً، وكانت هناك مسافة
طويلة تنتظر الكبدانيين ليصلوا إلى ديارهم، فقد جمعوا أمتعتهم وأركبوا الدرويش على ظهر بغل
وانطلقوا سافرين على جنبات البحيرة في البداية، ثم على شاطئ البحر فيما بعد. وأسرعَت القافلة
الصغيرة المكونة من البغال مثباً دون أن تتوقف ولو مرة، إلى أن غربت الشمس، هكذا، اجتازت

⁵⁸ - ملوية (الملقية) (التسمية عربية). ويدعوها الأورويون Molouya لكن يجب أن تنطق Moulouin .

⁵⁹ - ملامت كل قبيلة تدعي بأن إسلامها أفضل من إسلام الآخرين، فمن أن تنسحب من وجود لوطن للإسلام في
هذه الزاوية الإسلامية الشاسعة المغرب.

منطقة منبسطة وقاحلة، متحدة الصدا عن الأماكن المأهولة بالسكان، كي لا تنفك مجموعات من القبيلة لم ياد سنوات قتي كانت كهدافة في حالة حرب صدها.

وعند حلول المساء، وبعد هذه المسيرة الطويلة والمتعبة قتي نال فيها القنص كلا من الراكبين وبغالهم، وصل الجميع إلى قتال الأولى لجهل كهدافة. وهناك تنهد الخوف، فاصوص قفوت بهويون السهل ويسلمون أمتعة المسافرين الذين يعترضون سيولهم. لكنهم يحتفلون من مضامرة وسط الجبال المنيمة قتي تشكل فيها كل قرية، قلعة صغيرة.

ونزل محمد بأول قرية نوقل فيها أحد رفاقه الطريق، بعد هذا السفر المضني على ظهر حيوان يتعب رانكه، مما وأد له الأما بالظهور. وكان اسم القرية الصغيرة قتي تتضمن عشرين منزلا هو: الزاوية. واستضاف الكبداني الرجل الغريب في منزله، حيث أحطه بيتا لا أثاث فيه، وجلب له حصيرة من الخلفة، تمدد عليها محمد على الفور. وبعد ساعة، جاء المضيف ببعض من الخشب يرتكز على قاعدة طويلة ويسمى "المثرد" عند الحرب، وكان من اللازم ليقاط الدرويش الذي شعر بالسرور عند رؤية الكسكي وقطعة اللحم الكبيرة الموضوعة فوق حبات السميد الصفراء. وأتى الرجلان اللذان لم ينوفا الطعام منذ الصباح، على الطعام كاملا، تاركان في عار الحصن عظما فط، سجنه محمد للطفل الذي كان يسقي فرجلين. وبعد ارتشاف لخمائين أو ثلاثة فنانين من الشاي، خلد الجميع إلى النوم.

وعند الصباح، استعمل الجوار الرحيل عندما علم بأن الطلبة يحتفلون بتكريم خاص بقرية بوغظود. وبالفعل، فإن هذه القرية الكبيرة المكونة من 300 منزل، تكرم ضيافة الطلبة الذين يتون لتعلم القرآن بمساجدها. وبها كان محمد يتناول وجباته، بعد جولاته الطويلة داخل القبيلة.

وتعد كهدافة شمالا بالبحر البيض المتوسط وغربا بقلعية وبني بويحيى وجنوبا بلولاد سنوات وبني يزناين وشرقا بطريفة. وتتوفر على قسمين وهما بوغظود (التسمية عربية) وإزخاين (التسمية أمازيغية)، ويعد كل قسم 2500 من المشاة، أي ما مجموعه 5 آلاف مقاتل بالنسبة لكل القبيلة. وهم في غالبيتهم مسلحون ببنادق إسبانية.

ويستجبل كهدافة، وهو عبارة عن تلال صغيرة متتكمة، مكسوة بشجيرات القسقي (القندرو)، إلى داخل قسم إزخاين. وحوله ولبانه يوجد القلوت، السهل الصغيري الحار، الذي يتوفر مع ذلك على بعض الشجيرات قرب الساحل.

ولهذا، فإن كل الأهالي استقروا بالكل الجبلية بالجنوب، حيث الأرض غير مثقلة بالرمل والحصى، وأصلح للزراعة من أرض الصحراء القاحلة وعلى قسم، تتولد قري الصغيرة بكثافة وقد جتمت على رؤوس جبلية pions بإمكان صعبة العبور، محاطة بشجيرات التين

الوحشي. وعلى طول الأودية حتى السهل، تقوى حقول الشعير على مدى البحر. لكن يوجد بها قليل من القمح، أما الحنظل فلا أثر له. وتكثر الأرتاب البرية والحمول وبذلت ألوى برمال القارات، ونادراً ما تتعرض للمطاردة.

إن كبدانة تشكل جزءاً من اتحاد اتحاد. وفي الفترة التي رلها الدرويش كلى يحكمها قائد اسمه بوصفية. وهو رجل ديناميكي، ذو نفوذ وخبرة في السلطة، وهذا أمر نادر في الزيف. ومرد ذلك في الحقيقة إلى كون الأهالي حكامين في تصرفاتهم ومجدين في عملهم وغير سائين. وهم يهتمون بتربية الظنم والماعز والأبقار والحمير والبدن. كما لهم ورعون ويقتسون كل ما يرتبط من قريب أو بعيد بالدين، ويقتسمون ذبائح كثيرة لجلب الفقهاء المشهورين إلى القرية. ويلقى كل طلبة الحفاوة في مساجدهم الحديثة. ولأن الطلبة المرحين يدركون المعزة التي يحظون بها، فإنهم يتهافتون على هذه القبيلة التي يسمونها "جول الدقيق". وهي التسمية التي أعطيت أيضاً لجبل بني زلادن وبني سنوس (بدائرة تلمسان). لأنهم يتقنون الكثير من الدقيق الذي يصنعون منه خبزهم بأنفسهم ويبيعون الباقي الذي لا يمكن استهلاكه. ورغم بياض الدقيق، فإن الخبز يكون دائماً مائلاً إلى الأخضرار.

هل يرجع ذلك إلى غياب الغميرة؟ حسب المستندات الشاسعة، فإن هذا اللون المثير الذي لا يفتح الشهية، راجع إلى دعوة أحد الأولياء الكبار المتكلمين بالبلد، وهو سيدي إبراهيم الذي اقتنع بأنه من المستحيل جعل البشر سعداء بالكامل، طلب من الله أن يلبي كل رغبات أهالي كبدانة، وأن يسبب لهم بالمقابل متاعب مخيفة مع الخبز الأخضر. ووضع هذا الطلب سجماً وهو كما يلي:

بالحقيقة نيتكم ما تغيب ﴿﴾ وخبزكم ما يطيب

وعلى ساحل البحر، قبالة الجزر الجعفرية المحتلة من طرف الإسبان، أقام الأهالي مركزاً يتواجد به حوالي مائة رجل لمنع أعدائهم من النزول إلى البر. وكل رجل قادر، مطالب بالقيام بالحراسة. وبدخل الأراضي، جنوب المركز الأسباني، تتوزع منازل قرية البرج فوق الرمال التي تكسو السهل. وقد كانت الجزر الجعفرية التي يدعوها الفرنسيون حجرة كبدانة غير محتلة إلى حدود سنة 1849. ولرأت فرنسا السيطرة على هذه الجزر الجرداء لتشكل موقعا استراتيجيا أساسيا بمصب ملوية، على بعد كيلومترات قليلة من الحدود المغربية. لكن السفينة التي أرسلتها لهذا الغرض، وجئت نفسها مسبوقة بهضعات

قطر من طرف بارجة كثنائية، ستثمر مواطنينا المحبطين بأمر السلبية قد تمت باسم الحكومة الاسبانية.. وكان من اللازم الخضوع للأمر الواقع. فقد انتظرنا تسعة عشر سنة قبل أن نقرر وضع العلم الفرنسي فوق هذه الصخور القاطعة التي لم يكن أحد يدعي امتلاكها، وعندما عزمنا على إيجاز هذا العمل البسيط، وجدنا المكان محتلا، إنها القصة الحديثة للمكتشفين. ونتمنى من الله ألا ينتقل منا المغرب، كهجرة طيب صغيرة، مثل تلك الهجرات الجعفرية التي كانت قريبة جدا من الساحل الجزائري.

ومثل كل قبائل الموجودة بالقارات، فإن كبدنة تكون حارة صيفا بفعل الشمس الحارقة. وتهب فيها رياح الشرقي بنفس قوة وعنف رياح السوم simouns الصحراوية. ولا يؤثر ذلك كثيرا على السكان الفولانيين الذين يعيشون في هذه المناطق الوعرة. وكهنا كان الحال، فإن مناخ البلد سمحي. فصل الشتاء الممطر والمعتدل جدا، يمنح القوة للأعالي كي يواجهوا حرارة الصيف الحارقة.

إن الكبدانيين يلتون إلى أسواق الحدودية لبيع مواشيهم ومولاهم. لكن منذ استقر الأسبان بالجزر الجعفرية، لم يعودوا يشترون منا أي شيء، ففضلوا التنازل ما يلزمهم بالقرب منهم وبشئ بضع. ويجمع عليهم بيع أي متزوج إلى جيرانهم بالجزر، من النصارى الذين يقتلونهم بشكل لا يمكن وصفه. وكرحل حقيقين، فهم لا يحبون ركوب السفن ويكرهون السفر الذي لا يصفطونه أبدا ولن تجد عندهم ولو قاربا واحدا. بالمقابل، فإنهم يهتمون على الأسفار البرية الطويلة، حاملين على بغالهم وحمارهم لشعور الذي يبيعونه لأوروبيين منبثقي ثيهم ومطيلة. وهم يفضلون المدينة القكية على الأولى، لأن كل ما يعرض فيها لفسن ولفسن ثمنا. ويشتررون بطليبة ما هو ضروري لهم. من سكر وصابون وشاي وألوان قطنية وبترول وسكاكين وبنادق وخرطوشات الخ..

والموردان الأساسيان للكبدانيين هما: ثروتهم الرعوية والحقبة التي يصنعون منها الفحل ومسلح الأقدام والخرابيل لصنع الكسكس والخيل والمصائر المسطحة، وهي متوجلات شباخ لغرب الجنوب. وهناك نهريان بالقبيلة، الأول هو واد سيدي إبراهيم، وهو جاف باستمرار، والثاني هو نهر ملوية الذي يكون ممتلئا على الدوام. ويضم واد سيدي إبراهيم القبايع من جبل كبدنة، القبيلة إلى قسمين ويتجه نحو الشمال الشرقي حيث يأخذ في أسفل القرية التي يحمل اسمها، تسمية لغري وهي واد البرج. وتستحق قرية سيدي إبراهيم وقعة خاصة.

فالقبلي القورقي الذي يعتبره العرب جدا لهم، يتوفر على ضريح في هذه المنطقة القائية من شمال إفريقيا. وهو مبنى عظيم، لكن لا علاقة له بضخامة ضريح أرتميز Artemise .

وتحيط به المنزل لتزويد من ضللتته، مشكلة حزاما خربيا من البنايات العالية والموجدة
 biscomues التي تنفتح على لوزة منحدره مطينة بالحجار البناء وبالحصى. وتوسط قرية سيدي
 إبراهيم منزلا مطاة على قاع قنول ذاقه. وعند رؤية المنيح الجمول الذي ينبثق وسط القرية،
 نفهم لماذا اضطر الأهالي إلى الانزواء بذلك المكان، إذ لا يوجد في أي موضع داخل القبيلة، منبع
 يضاهيه عذوبة ووفرة ماء بل على العكس، ففي كل مكان، لا تشرب سوى مياه الخزانات.

من جهة أخرى، فإن نهر ملوية يخترق قبيلة كدالة بعمق شبي. ويترجم أولاد الحاج
 المتولين بالصفاة اليمنى بأنه يشكل حدود قسمهم من جهة الغرب؛ وهذا نزاع قديم سبب في
 العديد من الماسي وفي إراقة الدماء. وهذا النهر الهادي يجري هو أيضا منذ عدة قرون داخل
 رمال السهل وسط ضفاف غير مرتفعة، حاملا مياهه الحمراء الطينية العسقة. وفي فصل الشتاء
 يفيض عن حده ويغطي سهل القنات القاعل، الذي يصبح غصبا بشكل مؤلم بفضل الطمي
 الكثيف الذي يستغله الأهالي ويحولونه إلى بساتين الخضراوات، ما لن تتراجع مياه النهر. ولا
 يوجد أي مسكن على ضفتي هذا الأخير، فكل ما هناك شجيرات الحومر (المسماة عند العرب
 شجيرات الطرفة)، وهو النبات الوحيد الذي ينمو هذه المنطقة البهيسة. وعند حلول الظلام وحتى
 الفجر، تأتي الوحوش المريبة التي تسكن هذه الأماكن الموحشة، لتروي عطشها في المياه ذات
 اللون القلبي. فالنهر بالنسبة لها هو مرشد أمين، تسير على جنباته حتى البحر وتتصد مجراه بعد
 ذلك، بعيدا نحو الجنوب، لتتصطاد الطرائد التي يرغبها العطش على السجى إلى النهر.

ويؤكد المسافرون المسلمون بأن منبع ملوية يوجد بقبيلة القناسة، ما بين القنات
 وغورلوا، أي بمئات الكيلومترات عن مصبه. ويرسم النهر منحنى كبيرا حتى تبدو، متلقيا من
 كل جانب مياه القوافد التي تملأ جنباته وتجلط منه ذلك النهر الراتج الذي يمكن رؤية مصبه
 لربما من البحر الجفيرة. ووسط الرمال المغطى للقنات وبعد أن يكون قد فقد نصف مياهه
 بسبب مجراه الطويل، يحتفظ النهر مع ذلك، وفي شهر يوليو، بمائة متر عرضا ومترين عمقا.
 وفي الصحراء، يكون مستواه في الغالب هو نفس مستوى السهل، ونراه وهو يجري دون ضفاف
 متميذا فقط عن التراب الأصفر للقنات بالشريط القلبي والشاسع لمياهه. ويمكن عبوره في الصيف
 القاطط، عند بعض الأماكن المعروفة لدى سكان البلاد. ويمكن أنه بعد هزيمة يسلي، لم يرد
 الأهالي تعيين معابر النهر للأمير عبد القادر، وقد غرق العديد من رجال هذا القائد العربي،
 عندما حاولوا عبور النهر بجيادهم.⁶⁰

⁶⁰ - وقد حدثت هذه القلعة بالضبط، ليلة 21 ديسمبر سنة 1846، أي بعد أكثر من سنتين على وقوع معركة
 يسلي.

والشراء المثير هو أن أملي كهداة وطريقة لا يبقون بل ويحفظون السمك ولا يصطادونه أبداً ولو ألبسهم إلى الأملي المتقنين بعيداً عن النهر. لذلك تعتبر ملوية من الأثمار الأكثر توفراً على السمك في المنحدر المتوسطي للمغرب.

القرى الرئيسية بكهداة

- الهرج، 300 منزل؛
 - سيدي إبراهيم، 100 منزل؛
 - بوعنفود، 300 منزل. ويوجد سوق الثلاثاء بالجانب الشرقي لهذه القرية.
 - إبركان، (السود)، (التسمية أمازيغية)، 50 منزلاً؛
 - بركقا، (المكان الذي يوجد به السود)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب غابة صغيرة من شجيرات القستق.
 - سوق الأحد، وهو سوق هام؛
 - الزاوية، 20 منزلاً.
- القرى العسكرية: 5 آلاف من المشاة المسلحين جميعهم تقريباً ببنادق إسبانية. عدد السكان المحتمل: 25 ألف نسمة. السهل قائم في كل مكان.
- البلد قاحل وجاف. التعليم القرأني منتشر بكثرة.

قبيلة تريفنة

(التي تحيا في الترف)، (التسمية عربية) *

غادر محمد عبد الفهر، قرية سيدي إبراهيم وسط كهداة ووصل إلى ضفاف ملوية مع طول المساء. ولأنه لا يعرف السباحة، فقد اضطر إلى قطع النهر على ظهر حصان وضع رهن إشارته من طرف مراقبيه من أولاد الحاج الذين رجعوا من حوث أتوا. وقبل أن يغرقوا الدرويش دعوه إلى أخذ الحيلة والحذر من هولة الذين يهويون المنطقة والذين أعلنوا الحرب على جيرانهم بالمغرب، وأجابهم الجوال، وهو يشير إلى أسمائه قللاً: " الحريان في القفلة، عليه أمل

* - ملحوظة المترجم: يمكن أن تنطق أيضاً طريفة من الطريقة.

له". بعد ذلك، توغل داخل السهل دون وجل، وحيدا وبهدوء، وهو على علم مسبق بأن أي أحد لن يمس رجلا مسكينا مثله. وبعد نصف ساعة من المشي، سقط في كمين نصبه له أفراد من هولة. وصاح فيه بعض فرسانهم: "أنت لهما كلب، من أي بلد أنت؟". وتوقف الدرويش عن المشي منتظرا مصيره، وأجاب بالقتضاب: "أنا مغربي". فتوجه فرسان هولة نحوه وجعلوه وسط جهدهم، عاملين على ترعيده، عبر تهديد جهدهم الرقعة التي تقف على حوافها الخلفية وتحرك الأمامية في الهواء، مباشرة فوق رأس محمد. وسأله مرة أخرى: "طبيب، قل لنا كم عدد الرجال الذين يتوفر عليهم المغاربة⁶¹ لمواجهتنا وستسلم عن الموت". وأجابهم الدرويش ببساطة: "إني معلم برابرة سودي رمسان"⁶². وكان يعرف الكثير السحري الذي تمارسه هذه الكلمات البسيطة على العرب. وعلى الفور، تراجع الفرسان، موسعين الدائرة حول الرجل الذي أصبح قويا في ضلعه؛ بل إن أفرادا منهم ترجلوا وتقدموا باحترام نحوه وقبلوا رأسه قائلين: "اسمح لنا لهما الفقه⁶³ لقد كنا نعتقد بأنك من الغرب. وبما أنك تنتمي إلى الزنوية، فعليك أن تتركب الحصان وترافقنا إلى ديارنا".

وللاحقاء بالغرب المبجل، وضع رهن إشارة حصان جموح، يصلح ويكف على حوافره الخلفية باستمرار. ولم يستطع الدرويش الذي شعر بالرضى، أن يطلب منهم مطية أقل جموحا، لذلك ركب الحصان الهائج الذي كان فردا من هولة يعملان على تهدئته. وما أن امتلئ الحيوان حتى أحس بلصه مثل ريشة تتلاعب بها الرياح، بلعل الوثبات غير المنتظمة للحصان الذي يريد طي المسافات. ومباشرة بعد أن أصدر رئيس المجموعة صوتا مميزا تحرك الفرسان سريعا، راجعين إلى الدوار.

وعند وصولهم أوقدت النار قهوي الشاي، وبعد ذلك قدم الطعام، وهو عبارة عن خروف مشوي تخرقه عصا طويلة لتسهيل شيه على النار؛ ولأن الفرسان وضيفهم كانوا جاعين، لقد أكلوا على الخروف بأكمله.

وعند الصباح توجه الدرويش إلى فصة شراعية ومن الأمور التي كانت شائعة لدى سكان المنطقة، أن "مولى الساعة"، وهو بمثابة مهدي منظر منذ قرون، ستكون انطلاقته من شراعية. وإن يستقر الجوال سوى يوما ولحدا بهذه القرية، ليهتوجه إثر ذلك إلى القعة، وهي قرية واقعة

⁶¹ - يقصدون بذلك، أولاد الساج، جورايم بالغرب.

⁶² - وتوجد بقسم بني مشوش، قبيلة بني زلفان.

⁶³ - وهذه التسمية هي بمثابة لقب متكذب، يوزع بدون تمييز، على كل من يحرف القرامة والكتابة.

قرب سوق المعادي الحدود الفرنسية، بجانب واد كيس . ويوجد على هذه صدقة لافسي قرية.
قدحر سدي عبد الرحمن الذي أسس ضيقه.

إن مساحة هذه القبيلة البحرية الموجودة بالقيس شرق الريف، لا تتعدى عشرين
كيلومترا، طولاً وعرضا. وهي تحد شمالاً بالبحر الأبيض المتوسط، وغرباً بكندقة، وجنوباً بني
زنانين وشرقاً بالبحر وهران. وتتضمن خمسة قبائل وهي: أولاد الحاج، حوزة (القمديون)،
أولاد الصغير، أولاد منصور، بني مخلوش. وتجدد الأقسام الأربعة الأولى 1500 فارس في حين
لا يجدد القسم الأخير سوى 50 مقاتلاً.

وتوجد قرية كنية داخل سهل بنج الشحر والقصح بوفرة، مما يسمح بطلب قطعان المعازل
والأبقار والأغنام والحيات والجمال. وتظل هذه مساحات شاسعة غير مزروعة، تغطيها شجيرات
الزغروف *jujubières* . وبالإضافة إلى واد كيس، يوجد نهر صغير يحمل معه القليل من الماء
إلى هذه المنطقة الجافة وهو واد شراة الذي ينبع داخل قبيلة بني زنانين، حيث يأخذ اسم واد
بني وكنان.

والقرعانون هم عرب رحل يعيشون تحت النجوم، لكنهم لا يتجاوزون حدود قبائلهم. ويبدو
أن هذه الأخيرة قد انقسمت إلى قسمين داخل رسم الحدود الفرنسية. وأسس القنصلية حدهم هم
الكسكس والجزر الصغير، كما هو الحال في كندقة. ويستهلك الشاي المطبوخ بكثرة. أما الأرض
فتمتد بكثرة بواسطة الجبال، بعد سقوط الأسطر الأولى للريف.

إن قرية تشكل جزءاً من اتحاد الجبال، وتعرض أحيانا لقرعان بني زنانين ولصيلة في
مناطقها الجنوبية، أما نصفها الشمالي فيخضع لسلطة قائد سمدة *Sarda* ، وقصبة سمدة ، كما
يشير إليه إسمها، هي عبارة عن حصن صغير يقع على شاطئ البحر بمصب النهر الذي يشكل
رسماً للحدود مع المستعمرة الفرنسية. ولقاء حور محمد بن الطيب للمنطقة، كان هذا الحصن
الصغير يلوي العديد من جنود المشاة والفرسان النطاسيين. وقد عين القائد القورغاري المعجوز
هنا، منذ أكثر من عشرين سنة، وهو يعيش الحياة القروية القهشا المعزول داخل قصره
الرفيع *manoir* ، حيث لا يوجد ما يشغل، سوى منظر الأراضي المنبسطة والسطح العالي
بالشمس.

ويوجد سوقان بالقبيلة وهما: سوق الخميس وسوق الأحد. ويقام الأول قرب قرية شراة
مرفين في الأسرج، يومى الخميس والاكين. أما الثاني، وكما يشير إليه اسمه، فهو يقام يوم الأحد
، ويؤلفه عدد طرف قرية القصة بشرطه واد كيس إلى شطرين، حيث يوجد نصف السوق
بالأرض المغربية والنصف الثاني بالأرض (الفرنسية). والمثير في الأمر أن تجد الأماني

مسلمين بينهم في الجزء الغربي ومنزوعي السلاح في الجزء الشرقي. فمن جهة هناك الحرية
للأحدودة والغباب قاتم للحكومة وسيادة قانون أقوى والقوضى العارسة التي نعم ملايين
الأشخاص الذين لا يسمعون سوى شيء واحد، هو الإيمان بالإسلام.

ومن جهة أخرى، هناك الحضارة الأوروبية التي تشكها سلطة عظيمة وقوية، لا تفرق
بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير، وتتبع قانون بين أرباب ملوكون من الأشخاص
الخاصين لإكارتها والذين تختلف معتقداتهم، لأنها كبرت ليمانا جديدا وهو: الإيمان بالوطن
الفرنسي.

إن تربية الواقعة بأقصى شرق القارت، هي منطقة فقيرة وجافة. ومع ذلك، فهي تتوفر
خلال فصلي الشتاء والربيع، على مراعي جميلة ترتادها قطعان القبائل المجاورة. وهذه الأخيرة
التي تتوفر على قوة أكبر، تسيطر على المنطقة الصغيرة بالسلاح وتزبل كل القبائل الموجودة
بهذه المروج الجميلة التي سخرت في كل الأحوال، مع القديلات الأولى للقبيل حيث تستبدل
الأرض الخضراء بلرؤى جرداء مصدوعة لن يثبت فيها شيء على مدى ثمانية أشهر. فمن
أبريل إلى نوفمبر، سوظل القارت عبارة عن جحيم تسطح فوقه شمس حارقة.

ويقال بأن أهالي تربية ليسوا كرماء ولا يحبون استضافة الغرباء. ونسألهم أحيات ومن
يخرجون بحلولهم، أما سلوكياتهم فطوبيا بعض المؤامرات، ويركبي رجال اليرنوس شتاما والملوك
صيفا، وينتقلون " القيلة " التي تجلب من القمان. وفي الأسواق، ترى المقاتلين المسلحين والنساء
السافرات ينضحون ويتكلمون عاليا ويتشاجرون ويسلحون في ألمان الحوكلات والصوف
والمواد المصنعة. ونظرا لقرب هذه الأسواق من قتراب الفرنسي، فإن عملتنا الذهبية والفضية
تحتل بالأولوية مقارنة بالمصطنات الإسبانية والمغربية الشريفة.

وقد ساهمت مجاورة القبيلة لنا، في رفع ألمان منتوجاتها المصدرة إينا، كالماشية بكل
أنواعها والصوف والزبدة والبيض.

ويطلق القريبيون إسم مرسى ملوبة على الخليج لقائم بمصب النهر الكبير، بواسطة
الطرازين الموجودين برأس الماء Cap de l'agoues ويطرأس الموجود غرب قصبة سعيدة.
ويمكن لمصب ملوبة الخليج أن يكون في المستقبل، عبارة عن ميناء حربي وتجاري رائع.

القرى الرئيسية بتريفه

- قصبة شراحة وتوجد على واد يحمل نفس الاسم. وهي قرية صغيرة، وبها الحديد من الزوار الذين يأتون إليها للتبركة بولين صالحين معروفين وهما: سيدي مهمون وسيدي منظور.
- وقد بنيت المنازل فيها بالطين المزوج بالطين، وهي حلقية وغير متينة.
- قصبة هورة (المهدمون) : وتأتي هذه القصبة بمضى الجلود المخاربة لمختلين يوما وراء أسوارها. وهي تكدو مهجورة في السنين الأخيرة.
- الزراب، وتحتوي على حوالي خمسين منزلا.
- القلعة، وتوجد على الحدود مع فرنسا (الجزائر).
- القوى العسكرية: 6 آلاف فارس، عدد السكان المحتمل، 30 ألف نسمة. المنطقة سهلة وتوجد بها دولير متقطعة في كل مكان . أما الأمية فهي عامة تقريبا.

قبيلة أولاد ستوت

(أبناء المرأة الشرسمة أو الغولة)، (التسمية عربية)

نجد أولاد ستوت بالجانب الغربي لتريفه. وهي قبيلة من العرب الرحل الذين يسكنون الغمام. وتتلف من حوالي خمسين من الدواوير الشاسعة التي يحش سكلها في القبلي المنبسطة للقرات المسيطر على المنطقة، حيث يخطوها برذقه الأصفر الرمل. ونجد بالغرب بني بويحيى وبالجانب بني وكيل (الدهرة) وبالشرق بني زناسن وبالشمال كهدافة.

ويجري نهر ملوية بمنعرج صخري ، جنوب القبيلة. أما واد قارت فيخرج من الشمال إلى الجنوب حاملا مياهه ذاته المذاق المالح (شلوق) ولتقل الحموضة، إلى أن يلتقي مع ملوية عند شمال بني محبو. ويمنح هذا النهر الحياة لكل تلك المنطقة القاحلة. فبدونه لن يتمكن الرحل من الابتعاد عن ضفاف ملوية وإن تكون قطمان المائتية يمثل ذلك الجمال. والماء ذو المذاق المالح ليس هو ما قد يعتقد سكان المناطق الباردة. فهو مسكن العطش بشكل جيد ويجعل من يتناوله بدينا ، وأهم ما يميزه بالنسبة للسكان الرعاة، هو مساعدته في تصمين الحيوانات التي تشربه.

وهذا على الأكل هو رأي الرحل.

والأقسام الثلاثة لأولاد ستوت هي: أولاد زهير بالشرق، القاروت (قبائل) بالوسط
 ولبخامة (المنكرون) بالغرب. وعلى طول امتداد القبيلة (20 كيلومترا طولا وعرضا) لا نجد
 قرية ولا منزلا، مع استثناء واحد بالشمال على حدود كبدانة، حيث تبرز قلعة صغيرة بلوي إليها،
 في زمن السلم، القرويان المخزانيون الذين أرسلهم سيدهم لمعارسة السلب أينما حلوا دون أن
 يستقوا لحد. إنها قصبة سلوان، أي قلعا ولسلوان بالنسبة لأولئك المحكومين المقيمين بها.
 وفي فصلي الشتاء والربيع، تقيم أكثر من 500 خيمة أجنبية بأراضي أولاد ستوت،
 وتشمل القملات ومواشيها. وتستغني الخضرة سريعا تحت أسنان الحيوانات المجترة التي ترضع
 بكل حرية في المروج الشاسع جدا. ويتعافى أولاد ستوت، باعتبارهم رحلا، مع هؤلاء الجدد
 ويرفقونهم شمالا وجنوبا، عندما ينفذ الكلاً بأراضيهم. وتتحرك الحشود العظيمة باستمرار،
 متوجهة دائما إلى الأمام، حيث تأتي على كل ما هو أخضر وتحتجز صفوفها بالأهالي الذين نفذ
 الكلاً بمراعهم أيضا.

وعبر أهالي القاروت وصحاري أنجاد، تتعارف قبائل الرحل فيما بينها وتحالف وتعاقد.
 فالعرب يجتمعون فيما بينهم وكذلك الأمازيغيون. ولدينا ثلثي الحشود من العراقيين، عندئذ تنشب
 المعارك بسبب مجرى مالي أو من أجل امتلاك مرعى متنازع عليه منذ القدم.
 واليوم، وبعد لزوم من الصراعات القموية أصبحت أراضي القصور محددة، بحيث تمكن
 كل عرق وكل قبيلة من تجديد مجالها الخاص إلى جانب المتنافسين الآخرين، الأنوية والاضطاء.
 ويتم احترام هذه الحواجز المصطنعة التي تظل قائمة بفضل الخبرة المأخوذة من المعارك القديمة
 واحترام التقاليد المتفق عليها.

في أولاد ستوت لا يخضعون لأي أحد، فهم أناس خطيرون، نصوص ولطاح طرق،
 لنكياه بشكل كبير وحائقون. فحسره رؤية زوج من الفم الجديده أو غتم يلمع أو ثوب نظيف
 إلى حماء يلهب طمعهم وينفعهم إلى ارتكاب الجرائم. ويصل بهم الأمر إلى حد سلب بعضهم
 بعضا، لأنهم مستعدون للذهب على الدول ويتحولون الفرصة للتفضاض على أريستهم.

وهم يشتركون البنائى الإيجابية والبضائع من مولية. ويسمح لهم قطعون المتصلحون
 معهم، باحتياز أراضيهم مع أخذ الاحتياط مذهبهم والمستوى عري اللغة والملبس. وهو يتكلم لغة
 عربية خالصة، بل ويشتمل عبارات منتقاة. وهناك في قلب الصحراء، وفي ليالي السمر تحت
 سماء صافية، يحدث نقاش خاص بالفلسفة وحذاري من أي خطأ نحوي Solécisme .
 فالمسكين الذي يرتكبه، يتحمل وزره مدى الحياة، إذ سيشار إليه دوما أثناء الحديث، بالكلمة التي
 شوهها. وقد رويت لي حالة شخص معروف تحت لقب قلاعي. فهذا الشخص السمين المحظ أخطأ

في لطق كلمة كزوع (اشرعة السفن). وقد حاول تكفرك خطئته وتبرئة نفسه، لكن بعد فوات الأول، بحيث كان محط سفيرة الدوار كله وبقي القلب مكتونا به.

وكما كان الشلل في عهد الرسول (ص) وفي المرحلة الزاوية لما قبل الإسلام، فإن البدو كانوا هم سادة اللغة وكانوا خطيبين راقعين. لذلك، كان من اللازم الإلمام بينهم لدراسة أغنى اللهجات العربية وأكثرها جانبية وصعوبة. والمستوني الوحيد الذي تمكنت من استشارته حول منطقته وحول المغرب، كان يتكلم عربية فصحة. وقبل أن يودعني أشد الآيات فتلية، بخصوص هذا العمل الجبار الذي أقوم به؛ آيات يمكن لراعي متوتري من عشر سنوات أن يلهمها لأول وهلة، وهو ما لا يمكن المستعرب الأوروبي أن يتوصل إليه ما لم يقض سنوات عديدة في دراسة العربية وسط البدو. وتقول الآيات:

تتظفر الأقبس بالثقة وتترديد	⊕	وسط قيم الفارق ملهون سفونك
ما قصد مرسى تلجأ رواج المبد	⊕	ومياه التلجج غيظ فيها سيرك
تحيا كل نهار على إقبوم جديد	⊕	مقحم ذا المشقة فلاح سفونك

إن المتوتري المنطق والمحتال لا يكتفي بكونه لصا وشاهد زور، بل هو أيضا ناعم ومفتري ولج. فهو لم بعد يتنكر العبارة العميقة للرسول محمد (ص)، البلاء موكل بالمنطق (بالعربية في النص الأصلي).

ويتكلم أثناء حديثه، على الجميع وخصوصا على الأمزيغيين الذين يدرك صوبهم بدقة. وهو لم يسبق له أن رأى نصرانيا أو يهوديا، ومع ذلك فإنه ينسب إليهم كل رذائل الدنيا، فكلمة رومي هي شتيمة خطيرة؛ أما لفظة اليهودي فهي حقيرة وبمتهمة (هالة قتل)، لا توجه إلا للحيوانات القذرة، ولا يمكن أن توجه أبدا إلى حيوانات محترمة كالحصان أو السلوقي مثلا. وهؤلاء الفرل الذين يعيشون تحت القيلم ليست لديهم مساجد ولا مدارس. وتكون العائلات المسورة على مربين، تقتصر معرفتهم على القرآن الذي يتم تحفظه للأطفال دون تفسير.

والرسان القناد مقبولون بالقبيلة. وقد اقتضت العدة أن يستقبل القارس الذي أرسله سيده إلى الدوار من أجل مهمة؛ استقبالا لائقا. ذلك أن كل عائلة تقدم له يوميا وبقتلوب، دجاجة ورطالين من الفلق ونصف رطل من الزبدة ويضع غرنايات من الشاي ووجبة من الفشعر

لحصانه. ويمنح له تعويض يومي من خمسة فرنكات، على حساب ذلك أو لو انك لنين كلوا سببا في مجيئه إلى القيلة. وتتم الأمور بنفس الشكل تقريبا في كل دوائر وحدة.

في تونس القديمة المتوجهة إلى مليحة لشراء البنلق والبرود والخرطوشات والسكر والشاي والملابس القطنية، تمر عبر الحدود الشرقية لأولاد ستوت وتصل إلى تريفه، ثم تتوجه بعد ذلك إلى القلعة القشتالية مروا بأراضي كيدانة والسية. ويمكننا أن نتصور أهمية المعاملات التجارية من خلال العدد التقريبي للتوالت الذي يصل إلى مائة مليون على الأقل، في حين يتراوح عدد المواشي ما بين 100 إلى 500 بالنسبة لكل قلعة. ألا تعتقدون بأن العديد من الأسواق الحرة الموزعة على حدودنا، قد توقف بعض التوالت أثناء مرورها؟ هل ستردد الأهالي في التصاد مئات الكيلومترات لو وجدوا عندنا نفس الأثمان البهسة ونفس البضائع الموجودة عند الإسبان؟ إن طرح السؤال هو الطريق إلى حله، إذ يجب علينا أن نبدأ بمواجهة المعقل القشتالي (مليحة) تجاريا، وأن نشجع جيراننا المغاربة على اتباع طريق الشرق، ونبرهن لهم بأن الصناعة الفرنسية أفضل من صناعة العديد من البلدان الأوروبية الأخرى.

ويتكون الطعام الأساسي لأولاد ستوت من كسكس الشعير، كما يشكل الطازون المطبوخ والكليلة (جبن مصنوع من اللبن المملح) طعاما إضافيا مرغوبا فيه. ويراب الحليب عبر خطه بالشوك الداخلي للخرشف (الحكة).

قد احتفظ محمد بن الطيب بذكرات سيرة عن أولاد ستوت. وتؤكد الرواية القليلة على أنه كان صالبا في حقه عليهم. ففي أحد الأيام، انفس وسط مجموعة من الحصادين والميادين الريبيين، الراجين إلى ديارهم بالقبائل الموجودة بالريف. وكان ضمن هذه المجموعة رجل يدعى السباعي، أصله من أولاد السبع بلقبهم مراكش. وهو متزوج من امرأة شابة من أولاد زابر (قبيلة أولاد ستوت). وكان هذا الرجل راجما إلى دياره الواقع قرب سوق الأحد، حيث كان صهره وزوجته بانتظاره. وقد سبق لابن الطيب أن اشترى من سوق الجمعة الذي غادره، نطين جديدين من النوع اللسي. وكان هذا الاقتناء سببا في إغراغ جيبه، إذ أدى ثمن النطين فرنكين وخمسين سنتيما، وهذا كل ما كان كسبه من جراء بيعه حجابا لهدوي عنيد، مدعيا بأنه بقي من أمراض العيون. ولأنه كان مطمئنا بتولجده وسط الحصادين، فإنه لم يخف نطيه داخل قلنسوته، بل لبسها وتابع السير مع رفقه الذين كانت أرجلهم العارية والوسفة تتقاذف بشكل مثير مع الجلد الأسمر الجميل للنطين. ولم يكن السباعي هو الوحيد الذي لاحظ ألفة الدرويش غير المعهودة، إذ لم رجلا يلبس مثل هذين النطين لا بد وأن يحمل معه نقودا. والمهم هو سلبه متاعه دون إثارة انتباه أي أحد، لذلك وجب استكراهه إلى ديار الزوجة والصهر؛ وسيكون هذا الأخير مسرورا

بالمصروف على بعض القنود القضية ككفالة له على توليته. وعندما اقترب الجميع من سوق الأحد، أظهر السباعي فجأة لطفه، وتوسل إلى الرحلة بأن يقل المصبي، عنده الاستراحة داخل خيمته الصوفية. وقبل محمد الدعوة، متريفا حيلة مضيقه. لكنه لم يكن لديه مال وكانت ملابسه في حالة رثة، فما الذي يمكن أن يفعله هذا الرجل؟ هل سيقوم بقتله؟ إن هذا غير ممكن، إذ لا يقتل الإنسان بدون سبب، حتى ولو كان في المغرب.

وعليه، خاطب الدرويش السباعي قائلا: "سألتك إلى حيث تسكن". ولم يخطر بباله ما قد يحدث لنتيجه. إثر ذلك ودع مجموعة الحاصلين الذين تابعوا سيرهم ورافق مصيفه، معتكدا بأنه سيظهر بطعام جيد وسيضعك على المغربى الطماخ.

ومن جهة، فإن السباعي كان يتصور بدور شك، أن المقتنر أو الثلاث مائة فرنك التي بدوزة الدرويش ستطبخ من العصاد الشاق لمدة سنتين أو ثلاث سنوات. وعدد وصولهما إلى الدوار، تبادل السباعي وسهره نظرات ذات معنى، بخصوص التعامل مع هذا الغريب. لكن لسوء حظهما، فقد كان يتواجد بالخيمة خمسة رجال من أصدقاء المائلة، وصلوا في الليلة السابقة وكافوا يتأهبون للذهاب إلى سوق الأحد بعد تناول الغداء. وأعلن الدرويش على الفور: "هذا أمر جيد، سأذهب لذا أيضا إلى السوق وسأخذ الطريق معا". وكان ينظر إلى مضيقه بتهمك؛ غير أن هذا الأخير لم يظهر القمالة وغير خطته، حيث أصبح الرحلة بمرافقة الرجال الخمسة الذين سيذهبهم صهره. وبعد تناول الطعام الذي كان مكونا من خبز تشعير والزبدة والعسل، أخذ الجميع قشاي. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر استعد المسافرون للرحيل بعد أن خفت حرارة الشمس. وودع الرحلة مضيقه السباعي بتكرار مصطنع قائلا بسخرية: "يا عريزي، كلاك الله وملا منزلك بالأطفال.. وأغلك.. ومنحك السمادة..". وتظاهر السباعي بالتفكر بفعل هذه الدعوات المتناقضة، وأعلن بأنه غير رايه ولم يتمكن من مرافقة الجماعة. وإثر ذلك، أمسك بيد الدرويش، وهي علامة على رويط الصداقة لدى المغاربة.

ولما ابتعدوا عن الدوار بحوالي كيلومترين أو ثلاثة، تظاهر السباعي بالعرج وطلب من صهره بأن يتابع السير مع الرجال الخمسة، ثم شرع يشتكي قائلا: "للمنة على هذه الأحجار، لقد ألفت رجلي. ولت يا عزيزي محمد إبق معي وسألتك بـرشاشك، أما الآن فسألتك عليك من جانب وعلى عصاي من جانب آخر". ولم يكن بإمكان محمد الابتعاد عن الرجل الذي كان يمسك به بيد حديدية. أضاف إلى ذلك، أنه لم يكن يملك قلما ولحدا، بحيث سيكون الآخر هو من سيقع في الفخ. وتابعا السير فترة من الزمن صامتين، ولم يعد يظهر لأيهما أحد. عتذرت توقف السباعي فجأة وأبان عن وجهه الحقيقي، صارخا في الدرويش:

- هل هناك نفود؟

- لا

- سألته

- هل ما تريد.

ولما فتنه السباعي بدقة دون أن يجد ولو مستقيما ولحدا، لفعل وصرخ في وجهه قائلا: "لها المغاربة الكلاب، تغفرون بلكم لممارسة شطارتكم في جهة أخرى. ها اطلع لطيفك". ولم يكن محمد يتوقع هذا الأمر، فعاول المجادلة وإقناع اللص بأن رجله أكبر من النملين؛ لكنه سينتخلي سريعا عن محاولته أمام العصا المرفوعة فوق رأسه. هكذا، وصع السباعي المسروقات بقلنسوته وقلل راجعا إلى الدوار. وبعد أن سار عشرين خطوة، خاطب الدرويش قائلا: "آه، لقد نسيت، ها هي طريقك قتي ستوصلك إلى وجهتك". وكانت يده تشير إلى الوجهة غير الصحيحة، التي لن يتمكنها محمد طيما. وفترق الرجلان، وأخذ كل واحد اتجاههما محاكسا للآخر. وبعد ساعات من المشي المتعب فوق أرض حارقة، وصل محمد إلى دوار كبير. وتحت الخيمة قتي لقي بها قترحاب، فرح بلقاء أناس سبق له التعرف عليهم بمروجا (كلمة)؛ وهم أقرباء للقائد الحاج حو، وقد اضطروا للمغادرة قبلتهم بعد نفي الجماعة لرئيسهم. وكان القائد يحش معهم، على أمل أن يرجعه تمرد ما بقبيلة إلى منطقته.

وبعد أيام، قتي الدرويش وأصدقائه في سوق الأحد، بالسباعي القوي وهو يتجول بالنملين المسروقين. واقترب منه القاصيون بفرض استردادهما إلا أن المجرم أكد بلغة لصيقة، بأنه هو مالك النملين وأن الرحلة كذاب وهذا خير تبرير للمثل العربي المتعلق بقبيلته والذي يقول:

لؤلؤ ستوت مولاة بهوت ﴿﴾ الله لا يرحمها يوم تموت

وحسب أسطورة عربية قديمة، لها علاقة دون شك بتفاني هؤلاء القرحل وبشمسية قبلتهم لؤلؤ ستوت قتي تعني لبناء المرأة الشريرة أو الخولة، ففيه في الزمن السحيق الذي لم تكن فيه هذه المنطقة القريية مأهولة بالسكان بعد، فإن أهالي المناطق المجاورة لاحظوا يوما تواجد عولة يتبعها اثنين أو ثلاثة من لبناتها. وكانت تجوب المنطقة التي منحتها اسمها وتنتهم الناس الذين تصادفهم في طريقها، كما تطعم لبناءها لهم الأسميين.. ولم يعرف أي أحد من أين أتت، كما لم يظهر برقيتها أي ذكر، سواء كان عولا أو إسياء، وهو ما دفع إلى القول فيما بعد، بأن لؤلؤ

موت لا لب لهم. وبعد أن نشرت الخراب حولها عدة سنوات، انفتحت فجأة فهي أين ذهبت؟ لا أحد يعلم، لأنه لم يرها أحد بعد ذلك. لكن أبنائها ظلوا بصحراء القلوت، ومنهم فحدر أولاد ستوت الحافين، الذين يعتبرون غير خلف لغير خلف.

معلومات عامة حول أولاد ستوت

باستثناء الصبة سلون، ليست هناك منزل سبلة فوق كل تراب هذه القبيلة من الرجل. وتحذر الأسكن التي ينام فيها سوى الأحد وسوق الجمعة بشمال القبيلة، عارية ومنبسطة مثل راحة اليد، إذ لا وجود فيها لمسكن ولو من الطين والفتن.

القوى العسكرية: 4 آلاف فارس، مسلحين ببنادق إسبالية. عدد السكان المحتملين 20 ألف نسمة. المنطقة منخفضة ورملية، لكن توجد بها مع تلك، بعض حقول الشعير. التعليم شبه منعدم. الاستقلالية مطلقة.

قبيلتنا بني زناسن وبني مهيو

(تحويل لكلمة مهيو أو ماضي)

بعد أن غادر منطقة أولاد ستوت البنيوية، توجه محمد إلى قبيلة بني زناسن. وهناك طلب الأكل والملابس والغطاء من زلوية سيدي رمضاني ببني منقوش. وكان بالزاوية حوالي عشرين طابعا مجدين ومنهمكين في حفظ سيدي خليل، ذلك الفقيه العربي المعروف بالفتناب وشموس أسفوية. وعلى مدى شهر، سيجعل الفرويش من هذه القرية مركز " عمليته ". بعدها سيقتضي شهرا عند بني عتيق وشهرا آخر عند بني ورعش وشهرين عند بني خالد، متقللا عبر الجبال والويزان. وهذه العبارة مستعملة في سطلها، لأن القبيلة توجد كلها تقريبا وسط كتلة جبالية، تضامها في جمالها وخضرتها أجمل المناطق الزبغية التي سبق أن زلناها. وتحد شرقا وفي الشمال الشرقي بالقيوم وهران وشمالا بتريفة وفي الشمال الغربي بكبدلة وغربا بأولاد ستوت وبني مهيو وجنوبا ببائل الدمرة. وهي تمتد على مساحة أربعين كيلومترا من كل الجهات. وتتفرع على أربعة أقسام وهي: بني خالد، بني منقوش، بني عتيق، بني ورعش (أولاد المجموعة)، (التسمية عربية أمازيغية). وكان من العتيق أن تندمج قبيلة بني مهيو الصغيرة جدا، داخل جارتها الشرقية الكبيرة، حيث تخضع لها بشكل مطلق منذ قرون.

وقبيلة بني زنان منسقة تقريبا، رغم المجهودات المتتالية للسلطان الذي يقوم بكل ما في وسعه لإظهار منها بما يشبه الولاء، لذلك فإن قبلاها هم أول من يثير الاضطرابات، حيث يتسببون في الحروب بهدف تضخيم ثروتهم.

ولكي لا تظل معزولة بجانب السكان العرب والأمازيغ المتحدين، فإنها كانت ملازمة، رغم المصون الطبيعية التي تشكلها جبالها، بالانضمام إلى قبائل الجبال التي تشمل بني زنان، بني محيو، تريف، كبدانة، لولاد ستوت، بني بويحيى، المنجة، بني بوزيكو، لمهابة، بني يحيى، بني وكيل، الزكارة. وهناك مجموعات متمركزة تفصلان هذا الكتل الجبال، فمن جهة يوجد العرب ومن جهة أخرى يوجد أمازيغيون زناتة أو الزناتيون.

ويمثل العرب كل من تريف، الجبال، المنجة، بني وكيل، لولاد ستوت وكلهم رحل يمشون بالسهل وبالصحراء.

وبالنسبة لزناتة نجد بني زنان، بني محيو، كبدانة، بني بويحيى، بني بوزيكو، الزكارة. وتقوم روابط تصاعدية متينة بين قبائل كل مجموعة، وغالبا ما يتنازع العرب والأمازيغ فيما بينهم. حينها تحدث مجازر رهيبة وغزوات شرسة، يظل الفريق المهزوم على إثرها، مهزوم لقوى مدة طويلة.

وتتملك قبيلة بني زنان أراضي شاسعة وجميلة ترويتها المياه بكثرة وتنمو فيها الأشجار بوفرة وتحيط بها الجبال العالية الأكمة بالسكان. وتظهر كتلة قتل التي بدت من قبل وكأنها غارقة في رمال القاروت، وقد اكتست قممها بالثلوج في فصل الشتاء. وتشغل هذه الجبال مساحة شاسعة محاطة بالسهول من كل جانب، فهي تشمل توجد الأراضي المنخفضة لتريف وكبدانة، وبالعرب هناك الأفق الشاسع للقاروت القاطل وبالجانب توجد صحراء الجبال وبالشرق هناك الأراضي المنحوجة إلى حد ما، على الحدود الفرنسية (الجزائرية). وهي تشبه كتلة جبل الوسط الفرنسية وإن كانت أعلى منها، وذلك من خلال التراكيب المتشعب للسلاسل الجبلية التي تمتد إلى السهول المحيطة بها. وتمتد للسلسلة الرئيسية، المسماة من طرف الأهالي بجبل بني زنان، من الشرق إلى الغرب، تاركة وراءها بالجانب والشمال، تلالا منخفضة مليئة بالقرى. وعادة ما تأخذ هذه الجبال ألقابا أسماء الأقسام التي تتواجد بها؛ ومن أشهرها جبل تفرغالت (جبل الغيلان أو لفواكه غير الطازجة) (التسمية عربية أمازيغية) بالشمال الغربي من بني عتيق.

وعلى القمة، نرى أشجار البلوط والقصق والسندباد والذئب والجوز؛ وفي الوادي وعلى جانب السمدرات، توجد الحديد من أشجار الفواكه مثل شجر التين والبرتقال والخروب والوزر والجوز والزعزوف والرملي والتي تحيط بها الكروم المتسلقة. وفي أسفل التلال والسهول، توجد

الحلقة وشجيرات التين الوحشي بكثرة. وتروى هذه المنطقة الجسيلة بمئات المنابع وبالعديد من الأنهار. ومن بين هذه المنابع نذكر :

- عين صفرو ذات المياه الوفيرة والمعبدة والصلقية مثل الهلار.

- عين الصفا وتوجد أسفل العين الأولى.

- عين بني عتيق .

- عين بني موسى.

أما الأنهار الرئيسية فهي:

- واد بني وريش المعروف باسم واد ناكما (الوادي)، (القسمية عربية لمزيخية)

ويجري من الجنوب نحو الشمال، عبرا وديانا خصبة، وهو رافد من روافد نهر ملوية الكبير.

- واد زكزل (الأراسي الفرائية)، (القسمية عربية لمزيخية)، وهو يحمل مياهه

الصلقية وسط مروج رائعة.

- واد بني وكلاز (واد أبناء العبيد)، (القسمية عربية لمزيخية)، ويشكل عبر انتقاله بواد

زكزل، نهرا عاما، يعتبر أكبر رافد لملوية في الغرب.

- واد صفرو، يجري من الشمال نحو الجنوب ويخترق الدهرة جنوب مولاي إدريس.

- واد بني خالد، وهو غير معروف تحت هذا الاسم، ويشتهر باسم واد عجرود (السهل

غير الناضجة)، (القسمية عربية) وواد كيم^{٤٤}.

- إن أصل القبيلة كبيرة وأطلة بالسكان وتتضمن عرقا قويا وشجاعا يصمد في وجه القبائل

العربية القنابية، ويستثنى هنا بني محيو، وهم رجل يحشون تحت الغمام، لأن موقع قبيلتهم يوجد

بالسهل، على عكس باقي الأمازيغيين الذين تحصن قراهم بالجبال. ويوجد بني وريش للنفاح عنهم

ألف رجل، نصفهم فارس والنصف الآخر مشاة. أما بني محيو، جيرانهم الرحل الذين يعتمدون

على الفرس كلية، فهم يعتمدون حوالي ألف فارس. ولا يتوفر بني عتيق إلا على المشاة الذين يبلغ

عددهم تقريبا 1200 رجل. غير أن الحصن المنيع لبني زناسن، يشكله كل من بني منقوش الذين

يعتمدون لوحدهم 5 آلاف من المشاة، وبني خالد بثلاثة آلاف فارس.

وقد شيدت القرى على ضفاف الأنهار وقرب منابع المياه، وحولها توجد بساتين الخضر

والفواكه الرائحة التي تسر الناظرين.

وسيلاحهم المرء القتالض الكبير مع القارات البشع الذي تتوقف كتابان زمانه عند سفح جبل

وريش..

^{٤٤} - يتل اسم واد كيم من أشهر هذه الأسماء.

ولأن ملوية كانت تشكل الحدود القديمة لموريطانيا الطنجية، فإن كل المنطقة الواقعة الواقعة بيني زمامن، وجب أن تشكل جزءا من إفريقيا الفرنسية. ونسائل لماذا عوض ولا كريس الصغير، أثناء رسم الحدود النهائية، المجرى الهائل الذي كان يحترق منذ القدم، كفاصل طبيعي بين علمين مختلفين جدا وهما: المغرب الأقصى (أي المغرب الحالي)، والمغرب الأوسط (أي جزائرا الحالية) "، ويحترف المغاربة فيما بينهم فقط، بأنه كان من حق فرنسا بعد اقتصارها بلجملي، أن تطالب بكل المنطقة الممتدة حتى ملوية. وقد أدركت من اعترافهم هذا، كيف أننا خدعنا مرة أخرى من طرف الدبلوماسية العربية. فقبل أن يرسل ابنه سيدي محمد لمحاربة الفرنسيين على الحدود الجزائرية، قال السلطان مولاي عبد الرحمن: " احتفظ برسائلي الطيبة وأحرق السينة، لكن قبح ما لمرك به في الرسائل السينة ولا تحر اهتماما لما هو موجود بالطيبة ". وسبغ نقاش معلومات أبيه بذلك، وكانت كل رسالة تتضمن رسالتين، الواحدة طيبة والثانية سينة. ففي الأولى، كان السلطان ينادي قائد العسكري بالألا بهاجم الفرنسيين وأن يكون متسامحا معهم في أقصى الحدود وأن يمنع كل انحرف على أرض المعركة ويوقع في قرب وقت معاهدة سلام صادق ودائم.

لار الآن الوجه الآخر للعملة، إذ تقول الرسالة الثانية ما يلي: " قم ببحر هؤلاء القساري القلاب، قتلهم أينما وجدتهم ولا تتسامح مع أي واحد منهم، فليس هناك سلم مع هؤلاء القساري. " وبتاريخ 14 غشت 1844، هرب سيدي محمد من ميدان المعركة، بعد أن هزم جيشه نهائيا، وقد ترك الأمير خيمته وأمتعته، وحتى مظالته الشهيرة التي أثارت فيما بعد، إعجاب الفضوليين ببليس.

ولم يبق في صناعته سوى الرسائل الطيبة أما السينة فقد أحرقت عن آخرها منذ مدة. وقد قهر الفرنسيون بطيبة السلطان الرفيعة. وسيلار هذا الأخير في نفس الوقت، بالتبرؤ مما فعله ابنه، قلا بأن الأمير لم يطلع لأمراءه وبأن بإمكان كل مطلع على رسائله التأكد من ذلك. وسقط مواطنونا المدج والطيبين في الفخ، إلى درجة الاعتكاز تقريبا عن فتصاراتهم. وتخلوا بطيبة خاطر، لعبد الرحمن المنور، عن أجمل الأراضي التي احتلها بقوة السلاح.

* - ملحوظة المترجم: إننا في حلقة إلى تأكيد النص الاستعماري الواضح الذي يتخلل كلام موليريس والذي يبرر الأطماع الفرنسية للمنطقة بالمغرب، بعد أن أحكمت فرنسا سيطرتها على جرجرة (1844).

ويبرز على هذه المنطقة التي يمكن تشييدها بسهولة صغيرة، عبر الحد الكبير من
 فرويا والمسجد التي نجدها في كل مكان والتي تكون دوماً مظلة بالظلمة وبالمؤونة . وإليكم
 أسماء بعض هذه الزوايا.

- زاوية سيدي الحاج محمد الصوري، حيث يتلى " ورد " دقلاوة

- زاوية محبي الدين (" ورد " الشيخ عبد القادر)

- زاوية سيدي رمضان (" ورد " وزان، أي " ورد " مولاي الطيب)

- زاوية سيدي عبد القادر (" ورد " هذا الولي)

- زاوية سيدي الحاج بلعيد

- زاوية سيدي علي البكاي

- زاوية مولاي اندريس

وتوجد سبعة أسواق بالقبيلة وهي:

- سوق الأربعاء ببني ورعش

- سوق الأحد بقرية بني موسى ، قسم بني عتيق

- سوق الثلاثاء بتازاغين، قسم بني عتيق

- سوق الاثنين ببني منقوش

- سوق الأربعاء ببني منقوش

- سوق الأربعاء بصفرو (بني منقوش)

- سوق الاثنين ببني خالد.

ونساء القبيلة أبنات ومن يذهبن إلى الأسواق سفارات الوجوه ولا يخشين نظرات

الرجال. وتدعي بعض الأئمن الخبيثة بأن بعضهن يعانين من برود جنسي. ومن جهتهم، فإن

الرجال يرتدون جلابة رمادية مفتوحة في نصفها الأسفل، مثل جلابة الكبدانيين. ويضسون

البرنوس فوقها خلال فصل الشتاء. أما في فصل الصيف فغالباً ما يكتفون بالملابس، وهم لا

يتخلون أبداً عن أسلحتهم، وهي عبارة عن بنادق جيدة، تم شراؤها من الاسبانيين بمليانة وعن

خناجر من صنع تاهزوتي. ويتحدثون لهجة أمازيغية تسمى الزنقية، وهي متكولة ما بين وجدة

ودندو.

ونجد في الأسواق كل متوجات المنطقة، من أبقار وأغنام وماعز وحمر وبغال وجمال

ودجاج وفولكه وخضر وشعير وصوف وعسل. كما نجد مختلف المتوجات الاسبانية والفرنسية

كالكشموع والبنترول والسكر والشاي والبنادق والفرطوشات والبرود والرمال والاثواب. وقد

وتمجيب المرء من الكم الهائل للخروب المعروض للبيع، إذ أن الأهالي يشتبهون هذه الكمبولة الطويلة والمسطحة التي تتخذ أحيانا أشكالاً غريبة. وتقولند شجيرات الخروب بوفرة في كل القبيلة. لكن الروعة تتجلى بالخصوص في بسطين البرتقال التي تسيطر الوديان البهية لبني وريمش. وتكثر أشجار البرتقال على طول ضفتي واد زكزل. كما أن قرية ركزل نفسها مبنية في وسطها بهذه الفاكهة الفلانة وبهذه الأزهار الفاتحة التي يتغنى بها المنشدون الزناتيون، عندما يقومون في فصل الربيع بجولات غنية عبر المناطق الخفية بالقبيلة. ويعود هؤلاء المنشدون إلى بيوتهم محملين بأكيلات من هذه الفاكهة الذهبية التي تقفوها مقابل إنشادهم والتي ستباع إلى التجار المتجولين الذين سيعرضونها بقصة العيون ووجدة وتيمور وتلسن.

إن الدرويش الشغوف بالبرتقال والقولكة الأخرى والحلويات، وباختصار بكل ما هو صالح للأكل، سيجد في منطقة بني زلادن جنة حقيقية. وسيزورها مراراً، الأولى سنة 1888 والثانية سنة 1893، حيث إن قوته الساذب التي تقام بها، بل إنه سينتخذ كل التدابير للاحتفال بعيد الأضحي في القرى المترفة هناك. لذلك نراه باستمرار، متجولاً في أراضي القبيلة باحثاً عن مكان الوعدة وعن الطعام الجديد.

وبزاوية تزاغين التي كان متحقاً بها على الخصوص، لنواعي بطانية لا يتسع المقام لتحليلها هنا، كان الطلبة يحثرون الدرويش غير جدي وغير قادر مثلاً على القيام بمهمة التدريس التي تشغل الوقت وتستدعي الاستقرار، والتي كان يقوم بها معلم متمسك ومشاكس، أسلم الروح لها ربها. فقد كان الدرويش يهوب قبلد وينهيب يومين أو ثلاثة لهم متتابعة، ثم يعود من جولته ملطخاً بطول وبالفيل، ممرق الثياب بسبب الأشواك الموجودة بالمسالك الضيقة التي يهوى المرور منها، وسط الكتل الجبلية للمنطقة برمتها.

وفي إحدى الأمسيات، عند السحر، جلب معه إلى قرلوية رجلاً فتي به وسط الغلبة، حيث كان تلتها وسط الأشجار الكثيفة. وكان عمر الرجل أربعين سنة تقريباً، وقد تلقى تكويناً متيناً بفلس وأجهد نفسه في التصديق مدة عشرين سنة، وما زال مقتنماً بأنه غير مؤهل لشغل كرسي أستاذ النحو بمسجد من المساجد الحديثة بالمعاصرة الشريفة. وقاده قدره إلى بني زلادن وهو خلوي الوفاض، حيث أكرمت ضيقته في كل المساجد التي ينتم بها والتي يخلدها صلباء بحثاً عن عمل وطالباً فقط بأن يحظى بتعليم مبادئ القراءة للأطفال من ست سنوات. لكنه لم يجد شيئاً، بسبب الحسد الحاد للمتخلفين الذين يمنونه بدون رحمة، من كسب قوته بشرف. وقد دلم هذا الأمر مند مغارته لقلس. وعندما وجد الدرويش مستلقياً فوق العشب، اعتقد في البداية بأنه واحد من المتسولين الجوالين الذين يوجدون بكثرة بالمغرب. لكن، لما تلبس الطريق سوية وتعدنا

معاً، فدمر محمد من العلم الغزير الغريب وتباً له يستقبل زاهر وينجح باهر برؤية سيدي
رمضان، شريطة أن يصارع بقوة من أجل تولد المكفة اللاتفة به، هذا مع العلم، بأن مدعي العلم
من الشباب، سيتراجعون بسرعة أمام تقوله الذي لا يضاهي. واعتقم الدرويش ثيابه بالقول:
' عندما تحصل على كرسي النحو أتمنى ألا تنساني'. قال ذلك وهو مخبط في قرارة نفسه،
ومتخيل لجبال الأطعمة التي ستقدم لمصوبه من طرف العلاقات المحترقة بعلمه. خير أن فرجل
الذي تعود على الصبر، لكفى بأن طلقاً رأسه، كعلامة على الموافقة، إذ من الذي يمكنه التنبؤ
بالمستقبل؟

هكذا، تلبها السور كصديقين حميمين، سعيدين بلقائهما وبتماقدهما وبإشراك إمكانتهما
المحدودة في الصراع من أجل اكتشاف الزاوية معرفة. وعند المساء، كان كل مطمح القرية الذين
اغبروا بمجيء هذا المناسف الضليل، حاضرين تحت قبة الزاوية. وقد أطر الوافد الجديد بالعديد
من الأسئلة طوال الليل، لكنه خرج منتصراً بعد هذا الامتحان. وعند ذلك اللحظة تقرر لعماده، إذ
أن شيخ الزاوية نفسه، الذي تخوف من إشجاع هذا المعلم البنفس على حسابه والذي كان قد هبأ
بن أخيه لشغل المنصب الشاغر، لكونه جاهلاً وبلدًا، سيستدعي الغريب العلامة وسيطلب منه أن
يغادر القرية إلى جهة أخرى، يمكن أن تستفيد من معرفته الثمينة! وهكذا انتصر المطمون! هذه
الفتنة الحاسدة، العاقبة التي يطغى عليها الطمع والتكبر والتي ليس لديها من العلم إلا القليل الذي
لا يكفيها كي تكون واحة بجهلها وبخطئها الجسم. فقد أعلن هؤلاء المطمون فتصارهم وأشاعوا
في كل مكان، بأن محمدًا الجوال قد تجرأ ليمس مشردًا أكثر عزًا وجهلاً منه. واستسلم
الدرويش المسكين بدوره، حيث أصبحت وضعيته اللاتفة عن هذا الفضل صعبة؛ لذا غادر الزاوية
مقلتها أثر مصوبه الذي لن يجد أبدًا. وعين الشاب المتعلق sémillant لمنصب كرسي النحو،
طما بأن أهليه كلفت تلخص في تعلقه لأغنياء المنطقة وعلاقة القرابة التي تربطه بشيخ الزاوية.
إن أهالي بني زناس القرييين جدا من وحدة، لم يكونوا مستقلين تمامًا. فقد نهجت السلطة
المخزنية في أن تفرض عليهم قيودًا، كانوا هم أنفسهم مرهقين من طرف أشخاص غامضين،
بشار إليهم في البلد كله بلقب احتقاري وهو: " الضارجية" (قبصاصون نالوا الأخبار). ولأن
هؤلاء المطهرين العائلين بالقبوليس المخزني كانوا يعتبرون بأن من مصلحتهم التعلون مع رؤساء
الأهالي، فإنهم كانوا يشتركون معهم في استنزاف الضمطاء الذين لا يستطيعون مقاومة الاستغلال.
وما زال الناس يتفكرون فيمال ستي بولنوار وستي المكي وستي الطاهر الكبدلي. فهؤلاء
قبصاصون قتلثة، المكفون بمصلحة الاستعلامات، كانوا موقوفين ومحتجزين وسهيقين في قبيلة
برمتها.

إن الإدارة ما قبل التاريخية، أي إدارة الأقوي، هي السائدة في بلاد السبية . ولقد هم رؤساء شيوخ ولهموا محاربتين. ففي كل منطقة مستقلة بالمغرب، تتخالف المعتقدات الخفية وتكتسب زبده Clients وتسن القوانين وتكون هي السائدة بدون منازع.

وعند الفوضى المغربية المغربية التي تشكل موضوع قديمنا دقم للأوروبيين ليست في الحق سوى أولغاثرية مؤسسة ببقان، صلت منذ قرون ، وما زال بإمكانها أن تعمل على تعظيم كل جهود ملوك مراكش الصغار roitelets . ورغم ذلك، إذا ما قررنا بأن القوة العنيفة لهؤلاء السلاطين محدودة، فيجب أن نتعرف بالمقابل، بأن سلطتهم الروحية توفىها حجما. وعليها ألا ننسى بأنهم حفلة الرسول (ص)، حيث تجري في عروقهم النماء المقدسة لمؤسس الإسلام العظيم. فمن نوجد هنا بكل تأكيد، أمام نهاية عريقة أفضل بألف مرة في نظر المسلمين، من كل الملوك العظيم والأقوياء الذين يتفخر بهم العالم المسيحي.

وفي الفترة التي أقام فيها الدرويش عبد بني زناسن لأول مرة، كان لهذه القبيلة الشرف الذي لا تعد عليه في القوافر على أربعة فيد وهم: علي أورباخ قائد بني خالد، ولد لأوجيل - أوجيل (ابن التيم)، (القسمية عربية أمازيغية) قائد بني منقوش، ولد الصبيب قائد بني حقيق، ولد البشير أو مسعود، قائد بني وريش. وقد تلقوا برونوس التحيين من يد السلطان نفسه الذي خاطبهم قائلا: "أذهبوا ولا تقلدوا سلوك أولئك الفونة الذين يشكلون وحمة عار على جبين الإمبراطورية".

وقد ظلت المغامرة الأساسية لقائد بني زناسن السابق، علقته بالأذهان على الدول. كان يدهي ولد البشير أو مسعود. وقبل تعيينه قائدا، قدم هو أيضا إلى فاس وقبل الاعتناء الشريفة وأصبح مهيب الجانب في بلده، حيث حظي بالشهرة بفضل ثروته وكثرة مناصريه. وقد تمكن من القضاء على قتيل العلوانين له ببني زناسن و بأنجاد. هكذا أصبح رجل سلطة بكل معنى الكلمة، محاطا بقوة عائلة، مستعدا للتمرد على ملكه في كل لحظة ومخربا هذه المنطقة بفضل غزواته المتكررة، ناعنا عامل وجدة بالطفل الصغير. ولأن الأمالي دهوا ذرعا بهذا الطاغية الصغير Tyranneau ، فقد رفعوا شكيتهم إلى فاس، مطالبين بأن الوضع أصبح لا يطاق ولمنعين بأنه إذا لم تتم مساعدتهم، فإنهم سونضمون إلى صف ولد البشير الرعيب. وأرسل السلطان جنوده لإيقاف انتشار حد هذه، لكنهم تلقوا هزيمة نكراء وكان اندحارهم كليا. وعندما شعر القائد بنشوة الانتصار، طمع في تسليق الدرجات العليا وسمح لأتباعه بإضفاء لقب السلطان عليه. وقد بذل الإمبراطور لشريف كل ما في وسعه وكل ما يتوفر عليه من حيل، لجلب هذا الشخص المزعج إلى بلاطه. فبحث الرسائل والهدايا والبلاغات بدون جدوى، إذ أن ولد البشير ظل بجبله التي

تصيه من كل هجوم. وأخيرا احتدى السلطان إلى أفضل مصيدة، فقد بحث إلى القلعة، مصيحه القنصة وتلهل الأمان المكتوب كناية بغط يده الشريفة. و " القليل " هو كراس صغير، وسمت على صفحاته مربعات وجدول قبالية cabalistiques ، مرفوقة ببعض السور والآيات القرآنية، والهدف منها هو دحر كل مكروه عن حاملها. وكان هذا هو أسى نليل على الطور المملوح من طرف السلطان، للتأثر الذي يغطي على حياته. ولأنه اعتقد بزوال كل عوامل الخطر، ارتكب فقد الزناني مجازفة تلبية دعوة سيده المقاتل. وما أن وصل إلى فارس حتى التقى إلى مراكش تحت حراسة مشددة، حيث كان ينتظره فهو يقصي فيه بقية حياته ولى بغيره أبدا.

مكنا ثم القضاء على هذا الرجل الطموح الذي كان يقوم مشكلة لأزيغية صغيرة يكون هو الحاكم فيها. وقد ظلت ذكراه في الشرق الزيفي راسخة، باعبارها وطنيا شهما، صارح إلى آخر لحظة، ضد العرق العربي المنطق. وأصبحت أسطوره، وهي أسطورة جميلة وبراقة، منتشرة وسط الأمازيغ. وهو ما جعلني أجد صعوبة في التمييز صحتها بين الصحيح والخطأ. وقد ساهمت شاعرية المنشدين الزنانيين في تصيد ذكري رجل ، لم يكن في آخر المطاف، سوى قلدا طامحا وسفلاكا قدماه وتابعا منلقا.

إن بني زناسن هم فلاحون ومربرو موثي، وهم يحرقون أرضهم بأنفسهم ويذرعون القمح والقمح. كما أنهم يكترون أو يمتلكون أراضي تمتد مساحاتها إلى أجاد أو تريفه، ويقنون في فصل الربيع، مائتهم المكونة من الأغنام والماعز والحييد، وسط هذه السهول الشاسعة والمعروفة بوفرة مراعيها وتوجد الطرائد بكثرة داخل القبيلة، إذ ترحل الأرتاب البرية والحجل والطيور العابرة في جنة الأحلام هذه Eldorado ، حيث لم يكن أحد يزعمها إلى عهد قريب؛ لكن لما رأى الأهالي بأن هذه الحيوانات تناع بشكل جيد بالجزائر، بدؤوا بصطادونها ويأتون بها إلى محفظتنا، حارمين بنات لوى والجرذان والقمل وبذات عرس، والعديد من الحيوانات الصغيرة كلفة للحوم والمعترة في هذه المنطقة الجميلة، من وجهتها المعتدة. ويتم دفن موتى بني زناسن بشكل عام، في المساج، وهو المكان المقدس الذي يفضل على الأمكنة الأخرى. وتغطي القبور الحديثة العهد أو القديمة، بزرابي يجلس المؤمنون فوقها، ليلا ونهارا، للصلاة والأكل والنوم. وإذا ما طلبت منهم تصويرا لهذه العادة القرية فإنهم يجيبونك قائلين: " لا يوجد مجتمع أفضل من مجتمع الأموات فعندهم ليس هناك فضول ولا خيانة ولا أي شيء يثير الغشية. إنهم أصدقاء مخلصون ولطفاء غير مزعجين ". ومع ذلك ، يحدث ألا تقنع المساجد لجانين الموتى، إن ذلك يكون الأهالي مضطرين لتوفير مقبرة، عادة ما يكون موقعها قرب المسجد، أي تحت ظلال شجيرات التين الوحشي المحيطة بكل المساجد. ولا تغطي القبور الموجودة بالحراء

بأي احترام، إذ بقي الأمل في قضاء حاجتهم وسط الصبار دون أن يكونوا على علم بأن المكان الذي يلوئونه يتضمن قبراً ما. وهذا التكنيس الشنيع يحصل بدون وعي من أصحابه، لأن الطوبى بطل في العادة قبوراً قديمة، يرقد بها أجداد منسيون. ولا توجد شواهد تخبر الأحياء بأن هناك بنحو ثلاثة أو أربعة أقدام تحت الأرض، يرقد جبل بأكمله إلى الأبد.

القرى الرئيسية ببني زئامن

قسم بني وريمش

- أولاد علي الشهاب، 50 منزلاً، على واد تالما، شمال هذا القسم.
- تالما (الوادي)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، على قواد الذي يحمل نفس الاسم. وهي قرية آهلة بالشرفاء الذين يدعون بأنهم حدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول (ص). وتوجد حول هذه القرية الكبيرة، أربعة قرى صغيرة يسكنها الناس بسطاء، يعتبرون أنفسهم " خداماً " لشرفاء تالما.

- سيدي سعيد، 10 منزل،

- سيدي الحاج السعيد، 100 منزل، على واد تالما،

- واد البشير أو مسعود، 100 منزل، وتحتل موقعا مرميا وسط الجبال، ويقال بأن واد البشير المشهور شكل بها حادثة وشيد قصره المعروف تحت اسم الدار البيضاء. وقد تفتت به قصيدة عربية، سألشر نصها الأصلي وترجمتها إذا ما أمد الله في عمري. ويوجد سوق الأربعاء بالجنوب الغربي من القرية.

قسم بني عتيق

- تزارغن (التباسات)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل، جنوب سوق التلاكاه.

- زكزل، (الأراضي الفراكيتية)، (التسمية أمازيغية)، 500 منزل، وتوجد بوادي رافع مليء بأشجار البرتقال. وهناك يقطن أولاد الحاج السعيد، وهم شرفاء منحرون من مولاي أحمد الإدريسي.

- مولاي إدريس، 300 منزل. إن منات لزوايا والقرى المقريية، تحمل الاسم شبه المقدس للمؤسس العظيم لأسرة الأدارسة؛ إذ تحكي الأسطورة، أن إدريس الأول كان يحب تشييد المساجد أينما حل. وتوجد القرية التي تهتمنا غير بعيدة عن منابع واد زكزل.

- بني موسى، 500 منزل، على المنحدر الجنوبي لجبل بني عتيق
- أولاد الطيب، 50 منزلا، عند بداية سهل بني عتيق
- العطش، 100 منزل، توجد بسهك جنوب شرق سوق الأحد. وهناك من يزعم بأن القرية تحمل هذا الاسم، لأن سكانها مختصون في صنع المطاطيش (مفرد ما عطوش وهو هودج يوضع على ظهر الجمال).
- سيدي بوهريّة، وهي زاوية فخمة توجد بالطرف الشمالي لسحراء الجبل. ويأتي أهالي بني زناسن وكل قبائل الرحل لزيارته فبر هذا الولي الصالح الذي لم تمكن من التوغل على أية معلومة تتعلق بسيرة حياته.

قسم بني منقوش

- سيدي رمضان، 100 منزل، وهي زاوية شهيرة أسسها سيدي رمضان. وقد توفي خلفه المباشر سي المكي في السنة الماضية (1894)، وكان هو "مقدم" طائفة مولاي الطيب الوزاني. وتتوفر هذه الزاوية على أتباع كثيرين بني زناسن وبني سلوس، علنا (بالجزائر) . وقد خلف سي مطاح بن السي المكي والده في الوظائف السامية لمقدم زاوية مولاي الطيب.
- مولاي إدريس تريفّة، 10 منازل، سكانها ورعون كثيرا . ويوجد بالجنوب سوق الأربعماء الذي يقع مثل القرية، على واد بني وکلان.
- زاوية سيدي الأخضر، 10 منازل، أهلها من قشغاه.
- زاوية سيدي علي البكاي، 100 منزل، وتتوفر هذه القرية على زاوية كبيرة مأهولة بأتباع زاوية سيدي محمد بني بوزيان، سيد مدينة القناسة بالدهرة . وكان سيدي علي البكاي مجذوبا شهيرا. ويحلب واد بني وکلان من الجانبين بزوايا عديدة . ولربما ، لهذا السبب سمي بواد العبيد، أي عبيد الله.
- القلعة، 200 منزلا، قرب منبع واد بني وکلان. وهناك، انتقل محمد بن الطيب سنة 1893، بعد الأضحية.
- أيت عبد القريم، 20 منزلا، غير بعيد عن منبع واد صفرو.
- مولاي إدريس القلعة، 50 منزلا على واد صفرو. وهي زاوية كبيرة لمولاي إدريس. وترجع هذه التسمية إلى وجود مظلة كبيرة، بالغة القدم، يقال إن السلطان الإدريسي الشهير، قد هرسها هناك. وهو ما يجعل عمر هذه الشجرة المحترمة يناهز 1105 سنة !
- أولاد مومون، 100 منزل، على واد صفرو.

- صفرو (أصبح لونهم أصفر)، (التسمية عربية)، 500 منزل على واد صفرو . وحسب الأسطورة، فإن اسم هذه القرية الكبيرة يرجع إلى أسرى الحرب الذين كان أحد السلاطين قرنطين يسجنهم داخل زنزقة لمدة طويلة، إلى أن يتأكد بنفسه من أن لون جلدهم أصبح كالزيتون، آنذاك يطلق سراحهم ، لكن هؤلاء المساكين الذين بلغوا أقصى درجات الإكراه، يموتون بعد ذلك بقليل.

وصفرو عبارة عن مدينة صغيرة مليئة بالمساجد والقوليا، ويوجد بها عدد كبير من الطلبة. وما زال القرويش يتفكر بنوع من الطين، الملبدة الكبيرة التي أقيمت سنة 1888 بمناسبة عيد الضحى، لذلك حمل معه ذكرى طيبة عن عاصمة بني زناسن.

- مولاي إدريس مناع صفرو، 10 منزل، على واد صفرو جنوب سوق الجمعة. وهي زاوية صغيرة مخصصة لمولاي إدريس.

قسم بني خالد

- أهيل (العمر)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب سوق الاثنين. وتوجد بها أشجار ومنابع مياه عديدة.

- تاشجيرات (لززة)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل،

- أوكلي (السهل)، (التسمية أمازيغية)، 100 منزل،

- زاوية ماضي الدين، (المقصود بهذه التسمية، من بلغى القديسات الأخرى، وهو لقب الرسول (ص)، 10 منزل، وكانت تسمى من قبل زاوية مولاي عبد القادر الجيلالي. وفي السنين الأخيرة، كان يدبر شؤونها " مقدم " يسمى ماضي الدين (ماضي الدين) ويشرف على " قورد " الخاص بزاوية هذا الولي الصالح. وقد عرف هذا الشخص بهذه الكبير وأصبح مشهورا بالمنطقة، إلى درجة أن الزاوية اشتهرت باسمه. وقد توفي سنة 1892 وترك أبناء عديدين، تولوا الإشراف على الزاوية من بعده. وتقع هذه الأخيرة عند سفح الجبل، وجهتها الشمال، وتحيط بها مساتين الفواكه قرطعة، كما أنها غير بعيدة عن منبع واد كيس.

" - ملحوظة المترجم: لا تدري من أين استمد المؤلف مبرره لهذه التسمية. ونعتقد بأن الأمر يتعلق بمضي الدين وليس بمضي الدين.

- زاوية الهيري، 10 منزل، جنوب بني زانسن. ويطلق بها " ورد" مرفوعة. وقد كان مؤسسها سيدي الحاج محمد الهيري كريما إلى درجة أنه كان يهب دوما للمساكين الذين يطلبون الصدقة، لعلها من اللحم دون عظم (حبرة)، ومن هنا جاء اسم الزاوية. كما أن حفنة الحاصلين يتموزون بكرمهم الكبير. وهناك أكثر من 100 قرية صغيرة موزعة على القبيلة. القوي العسكرية: 11200 رجل، نصفهم فرسان والنصف الآخر من المشاة. عدد السكان المحتمل: 56 ألف نسمة. المنطقة جبلية. التعليم القرأني منتشر بكثرة. وهناك العديد من المساجد والزوايا، كما يتميز الأماني بالتمسك بالموطر.

قبيلة مرفوعة

(أرض الإتحاف) ، (التسمية عربية)

سيهر محمد بن الطيب بجنوب الريف، عبر أولاد ستوت، بني بويحي، لمطالصة، مرفوعة ، بني بشير، تاركا وراعه قبيلة بني زانسن ومحددا كهدف، حرب إقليم جبلة. وقبل أن يغادر نهائيا هذا الإقليم المتوسطي الغريب، حرص بشدة على معرفة كل القبائل المتواجدة فيه. هكذا، استمر في تجواله مرفوعا بمسيره الصحيح، الذي سيحول منه أحد أروع المكتشفين في هذا القرن (التاسع عشر).

لقد اجتاز دون توقف المناطق الريفية المعروفة لديه، وفي الطريق كان يلتقي أحيانا بأصدقاء قدامى، يطلبونه دون جدوى، بالبقاء معهم. لكنه كشخص دائم التجوال، كان يقبل ضيافة يوم، بكل فيه جيذا ويلهم بشكل أفضل، وفي الصباح، وبعد أن يلفظ الفيل عن ملابسه، يتابع سيره، بعد أن يكون قد خلطب مضيقه بالمباراة التالية: " القعدة سجن والسجن قبر".

وأخيرا وصل إلى مرفوعة، وهي قبيلة صغيرة تشكل أقصى نقطة في الجنوب الغربي. وتوجد مرفوعة ، المحاطة من كل جانب بأراضي جبلة باستثناء الشمال حيث ترتبط بقبيلة كزناية، في موقع يحميها من الهجمات المستمرة لجيوشها الأقوياء. وهي تشغل المنحدرات الشمالية للمنطقة الكبيرة من الجبال الجنوبية بالريف. وتسمح لها مساحتها الصغيرة التي لا تتعدى عشر كيلومترات من كل الجهات ، بأن تكون مستغنية بالقسم الريفي الأخيرة التي تطل منحدراتها من بعيد، جهة الجنوب، على مدينة فاس الكبرى.

وعلى ما يجري وقد مغرولة في الوديان الضيقة، حيث يشق بصعوبة ممرا في الأرض غير المستوية. وفي كل مكان، تترامى للتأخر خضرة بالغة. فالتجار القلوط فضفاضة تظلل شجيرات جميلة، نجد من بينها على الخصوص، شجيرات الصنوبر ذات الرائحة الزكية. وعلى طول النهر، تشكل أشجار الصنوبر والحوار، قمة من الأوراق الكثيفة فوق المجرى الصغير للماء الصافي الذي يمر بين الصخور، رغم وفرةها حاجزا أمامه. وتقالى القرى الكبيرة والصغيرة، حيث يوجد بعضها داخل الدابة. أما البعض الآخر الذي يشكل الأغلبية، فيوجد على سفان النهر.

إن أعالي هذه المنطقة الجبلية منعزلون، فهم لا يرحلون ديارهم ويكرهون جيرانهم، عرب جبلة، الذين يشنون غزاهم. وهم أمزيغ لها من جد، يتحدثون تملزيغت المحقية ولا يلمسون كلمة واحدة من اللغة العربية، ويرتدون جلبية رملية، يوضونها في فصل الصيف فقط بالحذاء، لأن المناخ بارد في قمم جبالهم. ويعتبر الثمير زراعتهم الرئيسية؛ وفي بعض الأجزاء غير المعرولة، تلبث الحفلة التي لا تشمل إلا نادرا.

غير أن البرد والظلم الرديء وهباب رياح الفلكية والحصار، متمثل برحيل القرويين الذي لم يستقر سوى مدة قصيرة بهذه القبيلة التي تتضمن قسمين وهما: أدرار (الجبل) (التسمية أمازيغية) وإمقاسن (المتكلمون)، (التسمية أمازيغية كذلك). ويوجد كل قسم 1500 رجل مسلحين بالبنادق، أي ما مجموعه 3 آلاف من المشاة. أما عدد السكان المحتمل بالنسبة لكل القبيلة فهو 15 ألف نسمة. وبشمال هذه القبيلة، يجتمع حشد من قبليين والمشتريين، بسوق الاثنين حيث تعرض كل المتفوجات بأعلى مناسبة.

القبيلة بني بشير

إن هذه القبيلة الواقعة كلية فوق الجبال الصنهاجية للريف، لا تتعدى مساحتها عشرين كيلومترا، طولاً وعرضاً. وتحد شمالاً بمشوة وزرقت، وشرقا وجنوبا بإقليم جبلة وغربا بتاغزوت وبني بونصر وبني خنوس وبني سادات.

والمنطقة كلها عبارة عن غابة شاسعة تتواجد فيها بكثافة، حوالي مئتين قرية صغيرة محاطة بالخضرة من كل الجوانب. إن أشجار الدردار والقلوط والفلين المجاورة لأشجار اللواكه كالجوز واللوز والشمش، كان بإمكانها أن تجعل من قبيلة بني بشير، إحدى أغنى المناطق بالريف لو أن أهلها أصنوا التصرف بثروتهم للخيرية، لكن لا شيء يتم استغلاله هناك.

للأماشي يكتفون بجني ثمراته الأشجار، دون معرفة بفائدة الفلين ودون أن يفكروا أبدا في بيع
جانب الدردار أو القلوط لصالح الأسلحة بظاهره. فالإعمال والتفريط هما الكلمتان اللتان
تتصوران دائما، عندما نتحدث عن هذا البلد الرائع الذي يسمى المغرب.

ونظرا لوجودهم بجوار جباله، فقد كثروا يستعملون العربية فيما بينهم خارج المنزل، أما
بدخله، فإن النساء والأطفال لا يتكلمون ولا يفهمون سوى تمازيغت. ونساء القبيلة مقتنيات، فهن
يصلن كل الألبسة، من جلابة وحلياء، وهذا لا يمنعهن من القيام بالمصدا وجلب الحطب والماء
والاعتناء بالماعز. وما يميزهن هو سلوكهن الذي لا تشوبه شائبة. ورغم أن الرجال هم كل
الاشغال من زوجاتهم، إلا أنهم يقومون ببعض الأعمال مع ذلك. فهم يحرثون وينكثون الأرض
التي يصعب اختراقها بالمحراث ويقومون بالسمكة في كل مكان تقريبا، لأن المنطقة مليئة بالمنايع
التي تساهم مياهها المنعشة في إنبات الحياة بكل أشكالها. وتحيط القرى الصغيرة بقرينين
صغيرين متباعدتين من هذه المنايع وتجري مياههما من الجنوب إلى الشمال. ويتعلق الأمر بواد بني
بشير الذي يعبر في جزئه الجنوبي غابة رائعة من الدردار، وواد الزلوية، سمي كذلك لأنه ينبثق
من منطقة قريبة من زاوية تاسيلنت (الدردار)، وهي قرية من 100 منزل.

ولم يستقر محمد بن الطهب كثيرا عند بني بشير. فقد كان فصل الشتاء على الأبواب،
ولأن الرحلة الفاصلة قصير كان يخشى من أن تعصره الثلوج فوق القسم الباردة للقبيلة، فلهذا رحل
عند نهاية الخريف وتوجه صوب جباله، بعد أن تأكد من أن بني بشير تضم ثلاثة أقسام وهي:
تاسيلنت (الدردار) (التسمية أمازيغية)، بني بكار (التسمية عربية)، ليت يحيى (التسمية عربية
أمازيغية). ويهند كل قسم 1500 رجل، أي ما مجموعه 4500 من المشاة بالنسبة للقبيلة بأكملها.
وتعتبر البندقية الطويلة المصنوعة بظاهره، بمثابة السلاح الفلاني الوحيد المعروف هناك. عدد
السكان المحتمل 22500 نسمة. التعليم محدود وسط القبيلة. المنطقة جبلية وتوجد بها العديد من
المسالك التي تجوبها البغال.

إن نترك الدرويش يبحث عن قريه، قبل أن تلقى نظرة أخيرة على هذا الإقليم الصغير
الذي كان إلى الأمام القريب، بشكل آخر جزء مجهول على الساحل المتوسطي والذي مازال
مستقلا، كما كان منذ مئات القرون، متوحشا باستمرار ومعتزا بحريته اللامحدودة التي تجعل
أهاليه مقتنعين بأنهم بمنأى عن التسللات والغزوات الخارجية. لكن هل نطمح ما الذي يخبره
المستقبل لهذا الإقليم؟

يبدو في الوقت الراهن، أن الريفيين سعداء جدا بحياتهم التي يقصونها في جهل وفوضى
كاملين. فهم لا يحلمون بسلطانهم العتيقة. ولولئك الذين سخرت لهم الفرصة من بين الريفيين، لرؤية

مبتكراتنا الحديثة كالسكك الحديدية والتلغراف، لم يحدوها أي اعتناء، وهم يشبهون في لامبالاتهم رد فعل مقوس السائق تجاه الدراجة الهوائية. فما يلزمهم، هي الحياة التي يقضونها وسط الطبيعة الرقعة والهدوء السلبي للضباب، الذي لا يرجعه سوى لنفس الخلق، الأني من أصناف اللاتقي، أثناء مرور العواصف الكبرى.

وإذا كان قدر المكون سيقم على بلد الحريات هذا، بأن يخصص لسيطرة الأجانب، فإن ما نتمناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا الدائم، للتعريف مع رعاية المسلمين، دأب على معاملتهم بشكل جيد، أفضل بكل تأكيد، مما هو عليه حال الرعاية المسلمين الآخرين المخلصين للأمم الأوروبية الأخرى*.

* - ملحوظة المترجم: مرة أخرى يتضح بجلالة جهد الاستعاري لهذا السيل الإثنوغرافي الذي يظل مشرقا ومشوقا مع ذلك.

خلاصه

والآن، لقد الذين يقرؤون هذا الكتاب، كيفما كنتم، قراء أو أغنياء، فقراء أو ضحايا، علماء كبار أو أبناء علماء، لا تنتظروا مني تركها ولا تحليلا لمصلي هذا. فإذا لم يكن قد أزعجكم كثيرا، وإذا كان قد أضف إلى مطرقتكم شيئا ما، فسلكون مرتاحا، لأنني سأعرف بأن ماله أن يكون هو الإحراق. ويمكن تفسير هذا الجزء من علي بالرجوع إلى كلمتي العنوان وهما: *المغرب المجهول* وإلى 32 صفحة من التمهيد إضافة إلى المقدمة.

وحتى يتم إسكات النقد لسبب: القلة أو المحدود الأثر، فإني أرى نفسي ملزما بتقديم توضيح وجز. طبعاً هناك ثلاث فرضيات ستكون لكم عند قراءة الأسطر الأولى من هذا الكتاب وهي كالتالي: إما أن الكتاب قد خدع من طرف كل الرحلة المسلمين وإما أنه هو نفسه مغالط وإما أنه قال الحق وليس شيئاً غير الحق ، وفي هذه الحالة، فقد كشف لنا عالماً مجهولاً.

أمام هذه الشكوك، ما هو المعيار الذي يمكن إتباعه للحكم على القيمة العلمية للكتاب وعلى صدق المكتشفين وعلى حسن نية كاتب هذه السطور؟

فاني لا أرى سوى معياراً واحداً، وهو معيار حاسم.. فإليك بيانه: اقموا هذا الكتاب ولوقوا أي ربي التقيتم به، متطعاً كل أو جاهلاً، وقرروا عليه الجزء المتعلق بحياته وبالمنطقة التي يمر فيها، وسيكون جوابه ورد لحظه بمثابة إجابة لي أو إثبات لما قلته. وكم من مرة كنت بنفسى بهذه التجربة ! على ألفة وحرث وبإيجابية وداخل الإقليم، كنت كلما التقيت بالرهبان، إلا ونبوت منهم وتحدثت لهم طويلاً عن بلدهم، مقدما البراهين على أنني أعرفه مثلهم تقريباً. وكان ذمولهم يترجم مباشرة بولبل من المعلومات الجديدة والأسرار الثمينة التي أستفيد منها قدر الإمكان. وكان العديد من أصدقائي المتواجدين معي صحيفة، شاهدين أحياناً على هذا التحري الأصل والمتواصل وعلى الدهشة العميقة للألمانيين الذين سيشرعون في كلام دون توقف، بعد ربع ساعة من الحديث معهم، ملحين على البقاء بجانبى ومنساقين وراء القمعة اللطيفة التي بجانبها لهم التحدث عن موطنهم بعيد وعن العادات والتقاليد التي افتقدوها في أرض المهجر الغريبة عنهم. وقد كانت كلمة سحرية واحدة، تفتح لي القلوب، وتخرج من بين شفاة هؤلاء الرجال البسطاء، أسراراً ظلت مكتومة بعناية من قبل؛ إنه الاسم الممجد للرسول (ص)، هذا الاسم المقدس الذي لا يذكره المسلم بشكل محلي. وكنت أعطي باستمرار عظيم، هو ذكر الرسول (ص) بانختم واستحضار أحداثه السامية، بهدف البرعنة على أن من ينطق بها، يتوارى على الإيمان الصادق..

لها أيتها القوة العظيمة اللدة، بفضلك توصلت إلى النتائج المثمرة لهذا العمل وشعرت
بالخبطة لاندطية أمام الحصد الهائل الذي لقتل تنرجيا والذي أعدي شارو الأولى إلى تلك التي
لا أستطيع ذكر اسمها دون تكرر، إلى أبدا جموعا إلى فرنسا المنظمة والكريمة دائما.
لكنني سأكون نكرا للجميل، إذا لم أنكر الرجل الذي أرسلته إلى عملية الإتيبة، والذي
كل بمثابة الكنز الذي لا يقدر بثمن والمنتج الفرنسي الذي نهلت منه، والذماغ الهائل الذي كبتك
منه عالم لم يكن معروفا. وهذا المشوول الغريب، هذا القنير العظيم التي قد تقدم إليه الصلة
إشعاعا على منظره البئيس، ما زال موجودا في المغرب. وقد توصلت منه بتاريخ 17 أكتوبر
1895 بالرسالة التالية:

« الحصد لله وحده،

إلى حضرة سيدي مولاي راس، عليك سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد، فإن سألت هذا
لها أنا بغير وعائية ولكن السؤال منا إليكم والملائكة معظم في ساعلت الخير نحو ثلاثة أشهر،
والآن ترقى في بلد الدار البيضاء ولابد أن تخبر أصحابك بما كان والسلام.
وكتب في 20 من صفر الخير، عام 1313. محمد بن الطيب والله الله.

وبتاريخ 20 صفر 1313 الموافق 11 غشت 1895، ولم توضع الرسالة بالبريد إلا في 09
أكتوبر ! وذلك بالصورة (موغادور) وليس بالدار البيضاء، كما تشهد على ذلك الطوابع البريدية
بالمخالف. ويمكننا القرائن أن الدرويش أتته في مكان ما داخل مقاطعة الدار البيضاء، قد أودع
رسالته وهو يوم بقتوخل وسط المغرب، إلى أخ له في القطة كل مدحوا للسفر إلى الصورة
(موغادور) لقضاء أغراضه. وهذا الأخ الذي لم يتمكن ربما من السفر، أعطى الرسالة إلى
شخص آخر وهكذا دواليك، إلى أن وضعتها يد مجهولة بصندوق البريد بالصورة، بعد مرور
شهرين على كتابتها !

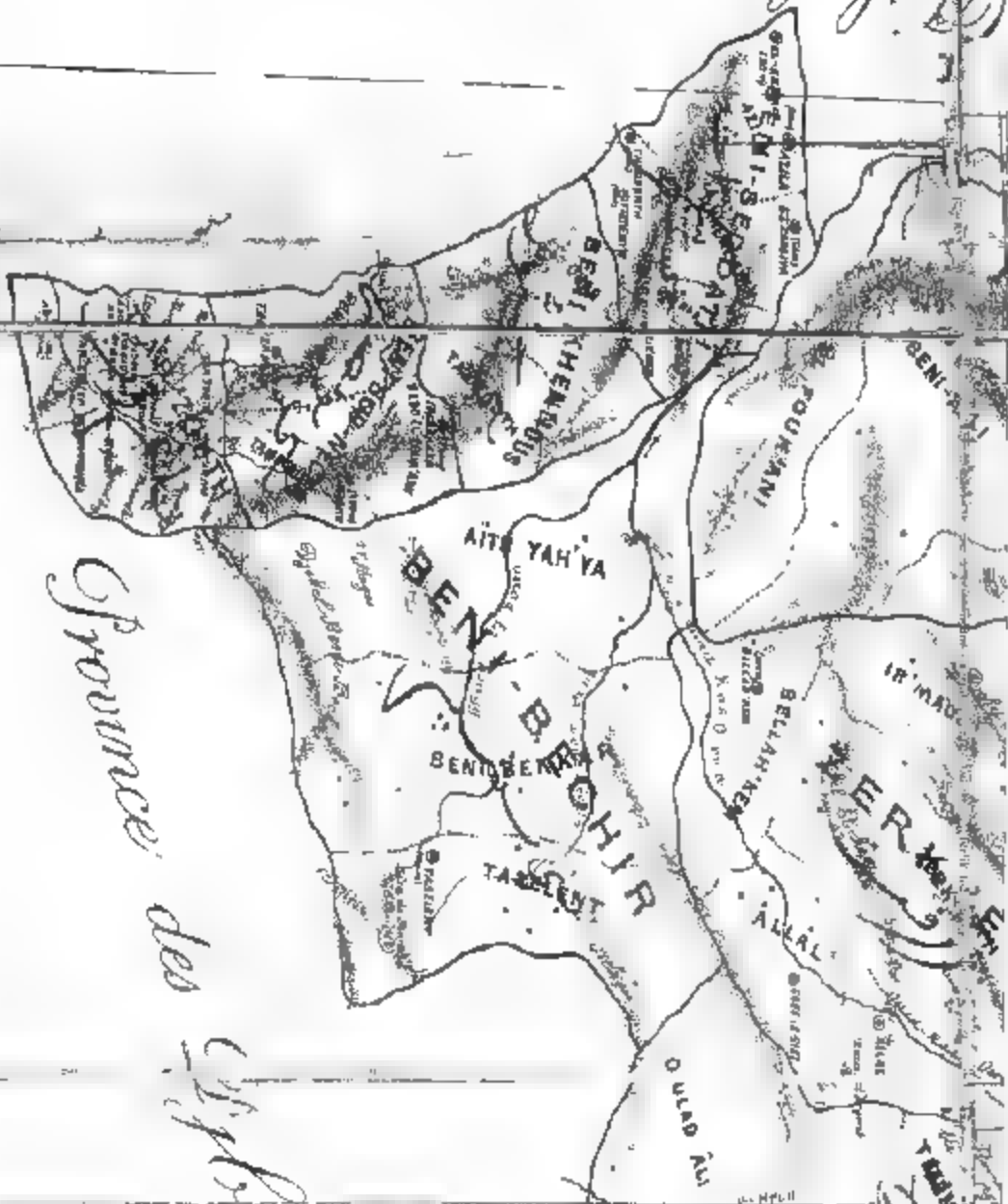
وكيفما كل الحال، فإن الدرويش كل بتاريخ 11 غشت الماضي، يتمتع بصحة جيدة. وأنا
متيقن بأنه يتجول الآن (10 نوفمبر) في قلب المغرب ذاته، هناك حيث لم يسبق لأي أوروبي أن
وضع قدميه. فأني حصاد رائع سيجلب لي، لو تمكن من مغفرة هذه الإمبراطورية الغريبة !
لقد ترك لي هذا المكتشف الجريه قبل رحيله، وديعتين ثمينتين وهما: عصاه التي
يستخدمها في السفر وزوج من المال. وكلفت لديه بدون شك عصا أخرى بديلة. أما بخصوص
القطر، فيما أنهما كلنا جديدين تقريبا، فإنه أفضل عدم تعريضهما لأطماع المغاربة وتلك

بهدائعيما عدي والذباب حلقى القنمين وفوق ظهره جلابة موهلة، وهو عتيق بآله سيد وديته
 الصغيرة بالمنزل كما تركها. فما لمسكين، لقد كانت تلك هي كل ثروته !
 أما الجملة الأخيرة من رسالته والتي اعتبرت لغزا بالنسبة للجميع، فلها واضحة بالنسبة
 لي فهي تقول: « ولا بد أن تشير أصحابك بما كان ». ومضى ذلك، لم ينشر مؤلفك " المغرب
 المجهول" وبشر أصحابك بذلك. والأصدقاء الذين يتقدم طبعها هم الفرنسيون، لأن هذا الرحلة
 الساذج، كان يعتقد بأنني أعرف كل واحد من أبناء وطني وأن كل حدة الفائقين المحترمين بأنفسهم
 Fiers Gaulois، هم أصحابي الأجزاء والحميمين جدا بدون استثناء.
 وما لنا نقت بتكذيب وصيتك يا عزيزي الدرويش المسكين. لقد أنهيت كتاب " اكتشاف
 الريف"، ولم يبق أمامي سوى أن أكتب وأنا مرتاح.
 انتهى الجزء المتعلق بمنطقة الريف.

ملحق

الخرائط

Algérie / *Maroc septentrional*



D I T E R R A N E E



Oriental

if

Méditerranée

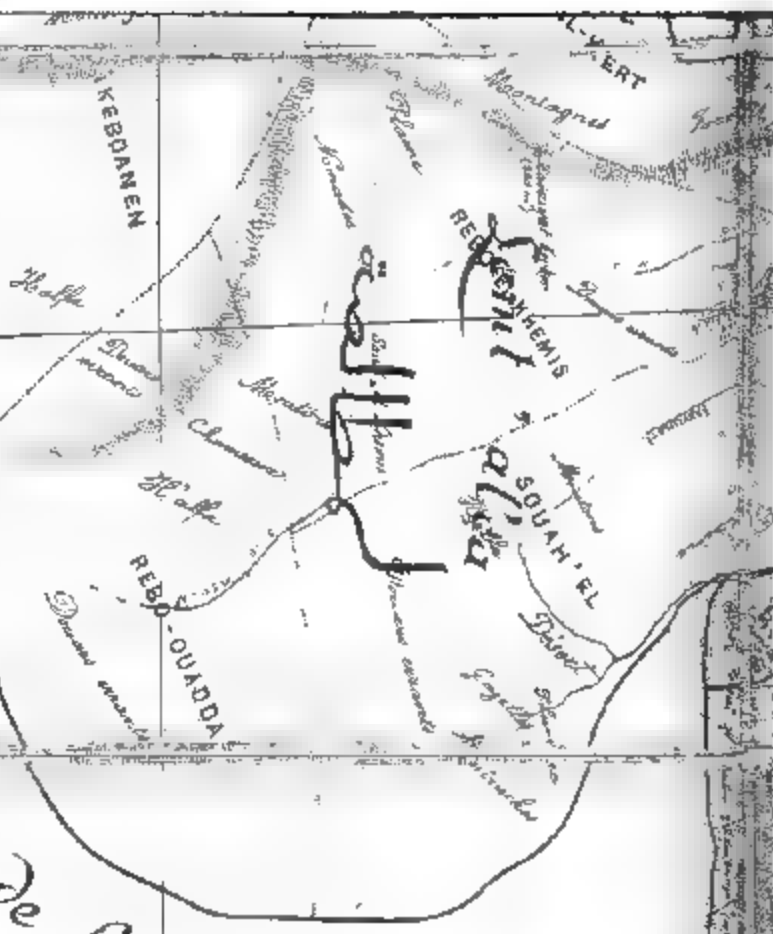
LE MAROC IN
CONNU (1^{re} Partie)
CARTE DU RIF ORIENTAL
par AUGUSTE MOULIÉRAS

ECHELLE DE
1 : 500 000





Provincie de la Dhahra



Légende

- Frontière de l'état
- Frontière des tribus
- Frontière des provinces de l'ouest
- Villages, districts et hameaux
- Montagne ou marais

الفهرس

- 5 - مقدمة المترجم
- 14 - تمهيد: لماذا وكيف أجزت هذا الكتاب؟

المغرب المجهول

- 28 - مقدمة: ثلاث عامة حول المغرب
- - إقليم المغرب
- 30 - الاسم الحقيقي للمغرب
- 31 - الأعراق
- 31 - الأمازيغ
- - العرب
- 35 - الزنوج واليهود
- 36 - ثروات وسكان المغرب
- 39 - الدور الموهول لفرنسا في شمال الغربي إفريقيا

المغرب المجهول: اكتشاف الريف

- 43 - توطنة
- 49 - كيفية تدوين الكلمات العربية والأمازيغية ونطق بها
- 51 - ملاحظات

المغرب المجهول

اكتشاف الريف : قبائل الريف

- 54 - قبيلة تاغزوت
- 61 - قبيلة بني بونصر
- 63 - قبيلة بني خنوس
- 64 - قبيلة بني سيدات

70	- قبيلة منيرة.....
80	- قبيلة بني جميل.....
87	- قبيلتا زرفت وتارجيست.....
91	- قبيلة بني يوراج.....
93	- قبيلة بني يلفت.....
96	- قبيلة بالقوة.....
100	- قبيلة بني ورياخل.....
109	- قبيلة تمسحل.....
120	- قبيلتا بني تولين وتلمسيت.....
125	- قبيلة كزناية.....
128	- قبيلة لمطلمصة.....
131	- قبيلة بني عسريث.....
134	- قبيلة بني مزروي.....
135	- قبيلة بني وثلك.....
137	- قبيلة بني مسعد.....
144	- قبيلة بويحيى.....
148	- قبيلة قلحية.....
176	- قبيلة عبادقة.....
181	- قبيلة تريفه.....
185	- قبيلة أولاد ستوت.....
191	- قبيلتا بني زلمان وبني عحيو.....
203	- قبيلة مغراوة.....
204	- قبيلة بني بشير.....
207	- خاتمة
210	- ملحقات
219	- الفهرس

إصدارات المترجم

1- الأعمال الفردية

- موسولوجيا التقليد والحداثة المجتمع المغربي (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2001.
- مسارات الدرس الفلسفي بالمغرب (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2002.
- محمد عبد الكريم الخطيب، الفقه الوطني (تأليف)، منشورات توفاز ن أريف، الرباط، 2003.
- في الترجمة الفلسفية السياسية والأخلاقية (مجموعة نصوص مترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.
- هينجر والتأقية (نصوص مترجمة لوليامز)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2005.
- حوار الفلسفة والسياسة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2006.
- أسئلة الفلسفة المغربية (تأليف)، منشورات الزمن، الرباط، 2000.

2- الأعمال المشتركة:

- سارة كوشان/ روجي لاووت، منخل إلى لفظة جاك دريدا (ترجمة) دار إفريقيا / الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 1991، ط 2، 1994.
- دريدا، شاتلي كوشان، درس الفلسفة (ترجمة)، المغاربة بقلان، سلا، 1998.
- جرمين ميلون، الحريم ولها العم، تاريخ النساء في المجتمعات المتوسط (ترجمة) دار الساقي، لندن/ لاووت، 2000.
- سلما البندان الفاسية، بين التعميش والتكيد الذات (مجموعة نصوص مترجمة)، مطبعة حوار، الرباط، 2000.
- ماثيو ماريا كاريلو، خطابات الحداثة (ترجمة)، منشورات ما بعد الحداثة، فلز، 2001.
- إسحق جلييس، أسئلة للكتابة (ترجمة) منشورات ما بعد الحداثة، فلز، 2003.
- لودنس كورنو، أكل فارغ، الخطاب الميتافيزيقي، أسئلته ورموزاته (ترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2003.
- منخل إلى لفظة ليمانويل كوتلر (نصوص مترجمة)، منشورات اختلاف، الرباط، 2003.
- قلوب جونليير، نمر لهم سوق للكتابات (ترجمة) منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2005.
- لفر للكتابات (ترجمة) صل جسامي لوداز، برونو وأخرون)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2005.

- ميشال طو، فلسفة العمل، قضايا وإشكالات، (ترجمة)، منشورات ما بعد الحديثة، فاس، 2005.
- نحو كرامة جديدة لتاريخ الفلسفة، مطبعة النجاح الجديد، البيضاء، 2006.

3- الأعمال الجماعية:

- تدريس الفلسفة بالتقوي وتجديد السلك التربوي (تأليف)، سليكي، إخوان، طنجة، 2001 (منشورات مجلة وليلي، مكناس).
- الكتابة الموسولوجية عند عبد الجليل طيبي (تأليف)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرزل، فاس، دار ما بعد الحديثة، فاس، 2002.
- الفلسفة والمدنية، (تأليف)، منشورات وليلي، مكناس، مطبعة سليكي إخوان، طنجة، 2003.
- الفنون في المنظومة التعليمية بالمغرب، دراسات ودراسات (تأليف) منشورات وليلي، مطبعة سليكي إخوان، طنجة، 2003.
- نحو كرامة المواطن الوطني للتربية والتكوين، (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2004.
- أسئلة الواجب والوجود الإنساني (تأليف)، منشورات وليلي، مطبعة سنان مكناس، 2005.

اثنا وعشرون سنة من الاكتشاف في
هذه الربوع المجهولة من 1872 إلى 1893.
روايات مهمة لرحالة مسلمين، تتعلق
بالأرض والسكان والعادات والتقاليد
والأعراف والمنتجات الفلاحية والصناعية
والتجارية والثروات المعدنية والغابوية والرعوية
وساكنة البلد والقوى العسكرية والإدارة
واللغات والأعراف.